سيرة

إعلام المعاصرين بمعجزات الأنبياء والمرسلين

د. يحيى مراد

إعلام المعاصرين
بمعجزات الأنبياء والمرسلين

تأليف
د. يحيى مراد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله نبي المعجزات وعلى صحبه وعلى الأنبياء والمرسلين جميعا.

وبعد...

المعجزة هي خرق لقوانين الكون, ويؤيد الله سبحانه وتعالى ا رسله.

وقد يخلط الناس بين المعجزة والكرامة, ولكن هناك فرقا بينهما, فرغم أن كل منهما أمر خارق للعادة إلا أن المعجزة يظهرها الله على أيدي الأنبياء والمرسلين, أما الكرامة فهي أمر يظهره الله على أيدي بشر غير الأنبياء.

وفي المعجزات عبر وإيمان وعقيدة خالصة, وقد وجدت الحديث عنها شائقًا مقبولا, فوضعت هذا الكتاب المختصر لبيان بعض معجزات رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فأسأل الله لي ولكم الأجر والقبول.

سفينة نوح

قال تعالى: **فأوحينا إليه إن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كلّ زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم, ولا تخاطبني في الذين ظلموا, ا م مغرقون** [المؤمنون: ٢٧].

١- إلى من أرسل نوح؟

كل نبي أرسل لأمة, فموسى عليه السلام لبني إسرائيل, ومحمد ﷺ أرسل لقريش وللعالمين, وصالح عليه السلام لقوم ثمود, وهود إلى قوم عاد, وهكذا. وأما نوح عليه السلام فلمن أرسل من القوم؟ أرسل إلى أولاد قابيل بن آدم ومن تابعهم من ولد شيث بن آدم، وقد تحدث المفسرون عن ذلك فقالوا: كان لآدم نسلان من أولاده أو قبيلتان إحدى تسكن السهل والوادي الأخضر والأخرى تسكن الجبل. وكان للرجال في القبيلة التي تسكن الجبل جمال وروعة أما نساؤهم فكن ذوات دمامة وقبح. فالرجال أجمل من النساء كثيرا, أما القبيلة التي تسكن السهل والوادي فكانت نساؤها رائعة الجمال لا يستطيع الرجل أن يمعن النظر فيهن لشدة جمالهن, أما الرجال فكانوا على عكس ذلك فقد كانوا من القبح والدمامة بمكان فلا تطيق أن تعيش معهم من الدمامة والقبح.

واستغل إبليس هذه المفارقة العجيبة وأراد أن يخلطهما ببعض حتى تشيع الفاحشة بينهم, فنـزل على رجل من أهل السهل, وجاءه على هيئة غلام ليعمل في بستانه وزرعه, فاستأجره وجعله خادما له, فجاء إبليس بمزمار يحدث صوتا مثل مزامير الرعاة للغنم, وبدأ يحدث به صوتا عاليا ليسمع قبيلة الجبل صوتا غريبا فجاؤوا على هذا الصوت, وأقاموا حفلا جعلوه عيدا كل عام يأتون إليه وبدأت نساء السهل تخرجن متبرجات- وهن على قدر من الجمال- فرآهن الرجال, وهرع رجل من الجبل إلى أصحابه يحكي لهم عن الخبر فتحولوا إليهم ونـزلوا معهم وظهرت الفاحشة الكبرى وحقق إبليس ما كان يريده, فلقد أقسم في السماء ليغوينهم أجمعين إلا الصالحين منهم والمؤمنين بالله عز وجل.

وكثر بنو قابيل وظهرت المعصية, وأكثروا الفساد وأصبح إبليس وأبناؤه بينهم

يفعلون م ما يريدون ويدعو م إلى المعصية فيستجيبون.

وقد كانت الفترة ما بين وفاة آدم ونوح عليهما السلام حافلة بالايمان والفساد وممن آمنوا وكانوا صالحين: ودا ويغوث, ويعوق, وسواع, ونسرا كانوا قوما صالحين وكان لهم أتباع يقتدون م.

وتذكر أن آدم عليه السلام له أربعون ولدا عشرون غلاما وعشرون جارية فكان ممن عاش منهم هابيل وقابيل, وود, كان ود يقال له: شيث ويقال له هبة الله, وقد جعله إخوته رئيسا وسيدا عليهم, وولد له سواع ويغوث ويعوق ونسر.

كان "ود" رجلا صالحا كما ذكرنا, وكان محببا في قومه, فلما مات عكفوا على الجلوس حول قبره في أرض بابل وحزنوا عليه حزنا شديدا وأصبحوا يزورون قبره بصفة دائمة, ورأى إبليس حالهم هذا وجزعهم عليه فأراد أن يستثمر هذا الضعف فيهم فتشبه بصورة إنسان ثم قال لهم: إني أرى جزعكم على هذا الرجل, فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون في ناديكم فتذكرونه به؟

فقالوا: نعم.

فصنع إبليس صنما مثل "ود" فوضعوه في ناديهم فجعلوا يقدسون الصنم ويذكرونه صباح مساء.

فلما رأى إبليس ذلك منهم واطمأن إلى غيهم قال لهم في خطوة جعلته يتمكن من عقيد م ويفسدهم-قال: هل أجعل لكم في منـزل كل منكم تمثالا مثله ليكون له في بيته فتذكرونه, وتعبدونه؟

قالوا: نعم.

فصنع لكل أهل بيت تمثالا مثله, فأقبلوا على هذه التماثيل الأصنام التي حملت اسم الرجل "ود" ولما جاء أبناؤهم أدركوا ما يفعله الآباء, جعلوا يقلّدو م فيما يصنعون ذه التماثيل من عبادة وتأليه, وتوالي بعد ذلك أجيالهم وأحفادهم في عبادة الأصنام, ونسوا "ود" الرجل الصالح وجعلوه صنما يعبد من دون الله وبذلك استطاع إبليس أن يحول اسم الرجل الصالح إلى رمز للوثنية والكفر, فكان "ود" أول ما عبد غير الله, وكان أول صنم يعبد من غير الله اسمه "ود".

وقد أضل ذه الأصنام كثيرا من الأمم فقد استمرت في عباد ا هذه الأمم

قرونا عديدة حتى إلى زمان جاهلية العرب قبل الإسلام وقد قال المفسرون: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد ذلك. فمثلا "ود" كان صنما لبني كلاب بن الجندل, وأما سواع فكانت لهزيل, وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف -عند سبأ- وأما "يعوق" فكانت لهمدان وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي كلاع وكلها قبائل عربية قديمة - وهي أسماء قديمة لرجال صالحين عاشوا في زمن قبل نوح عليه السلام ما بين آدم ونوح.

وقد كان بين نوح وآدم عليهم السلام عشرة قرون, كلهم على شريعة من الحق, فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين, وقد جاء القرآن، بقوله تعالى: **وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا** [البقرة: ٢١٣], كانوا على الهدر جميعا فاختلفوا, وزين لهم الشيطان عبادة الأصنام, فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين, فكان أول نبي بعث نوح عليه السلام.

مئات السنين:

إن الله تبارك وتعالى لما أجمع القوم على العمل بما يعصيه سبحانه عز وجل ويكرهه من خلقه من ركوب الفواحش وشرب الخمور والاشتغال بالملاهي عن طاعته عز وجل. لما رأى منهم كل ذلك أرسل نوحا إليهم وهو ابن خمسين وثلاثمائة سنة, وقيل أربعمائة وثمانين سنة, ثم عاش بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين, وقيل إنه دعاهم في نبوته مائة وعشرين سنة. وركب السفينة وهو ابن ستمائة سنة, ثم مكث بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة.

لبث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما كما قال الله عز وجل يدعوهم إلى الله سرا وجهرا, فيمضي قرن (مائة سنة) بعد قرن, فلا يستجيبون له حتى مضى على ذلك ثلاثة قرون وهو يدعوهم جهارا ارا - وهم من دعوته على حالهم, لا يسمعون له ولا يستجيبون. كان كلما دعاهم هجموا عليه وخنقوه حتى يغشى عليه, ويسقط على الأرض مغشيا عليه, فإذا أفاق قال: اللهم اغفر لقومي فإ م لايعلمون, وكان هذا العمل يتكرر دوما سنوات وسنوات وقيل إن نوحا كان يضرب من قومه حتى الوهن والضعف والمرض ويلف في ثياب كأنه مات, ويظن أنه

قد مات, ثم يخرج فيدعوهم مرة أخرى.

كان يخرج مرة أخرى ومرات يدعوهم, حتى كان الآباء يقولون للأبناء: قد كان نوح مع آبائنا وأجدادنا, وأجداد أجدادنا - إنه رجل مجنون لم يقبلوا منه دعوة دعاها ونحن لن نقبل دعوة يدعوها.

وذات يوم جاء رجل ومعه ابن يتوكأ على عصا مما أصابه من الشيخوخة, فقال العجوز لابنه وهو يشير إلى نوح: انظر يا بني إلى هذا الشيخ إياك أن يغرك.

فقال الابن لأبيه: يا أبت أعطني العصا التي تتوكأ عليها. فأعطاه أبوه الشيخ العجوز العصا التي كان يتوكأ عليها وجلس على الأرض, فمشى الابن إلى نوح عليه السلام, فضربه عدة ضربات ولكن نوح عليه السلام لم ييأس وظلّ يدعو قومه عشرات ومئات السنين ولكن دون جدوى.

دعا نوح قومه إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له, وألا يعبدوا معه صنما ولا تمثالا ولا طاغوتا وأن يعترفوا بوحدانيته, وأنه لا إله غيره ولا رب سواه. وقال لهم نوح:

اعبدوا الله ما لكم من إله غيره, إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم .

وقال: **أن لا تعبدوا إلا الله, إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم** .

وقال لهم نوح: **ياقوم إني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون** .

ترى بماذا أجابوا نوحا بعد أن دعاهم إلى الله عز وجل بكل أنواع الدعوة في الليل والنهار, والسر والعلانية, بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى, فلم ينجح كل هذا, واستمر أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام, ونصبوا لنوح العداوة في كل وقت وأوان, وتنقصوه وسخروا منه.

وقالوا له: **إنا لنراك في ضلال مبين** .

وقال لهم نوح: **ياقوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين** أي أنني لست كما تزعمون من أني ضال, بل على الهدى المستقيم رسول من رب العالمين, أي الذي يقول للشيء كن فيكون.

ثم قال نوح: **أبلّغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون** .

هكذا أجا م نوح في بلاغ وذكاء وكلام مقنع لا جدال فيه.

فقالوا له: **ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين** [هود: ٢٧].

تعجب القوم أن يكون نوح بشرا رسولا, وتنقصوا ممن اتبعه وقالوا: إ م أراذلنا أي: الضعفاء منا, والأقل مكانة ومستوى منا, فنحن أفضل منهم مالا وحسبا ونسبا ولأ م كذلك يا نوح: ضعفاء فقراء أراذل فقد استجابوا بمجرد ما دعو م إليه من غير نظر ولا روية ولا تمحيص.

ونسي هؤلاء الكفار أن الحق ظاهر لا يحتاج إلى روية ولا فكر ولا نظر.

وظلوا يعترضون ويجادلون نوحا ومن آمن معه, فقالوا:

وما نرى لكم علينا من فضل أي: لم يظهر لكم أمر بعد اتصافكم بالأيمان ولا ميزة علينا.

وا موه وقومه بالكذب وقالوا: **بل نظنكم كاذبين** .

عند هذا الحد تحدث نوح عليه السلام بأنه صادق ولن يلزمهم أو يكرههم على شيء وأنه لا يريد منهم أجرا على دعوته أياهم, وإن طلبت أجرا فإني سأطلبه من الله الذي ثوابه وأجره أفضل مما عندكم وخير مما تعطونني, ولن أطرد هؤلاء ولن أبعدهم عني فقد آمنوا بر م مهما عرضتم من إغراءات.

قال لهم نوح: **أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وءاتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون** [هود: ٢٩].

وقال نوح: **وما أنا بطارد الذين ءامنوا, إ م ملاقوا ر م ولكني أراكم قوما تجهلون** . [هود: ٢٩].

وقد تطاول الجدال والزمان بينهم وبين نوح عليه السلام, وكان كلما انقرض جيل منهم وصى من بعده بعدم الإيمان بدعوة نوح ومحاربته ومخالفته, وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل جلس إليه ووصاه فيما بينه وبينه, ألا يؤمن بنوح أبدا ما عاش وما بقي.

وقالوا: **يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا** [هود: ٣٢].

ثم طلبوا معجزات ظنوا أن نوحا لن يقدر عليها بأمر الله فقالوا: **فأتنا بما**

تعدنا إن كنت من الصادقين [هود: ٣٢].

وجاء رده الأخير: **ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم, هو ربكم وإليه ترجعون** [هود: ٣٤].

وجاء التأكيد من الله عز وجل أنه لا فائدة من هؤلاء فلن يؤمن منهم أحد إلا من آمن. وقال الله عز وجلّ لنوح:

وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد ءامن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون [هود: ٣٦].

وبدأ نوح عليه السلام ينتظر أوامر أخرى من ربه.

بدء المعجزة الكبرى:

بدأت المعجزة الكبرى لنوح عليه السلام بحوار جميل بينه وبين ربه وكان بمثابة تقرير كامل عما كلفه الله به من عمل جاء في هذا الحوار الكريم:

قال رب إني دعوت قومي ليلاً و ارا* فلم يزدهم دعائي إلا فرارا * وإني كلما دعو م لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في ءاذا م واستغشوا ثيا م وأصروا واستكبروا استكبارا* ثمّ إني دعو م جهارا* ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا * فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا* يرسل السماء عليكم مدرارا [نوح: ٥- ١١].

وظلّ نوح عليه السلام يذكر لقومه ما دعاهم إليه, ويصور لهم عظمة الله في خلقه, ويبين لهم نعم الله عليهم - ولم يكن لهذا إجابة أو سبيل- فقد ضلوا ضلالا شديدا, وزاد فسادهم وخبثهم مع كثرة جدالهم وإحساسهم بأ م الأكثر فهما وعلما من نوح وهنا قدم نوح عليه السلام نتائج عمله طوال مئات السنين وصبره على أجيال وأجيال منهم, فدعا ربه أن يهلكهم حتى لا يفسدوا في الأرض ويضلوا غيرهم ضلالا بعيدا وقال:

وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا [نوح: ٢٦- ٢٧].

وجاء الأمر الكريم الذي حمل في طياته معجزات عظيمة.

قال الله تعالى لنوح عليه السلام: **واصنع الفلك بأعيننا ووحينا** [هود: ٣٧].

ولربما قال نوح: يا رب وما الفلك؟

فقال له: بيت من خشب يجري على وجه الماء حتى أغرق أهل المعصية وأريح أرضي منهم.

ربما سأل نوح عن الماء, وهو يعلم إن الله على كل شيء قدير.

وقيل إن نوحا سأل عن الخشب, فأمره ربه بغرس شجر الساج كثير الخشب عظيم الأصول والفروع, فأمره الله تعالى بذلك وظلّ يغرس ويغرس وانتظر أربعين عاما حتى أصبح الشجر غابات هائلة. وفي هذه السنوات توقف نوح عن دعوة قومه إلى عبادة الله فلم يدعهم فأعقم الله تعالى أرحام نسائهم فلم يولد لهم ولد, فلما كبر الشجر أمره ربه أن يقطع الشجر فقطعه وجففه ثم قال: يا رب كيف أتخذ هذا البيت أي كيف أصنع هذه السفينة؟ فقال له: اجعله مائلا على ثلاث صور رأسه كرأس الديك وجوفه كجوف الطير وذنبه كذنب الديك مائلا واجعلها متطابقة واجعل أبوا ا في جنبيها واجعلها ثلاث طبقات واجعل طولها ثمانين ذراعا وارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعا.

هذا ا لنون يتخذ بيتا يسير به على الماء- يقصدون السفينة- ثم يضحكون.

وقد جاءت صورة هذا المشهد في القرآن الكريم في قوله تعالى: **ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه** [هود: ٣٩]. أي يستهزئون به وقد استبعدوا أن يحدث ما توعدهم به.

فيجيب عليهم نوح قائلا: **قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون** [هود: ٣٩].

ثم أضاف موضحا ما توعدهم بأنه وقومه سوف يسخر منهم ويتعجب منهم من استمرارهم على كفرهم وعنادهم الذي سوف يقتضي وقوع العذاب م وحلوله عليهم لاحقا (قصص الأنبياء لابن كثير ص ١٨٠), مؤكدا وقوع ذلك بقوله: **فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحلّ عليه عذاب مقيم** [هود: ٣٩].

وأوحى الله إلى نوح عليه السلام أن عجل صنعة الفلك, وانته من صناعة السفينة, فقد اشتد غضبا على من عصاه - عند ذلك استأجر نوح أجراء وعمال

يعملون معه في صنع السفينة وأولاده سام وحام ويافث ينحتون معه السفينة فجعلها ستمائة وستين ذراعا للطول وعرضها ثلاثمائة وثلاثين ذراعا وطولها في السماء ثلاثة وثلاثين ذراعا وطلاها بالقار داخلها وخارجها بعد أن فجر الله له عين القار بجوار السفينة تغلي غليانا وشدها بالمسامير الحديد وطلاها كلها بالقار, وجاء في قوله عن المسامير الحديد: **وحملناه على ذات ألواح ودسر** .

وقد كان عيسى بن مريم يحيي الموتى بأمر الله, فقال له الحواريون: لو بعثت لنا رجلا من قبره يكون قد رأى سفينة نوح فيحدثنا عنها! فانطلق عيسى عليه السلام والحواريون خلفه حتى وصل إلى كثيب من تراب, فأخذ حفنة من التراب وقال: أتدرون ما هذا التراب؟

قالوا: الله ورسوله أعلم!!

قال عليه السلام: هذا قبر حام بن نوح, فضرب التراب بعصاه وقال: قم بإذن الله, فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه, وقد شاب شعره وأصبح شيخا عجوزا, فقال له عيسى عليه السلام: أهكذا مت وهلكت؟

فقال حام بن نوح: لا, ولكني مت وأنا شاب؛ ولكني ظننت أنه الساعة (يوم القيامة) فشبت من الخوف.

فقال عيسى عليه السلام: حدثنا عن سفينة نوح.

قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات: فطبقة فيها الدواب والوحوش, وطبقة فيها الإنس, وطبقة فيها الطير.

فلما كثر أرواث الدواب أوحى الله إلى نوح أن اغمز ذنب الفيل, فغمزه فوقع منه خنـزير وخنـزيرة, فأقبلا على روث الحيوانات.

فار التنور:

انتهى نوح من السفينة فبناها, وأعدها كما يجب, وما بقي إلا إيجاد البحر الذي ستبحر عليه وتتطهر الأرض بمائه من دنس الكفار.

حدد الله مكان وزمان البداية بأمر عظيم وكريم, فجعل خروج الماء من التنور وفورانه هو بداية المعجزة الكبرى التي هزت الدنيا بأسرها, وقد كانت كلمة السر أو

علامة السر هي فوران التنور, وقد قالوا عن فوران التنور عدة أقوال أولها: أنه طلوع الفجر وبزوغ الصباح.

وأشهر ما قيل في التنور أنه مكان صناعة الخبز, وكان فرنا أو تنورا من حجارة, وكان لآدم ثم انتقل إلى نوح فقيل له: إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت وأصحابك. فنبع الماء من التنور فعلمت به امرأته فأخبرته وقالت له: لقد فار الماء من التنور. وقيل إن التنور فار في الكوفة, وقيل بالشام في موضع اسمه عين الورق, وقيل إنه بالهند.

فلما رأى نوح فوران التنور علم أ ا البداية, بداية هلاك قومه.

كان فوران الماء علما وإخبارا لنوح عليه السلام ببداية معجزته كنبي ودليلا على هلاك قومه- كان الأمر الرباني من جزئين:

الجزء الأول: إشارة البدء المتفق عليها والموصى ا لنوح عليه السلام وهي فوران التنور.

أما الجزء الثاني فكان كما ذكرت الآية الكريمة: **قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن ءامن, وما ءامن معه إلا قليل** [هود: ٤٠].

وقد قال المفسرون: إن الله أرسل المطر أربعين يوما وليلة فأقبلت الوحوش والطير والدواب إلى نوح حين أصا ا المطر, وسخرت له, فحمل كل منها كما أمره الله عز وجل: **من كل زوجين اثنين** وبدأ في إدخال الحيوانات والطيور وكان آخر ما حمل الحمار فلما دخل الحمار بصدره تعلق إبليس بذنبه أو ذيله فلم تستقل رجلاه فجعل نوح يقول ادخل فينهض فلا يستطيع - حتى قيل إن نوح قال: ويحك ادخل وإن كان الشيطان معك - كلمة زلّ ا لسان نوح فلما قالها نوح خلى الشيطان سبيله فدخل ودخل الشيطان معه. فقال له نوح: ما أدخلك يا عدو الله - فقال الشيطان: ألم تقل ادخل ولو كان الشيطان معك؟!

قال نوح: اخرج يا عدو الله..

فقال: ما أخرج - وزعم المؤرخون أنه -أي الشيطان- كان في الفلك.

وقيل إن الحية والعقرب أتيا نوحا فقالا: احملنا فقال: إنكما سبب الضرر

والبلايا فلا أحملكما.

قالا: احملنا ونحن نضمن لك أن لا نضر أحدا ذكرك, فمن قرأ حين يخاف مضر ما (الحية والعقرب) من قرأ: **سلام على نوح من العالمين * إنا كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين** لم يضراه أو يصيبه أذى أبدا.

وقيل إن نوحا عليه السلام قال: يا رب كيف أصنع بالأسد والبقر, وكيف أصنع بالعناق والذئاب, وكيف أصنع بالحمام والقط؟

قال الله تعالى لنوح: من ألقى بينهم العداوة يا نوح؟

قال نوح عليه السلام: أنت يا رب العالمين.

فقال عز وجلّ لنوح: فأنا الذي أؤلف بينهم حتى لا يتضاروا ولا يضر بعضهم بعضا.

فحمل نوح عليه السلام السباع والدواب في الطبقة الأولى.

فألقى الله على الأسد الحمى وشغله بنفسه عن الدواب والبقر.

وجعل الوحوش في الطابق الثاني من السفينة, وركب هو ومن معه من أولاد آدم في الطبقة العليا.

وهبط جبريل عليه السلام إلى الأرض.. وحمل إلى نوح عليه السلام في السفينة من كل حيوان وطير ووحش زوجين اثنين, بقرة وثورا, فيلا وفيلة, عصفورا وعصفورة, نمرا ونمرة, قطا وقطة.. إلى آخر المخلوقات.

كان نوح عليه السلام قد صنع أقفاصا للوحوش وهو يصنع السفينة.. وساق جبريل عليه السلام أمامه من كل زوجين اثنين, لضمان بقاء نوع الحيوان والطير على الأرض.

وهذا دليل على أن الطوفان أغرق الأرض كلها, فلولا ذلك ما كان معنى لحمل كل هذه الأنواع من المخلوقات حيوان وطير- أليف وغير أليف صعدت كل هذه الحيوانات والوحوش والطيور كما ذكرنا, وصعد الذين آمنوا مع نوح, قيل إ م كانوا ثمانين إنسانا.

كان عدد المؤمنين قليلا.

فقد جاء تأكيد ذلك في الآية الكريمة: **وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن**

ءامن, وما ءامن معه إلا قليل [هود: ٤٠].

انتهى كل هذا وأصبحت السفينة جاهزة على الأرض. وانتظر نوح ومن معه أمر الله سبحانه عز وجلّ, وقد جعل الله فوران التنور آية بينه وبين نوح وعهد الله إليه فقال: إذا رأيت التنور قد فار فاركب أنت ومن معك على الفلك واحمل فيها من كل زوجين اثنين كما قال الله تعالى: **حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور** .

جاء أمر الله هنا أي: جاء عذابه وهو الطوفان الهادر.

لم تكن زوجة نوح مؤمنة به فلم تصعد إلى السفينة وهي أم أولاده كلهم وهم: حام وسام ويافث ويام, ويسميه أهل الكتاب كنعان, وهو الذي قد غرق في الطوفان, فقد ماتت قبل الطوفان وقيل إ ا غرقت مع من غرق, وكانت ممن سبق عليها القول لكفرها. وقد نــزلت فيها الآية الكريمة في سورة التحريم في قوله تعالى: **ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح وامرأت لوط, كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين** .

وبدأ الطوفان الهادر.. وما أدراك ما الطوفان الهادر..

جاء وصف الطوفان في القرآن - حينما جاء أمر الله- وفار التنور في الفرن الكائن في بيت نوح عليه السلام.

قال القرآن الكريم عن الطوفان الذي سبقه دعاء نوح, قال نوح: **فدعا ربه أني مغلوب فانتصر** .

ماذا حدث بعد هذا الدعاء؟ بدأ الطوفان الهادر بأمر من الله, إذ يقول الله عز وجل: **ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر** , **وفجرنا الأرض عيونا** .

أرسل الله من السماء مطرا لم تعهده الأرض قبله ولا تمطره بعده, وكان كأفواه القرب, وأمر الله الأرض فنبعت من جميع أرجائها.. آبارا وعيونا تضخ بالماء.

ارتفع الماء إلى أعلى جبل في الأرض خمسة عشر ذراعا وهو الذي قاله أهل الكتاب وقيل ثمانين ذراعا. وعم جميع الأرض طولها والعرض سهلها وحز ا, وجبالها وقفارها ورمالها, ولم يبق على وجه الأرض ممن كان ا من الأحياء عين تطرف ولا صغير ولا كبير, وكان أهل ذلك الزمان قد ملؤوا السهل والجبل, فلم تكن بقعة على

الأرض إلا ولها ملك وصاحب وحائز.

ارتفعت المياه من فتحات الأرض, لم تبق هناك فتحة في الأرض إلا وخرج منها الماء ا ـمرت من السماء أمطارا غزيرة بكميات لم تر مثلها الأرض, ومضت ساعات وساعات وانفجرت حركة غير عادية, ارتفعت قيعان المحيطات ارتفاعات مفاجئة, واندفع موج البحار يكتسح الجزء اليابس من الأرض.

وغرقت الكرة الأرضية للمرة الأولى في المياه.

لم تعد كرة أرضية, بل أصبحت كرة مائية, لأن الطوفان أغرقها جميعا بالماء ولم يبق فيها أرض يابسة أبدا.

وقد ذكر أن الطوفان حدث في شهر أغسطس, في الثالث عشر منه.

وقد طغى الماء وارتفع الموج ارتفاعا هائلا, وقال عز وجلّ: **إنا لمّا طغا الماء حملناكم** في **الجارية* لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية** [الحاقة ١١- ١٢].

كان كنعان بن نوح عليه السلام كافرا, ولم يكن نوح يعرف هذا عنه حتى جاءت لحظة الطوفان, وكان يتصور أنه مؤمن عنيد, اختار النجاة باللجوء إلى الجبل, وكان ارتفاع الموج قد أ ى حوارهما قبل أن يعرف نوح أنه مؤمن وقد جاء هذا الحوار في القرآن الكريم:

وهي تجري **م** في **موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان** في **معزل يا** بني **اركب معنا ولا تكن مع الكافرين * قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء, قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم, وحال بينهما الموج فكان من المغرقين** .

وعندما حال الموج بين نوح عليه السلام وبين ابنه, ولم يكن نوح قد تأكد من إيمان ابنه, ولم يعلم أنه من الكافرين. لجأ نوح عليه السلام إلى ربه ترى ماذا قال نوح عليه السلام لربه في شأن ابنه. ذلك ما ترويه الآية المباركة فتقول: **ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإنّ وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين** [هود: ٤٥].

أراد نوح أن يقول لربه, إن ابنه من أهله, وقد وعده الله بنجاة كل أهله المؤمنين. فجاء الرد من الله عز وجلّ لنوح عليه السلام, ليكشف حقيقة هذا الابن الغريق.

قال تعالى: **قال يانوح أنه ليس من أهلك, أنه عمل غير صالح, فلا تسئلن**

ما ليس لك به علم, إني أعظك أن تكون من الجاهلين [هود: ٤٦].

غرق الابن, وغرق أهل الكفر والطغيان, وبدأت رحلة العودة, العودة للأرض الطاهرة التي خلت تماما من الكفر والكفار.

جاء الأمر من الله: **وقيل يا أرض ابلعي ماءك** فتوقف الماء الذي كان يتدفق من العيون.

وياسماء أقلعي فتوقف الماء المنهمر من السماء.

وغيض الماء بمعنى أنه نقص, وانصرف عائدا إلى باطن الأرض.

ورست سفينة نوح عليه السلام على الأرض, وهلك الظالمون, وقال رب العزة لنوح: **اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك, وأمم سنمتعهم** ثم **يمسهم منا عذاب أليم** .

ورست السفينة, وهبط نوح عليه السلام, وأطلق سراح الطيور والوحوش فتفرقت في الأرض جميعا, وعلم نوح عليه السلام إن الأرض قد جفت ويبست من الماء عندما بعث غرابا يأتيه بالخبر, فوجد "جيفة" فظلّ يأكل منها واشتغل عنه بالأكل ولم يرجع إليه فدعا عليه بالخوف ولذلك الغراب لا يألف البيوت.

ثم بعث الحمامة فطارت وجاءت عائدة بغصن زيتون بمنقارها وطين برجليها فعلم إن البلاد قد جفت وطوقها بالخضرة التي نجدها في عنق الحمام أحيانا ودعا لها أن تكون في أنس وأمان فمن ثم تألف البيوت, ويربيها الناس فلا تخاف وتطير مسافات وتعود إلى أصحا ا.

هذه هي معجزة نوح , لم تكن معجزة التنور الذي فار منه الماء وحده وإنما حياة نوح ألف سنة إلا خمسين معجزة.

وبناء السفينة وما احتاجه من زراعة الشجر وانتظار خشبه عشرات السنين معجزة.

وركوب السفينة مع الحيوانات على اختلاف أنواعها معجزة.

والطوفان الهادر معجزة, والهبوط معجزة.

إ ا معجزات النبي نوح عليه السلام وليست قصة حياته.

ناقة صالح

قال تعالى:

إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر * ونبئهم أن الماء قسمة بينهم, كلّ شرب محتضر * فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر * فكيف كان عذابي ونذر * أنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتضر [القمر ٢٧-٣١].

المعجزة:

إن الله سبحانه وتعالى عندما يؤيد رسله وأنبياءه بالمعجزات فإنه لا يتحدى ا فردا واحدا, ولكنه يتحدى أمة بأكملها, إنه يطلب منهم أن يستعين بعضهم ببعض إن استطاعوا, ولن يستطيعوا.

وحتى لا يقول الكفار: لقد جاء نبي يدعو الرسالة بشيء لم نتقنه ونبغ فيه, ولو تعلمناه لجئنا بمثل هذه المعجزة, جاءهم بشيء تعلموه بل ونبغوا فيه واشتهروا بفعله, ثم بعد ذلك تحداهم به, لكنهم يعجزون!!

ومعنى التحدي هو إثارة حماس القوى المعارضة لتفعل والقوى المعارضة هي الكفار, أو غير المؤمنين.

لقد تحداهم علنا, لتهيج نفوسهم أمام الناس, ويحاولوا قدر طاقا م أن يأتوا بمثل المعجزة ويحشدوا لها طاقا م, بل ويجندوا لها للرد عليها, ولكنهم مع كل ذلك, ورغم كل ذلك يعجزون.

وإذا كان صالح عليه السلام قد احتاج من الله عز وجلّ معجزة, كي يعزز دعوته ورسالته بالحجة التي لا ترد فإننا يجب أن نعرف معنى المعجزة وما هي المعجزة؟

(ومعنى المعجزة أن يأتي الله سبحانه وتعالى على يد رسول من البشر بأمر خارق ليثبت ا صدق بلاغ هذا الرسول عن الله عز وجل, فكان الرسول يقول: أنا لم أعرف بينكم بما نبغتم فيه, ولكني أتيت بشيء لا تقدرون عليه. وأنا أتحداكم أن تجتمعوا جميعا وتستعينوا بعضكم ببعض.. ولن تقدروا على الإتيان ذه المعجزة. وهذا دليل صدقي في التبليغ عن الله.. إن أعوزكم الدليل, وكنتم في شك مما أقول).

نعود إلى صالح عليه السلام الذي أرسله الله تعالى إلى قوم ثمود, وثمود قبيلة كبيرة كانت تعبد الأصنام, فأرسل الله سيدنا صالحا إليهم, وقال صالح لقومه:

يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره [هود:٦١].

قال لهم صالح نفس الكلمة التي يقولها كل نبي لقومه, هي هي لا تتغير ولا تتبدل **اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** , وكانت دعوة صالح عليه السلام مفاجأة لهم, لأنه يتهم آلهتهم ويقول إ ا بلا قيمة, وهو ينهاهم عن عباد ا ويأمرهم بعبادة الله وحده, وأحدثت دعوته هزة كبيرة في مجتمعهم وكان صالح معروفا بينهم بالحكمة والنقاء والخير, فكان يحظى باحترامهم جميعا قبل أن يوحي الله إليه ويرسله بالدعوة إليهم. ولذلك فإ م توجهوا إليه بالحديث فقالوا: **قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا, أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب** .[هود: ٦٢].

لقد استنكروا على صالح أن يقول هذا, وقالوا: هذا الرجل الذي كان لنا رجاء حسنا فيه لعلمه وعقله وصدقه وحسن تدبيره, يصدر منه مثل هذا الكلام, أيعقل هذا؟ لقد خاب رجاؤنا فيك يا صالح.. أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟ وظلوا يستنكرون ما هو حق وواجب, ويدهشون أن يدعوهم أخوهم صالح إلى عبادة الله وحده.

لم تكن لديهم حجج ولا براهين في الرد على صالح, سوى هذا التفكير وهذه الكلمات, فقط هم غاضبون ومندهشون لأن الآلهة التي يريد أن يبعدهم عنها صالح كان آباؤهم وأجدادهم يعبدو ا!!

حطم صالح عليه السلام جدار الجهل الذي يستظلون به وحطم العادات المهلكة والتقاليد البالية التي سيطرت على عقولهم عن التفكير ائيا فما إن أثار صالح عليه السلام حركة هذه العقول لتفكر, وتتدبر أمرا بينا واضحا, ما إن فعل هذا حتى استشاط غضبهم, واختلطت الحيرة بالغضب واليأس والطيش, فصاروا لا يدركون ما يقولون, لأ م أمام خيارين إما أن تتفتح عقولهم وتقبل ما يقوله صالح عليه السلام أو يتركوا هذه العقول تتحجر وتقف عند أفكار السابقين وخرافا م, وأوهام العادات والتقاليد المستقرة في رؤوسهم حتى أ ا تمكّنت لدرجة الجهل المطبق.

وكانت دعوة صالح لهم واضحة وضوح الشمس, فهي دعوة التوحيد في صميمها, وهي إعلان مباشر بحرية العقل وحرية التفكير وحرية الاختيار فهذه الحجج بين أيديهم الله واحد, خالق كل شيء, لا شريك له وهو النافع وهو الرازق وهو الرحيم- أمام حجر لا ينفع ولا يضر من صنع من يعبدونه, وهو من خلق الله سبحانه عز وجلّ.

وقد ساق صالح عليه السلام حججا يعيشو ا فقال لهم: **اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** .

ثم ذكرهم بالنعم فقال: **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم** في **الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا** .

وذكّرهم بنعم الله فقال: **فاذكروا ءالاء الله ولا تعثوا** في **الأرض مفسدين** .

أي إنما جعلكم الله خلفاء من بعد قوم عاد لتعتبروا بما كان من أمرهم, وتعملوا بخلاف ما عملوا, وأباح لكم الأرض تبنون من سهولها قصورا, وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين أي متميزين وحاذقين في صنعها وإتقا ا وإحكامها, فقابلوا نعمة الله بالشكر والعمل الصالح, والعبادة له وحده لا شريك له, واياكم ومخالفته والعدول عن طاعته, فإن عاقبة ذلك وخيمة.

ولهذا وعظهم صالح بقوله: **أتتركون** في **ما ههنا آمنين*** في **جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم** .

أي متراكم كثير حسن ي ناضج.

ولما عارضوه وقالوا: إنك كنت فينا عاقلا وحكيما إلى آخر هذه الحجج الضعيفة التي يردو م عليها دون أن يشعرون, لما قالوا ذلك تلطف صالح في رده عليهم وألان لهم الجانب, فقال لهم: **يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير** .

قال لهم: فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه؟ ماذا يكون عذركم عند الله؟ وماذا يخلصكم بين يديه وأنتم تطلبون مني أن أترك دعاءكم إلى طاعته؟ وأنا لا يمكنني هذا لأنه واجب علي لو تركته لما قدر أحد منكم ولا من

غيركم أن يجيرني منه ولا ينصرني, فأنا لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له, حتى يحكم الله بيني وبينكم.

ولكنهم بعد ذلك ا موا صالح بأن له سحرا, أو أنه مسحور لا يدري ما يقول في دعائه لهم إلى إفراد العبادة لله وحده, وترك ما سواه من الأصنام والأنداد.

ظلوا يقولون له هكذا ويعارضونه يمينا ويسارا وصالح عليه السلام يدعو ليل ار, ويأتي بالحجج من هنا والأخرى من هناك, لعلهم يرجعون عما هم فيه.

طلب منهم أن يستغفروا الله عسى الله أن يغفر لهم ذنو م, وطلب منهم أن يتوبوا إليه, ويقلعوا عما هم فيه ويقبلوا على عبادته, فإن فعلوا ذلك, فإنه عز وجل يقبل منهم ويتجاوز عنهم وقال لهم: **إن ربي قريب مجيب** .

ولكن كل هذا دون جدوى, وأحس صالح عليه السلام إن الأمر قد صعب تماما, وإن الأمور تسير إلى الاتجاه الأسوأ فكلما دعا هؤلاء تمردوا وتملّصوا وجادلوا في أمر من أمور جاهليتهم في جدال لا ينقطع ولا تنفع معه الحجة والوضوح لأن الطرف الآخر الذي هو شريك في هذا الحوار طمس الله على عقولهم, ولم يعودوا يتفكّرون في أمر أو يتدبرون شيئا أبدا كان لا بد لهم من معجزة تعجزهم وتخرس ألسنتهم, تكون خارقة فلا تتحرك ألسنتهم بجدل أبدا, وجاء الحل على لسا م فقالوا لصالح عليه السلام:

فأت بآية إن كنت من الصادقين .

طلبوا منه أن يأتيهم بخارق يدلّ على صدق ما جاءهم به.

الناقة المعجزة

وقد ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يوما في ناديهم, فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله, وذكّرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم, فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة, وأشاروا إلى صخرة هناك- إن أنت أخرجت لنا منها ناقة- من صفا ا كذا وكذا وذكروا أوصافا فأسموها ونعتوها وتفننوا فيها, وأن تكون عشراء طويلة.

فقال لهم صالح عليه السلام وهو يعرفهم ويعرف طباعهم: أرأيتم إن أجبتكم إلى

ما سألتم على الوجه الذي طلبتم, أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقون ما أرسلت به؟

كان شرط صالح عليه السلام واضحا لاجدال فيه, فهم يطلبون ناقة تخرج من صخرة أمامهم, عشراء طويلة, بكل الأوصاف التي طلبوها, وهذا الأمر في حدود تفكير البشر مستحيل, وقد طلبوه خصيصا لأنه مستحيل وظنوا أ م بطلبهم المستحيل هذا يعجزون صالح.

هكذا وصلت حدود البشر ولا حدود لهم تتجاوز هذا الأمر.

أما صالح عليه السلام فقد استوثق منهم العهد ووضع الشرط وهو على يقين دائم بأن الله سبحانه عز وجل لن يخذله أبدا, ولم يتطرق إلى تفكيره أن ما يطلبونه مستحيل بل هو يسير على الله عز وجل فليطلب من ربه المعجزة اليسيرة على الله سبحانه, المستحيلة في ظنهم.

وانتظر القوم, وجهزوا سخريتهم عندما يعجز صالح عن الإتيان بناقة تخرج من هذه الصخرة التي أشاروا إليها وهذا مستحيل في ظنهم وعرفهم ويقينهم.

اتجه صالح عليه السلام إلى ربه, وقام إلى مصلاه فصلى لله عز وجلّ ما قدر له أن يصلي, واتجه في خشوع وإيمان إلى ربه بالدعاء, فطلب من ربه أن يجيبهم إلى ما طلبوا, فكان منه الدعاء ومن الله الاستجابة.

استجاب الله عز وجل فأمر سبحانه جلّ شأنه تلك الصخرة التي أشاروا إليها أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه والشروط التي وضعوها, أو على الصفة التي نعتوا.

كانت الناقة آية ومعجزة من معجزات الله, لأن الآية هي المعجزة, ويقال إن الناقة كانت معجزة لأن صخرة في الجبل انشقت يوما وخرجت منها الناقة وخرج وراءها وليدها الصغير, وولدت من غير الطريق المعروف للولادة, ويقال إ ا كانت معجزة لأ ا تشرب المياه الموجودة في الآبار في يوم فلا تقترب بقية الحيوانات من المياه في هذا اليوم, وقيل إ ا كانت معجزة لأ ا كانت تدر لبنا يكفي الناس جميعا في اليوم الذي تشرب فيه الماء فلا يبغي الناس منه شبعا.

كانت هذه الناقة معجزة, ووصفها الله سبحانه وتعالى بقوله: **ناقة الله** [هود: ٦٤].

لقد أضافها الله لنفسه سبحانه عز وجل بمعنى أ ا ليست ناقة عادية وإنما هي معجزة من الله.

نعود إلى صالح عليه السلام بعد أن بينا كيف كانت الناقة آية ومعجزة.

انفطرت الصخرة عن الناقة, وظهرت لهم مع وليدها. فلما عاينوها كذلك رأوا أمرا عظيما, ومنظرا هائلا, وقدرة باهرة, ودليلا قاطعا, وبرهانا ساطعا فآمن كثير منهم, واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم.

قال لهم صالح عليه السلام: **ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل** في **أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب** .

وأصدر الله أمره إلى صالح أن يأمر قومه بعدم المساس بالناقة أو إيذائها أو قتلها, أمرهم أن يتركوها تأكل من أرض الله, وألا يمسوها بسوء, وحذرهم أ م إذا مدوا أيديهم بالأذى للناقة فسوف يأخذهم عذاب قريب.

وقد أدهشت الناقة قوم ثمود في البداية, فقد كانت ناقة مباركة.. كان لبنها يكفي آلاف الرجال والنساء والأطفال, وكانت إذا نامت في موضع هجرته كل الحيوانات الأخرى, كان واضحا أ ا ليست مجرد ناقة عادية, وإنما هي آية من آيات الله.

وعاشت الناقة بينهم, فآمن منهم من آمن وبقي أغلبهم على الكفر والعناد.

وكان رئيس الذين آمنوا رجل يقال له: جندع بن عمرو بن محلاة وكان من رؤسائهم وأشرافهم. قصص الأنبياء لابن كثير.

وهم بقية الأشراف بالدخول في دين صالح إلا أن رجلا يقال له ذؤاب بن عمرو ورجل آخر اسمه الحباب كان صاحب أصنامهم اهم عن ذلك.

ولما حذرهم صالح عليه السلام من أن هذه ناقة الله فلا يمسوها بسوء أبدا, تحسروا على أن تبقى بين أظهرهم, ترعى حيث شاءت من أرضهم وترد الماء يوما بعد يوم, وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك, فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم المخصص لهم ليشربوها في اليوم التالي يوم الناقة, ويقال إ م كانوا يشربون من لبنها كفايتهم, ولهذا قال: **لها شرب ولكم شرب يوم معلوم** .

وكانت الناقة فتنة لهم واختبارا عظيما لإيما م ليرى أيؤمنون ا أم يكفرون؟

والله أعلم بما يفعلون.

وقد قال الله عز وجل لصالح: **فارتقبهم** أي انتظر ما يكون من أمرهم **واصطبر** على أذاهم فسيأتيك الخبر على جلية. وقال له عز وجل:

ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر .

ورغم أنه كان واضحا أ ا ليست مجرد ناقة عادية, وإنما هي آية ومعجزة من معجزات الله, رغم ذلك تحولت الكراهية عن سيدنا صالح إلى الناقة المباركة!! تركزت عليها الكراهية, وبدأت المؤامرة تنسج خيوطها ضد الناقة.. كره الكافرون هذه الناقة العظيمة, وهذه الآية المعجزة, كرهوا ناقة الله وآية الله العظيمة, ودبروا في أنفسهم أمرا.

وقد كان طبيعيا أن يجيء التدبير السيء من رؤساء القوم.

وقد ذكر المؤرخون وعلماء التفسير (الطبري في تاريخه): إن امرأتين من ثمود اسم إحداها "صدوقة" ابنة المحيا بن زهير المختار, وكانت ذات حسب ومال, وكانت تحت رجل مسلم آمن بصالح ففارقته وتركته, فدعت ابن عم لها يقال له "مصرع" بن مهرج بن المحيا, وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة, واسم الأخرى "عنيزة" بنت غنيم بن مجلز, وتكنى أم غنمة أو أم عثمان وكانت عجوزا كافرة لها بنات من زوجها ذؤاب بن عمرو أحد الرؤساء فعرضت بنا ا الأربع على قدار بن سالف, إن هو عقر الناقة فله أي بنا ا شاء, أي واحدة منهن يرغبها.

فابتدر وانتدب هذان الشابان لعقرها وسعيا في قومهم بذلك, فاستجاب لهما سبعة آخرون فصاروا تسعة. وهم المذكورون في قوله تعالى:

وكان في **المدينة تسعة رهط يفسدون** في **الأرض ولا يصلحون** .

وسعوا في بقية القبيلة قبيلة ثمود وحسنوا لهم قتل الناقة وكان لهم مجلس كبير.

فلما سقط الليل على مدينة ثمود. وانتصبت الجبال شامخة تحتضن البيوت المنحوتة فيها, وبدا واضحا للكافرين إن أحدا لا يمكن أن ينالهم بسوء.

وفي داخل أحد القصور أضيئت المشاعل, وجلس الكفار وقد دارت عليهم كؤوس الشراب وهم شبه دائرة. كل رؤساء القوم حضروا هذه الجلسة الخطيرة. انعقدت الجلسة ودار بينهم حوار طويل.

قال أحد الكافرين: **أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر** [القمر: ٢٤].

وقال آخر: **أءلقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر** [القمر: ٢٥].

وعادت الكؤوس تدور وانتقل الحوار من صالح إلى ناقة الله.

قال أحد الكافرين: إذا جاء الصيف جاءت الناقة إلى ظل الوادي البارد فتهرب منه المواشي إلى الحر.

وقال كافر آخر: وإذا جاء الشتاء بحثت الناقة عن أدفأ مكان واستراحت فيه فتهرب مواشينا إلى البرد وتتعرض للمرض.

وأصبح الجميع في سكر كامل وكؤوس الشراب تدور وهي تهتز في أيدي الشاربين, وأمر أحد الجالسين أن تكف المغنية عن الغناء حتى يستطيع أن يفكّر.. وصمت الجميع.

ثم قطع هذا الرجل السكّير صمت الحاضرين بقوله: ليس هناك غير حل واحد.

قالوا وما هو؟

قال: نقتل الناقة, ثم بعدها نقتل صالحا.

وبدأ الحاضرون في الحديث عن صالح بقول السوء فقال أحدهم: كم نتشاءم منه ونتطير, ومن ناقته ومن كل الذين آمنوا معه.

إنه حل واحد نقتل الناقة, ثم نثني عليه, طرح اسم القاتل, إنه رجل جبار من جبابرة المدينة, رجل يعبث في الأرض فسادا ولا يكف عن شرب الخمر والويل لمن يعترضه وهو مخمور, وله أعوان يساعدونه على القتل. ويستطيعون أن يكونوا أداة للجريمة ويختاروا مكان التنفيذ بأنفسهم.

ليلة المأساة

وجاءت ليلة الغدر, كانت الناقة المباركة تنام وهي تضم لصدرها طفلها الصغير الذي استدفأ بها, واستعد المجرمون التسعة لجريمتهم وعلى رأسهم قدار بن سالف. لعنه الله, وخرجوا من جوف الظلام وفي نفوسهم الخيانة, وكان زعيمهم قدار بن سالف قد شرب كثيرا من الخمر, حتى لم يعد يرى ما أمامه وهجم الرجال

التسعة على الناقة فنهضت واقفة و ض طفلها فزعا, وامتدت الأيدي القاتلة إليها للقضاء عليها, وكان أول من سطا على الناقة هو قدار بن سالف, فعرقبها أي ضر ا في عرقو ا فسقطت على الأرض, ثم ابتدروها بأسيافهم يقطعو ا فلما رأى ذلك طفلها, شرد عنهم فعلا إلى الجبل هناك ورغا ثلاث مرات.

ولما علم صالح عليه السلام بما حدث خرج غاضبا على قومه, وقال لهم: ألم أحذركم أن تمسوا الناقة.

قالوا: قتلناها فائتنا بالعذاب واستعجله لنا ألم تقل لنا أنك من المرسلين؟

فقال لهم صالح عليه السلام: **تمتعوا** في **داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب** [هود: ٦٥], أي غير يومهم ذلك.

فلم يصدقوه أيضا في هذا الوعد الأكيد, بل إ م لما أمسوا هموا بقتله وأرادوا, فيما يزعمون أن يلحقوه بالناقة, فأقسموا أن يهجموا عليه في داره فيقتلوه ولكن الله حمى نبيه صالحا عليه السلام منهم ونجاه.

وقال الله عز وجل: **قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله** ثم **لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون** [النمل: ٤٩].

وأصبحت ثمود اليوم الأول من أيام النظرة الثلاثة - التي أنظرهم ا صالح- ووجوههم مصفرة, فلما أمسوا قالوا: إلا قد مضى يوم من الأجل ثم أصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل, ووجوههم محمرة وفي الثالث من أيام المتاع اسودت وجوههم. فلما أمسوا قالوا: إلا قد مضى الأجل. وليس هناك شيء من العذاب.

وفي فجر اليوم الرابع انشقت السماء عن صيحة جبارة, انقضت الصيحة على الجبال فهلك فيها كل شيء حي, وارتجفت الأرض رجفة جبارة فهلك فوقها كل شيء.

هلكوا جميعا في صرخة واحدة, أما الذين آمنوا بسيدنا صالح فكانوا قد غادروا المكان مع النبي صالح عليه السلام ونجّاهم الله.

بقرة موسى

قال تعالى: **وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة, قالوا**

أتتخذنا هزوا, قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين* قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي, قال إنه يقول إ ا بقرة لا فارض ولا بكر ولاعوان بين ذلك, فافعلوا ما تؤمرون [البقرة: ٦٧, ٦٨].

آزر وراحيل

أعدت راحيل الفراش لزوجها آزر بن حيلوت ليستريح من عناء التعب وراحت تسأله عن مغيبة بالأمس, وقد انتظرته طويلا في كوخهما فقال آزر: لقد أحسست ثقلا ووجعا, فقضيت الليلة عند أحد أصدقائي لعلي أصيب شيئا من الراحة, ولكني أصبحت أشد تعبا.

فقالت راحيل: عما قليل ستشعر بالراحة تماما وما عليك إلا أن تستريح وتحكي لنا ما صادفك في رحلة السوق هذه المرة.

فقال آزر: لا شيء يا زوجتي سوى التعب والشعور بمقدمات المرض, ولم أبع شيئا أو أشتر غير عجلة صغيرة عجفاء هزيلة قد يبلغ عمرها ثلاثة أشهر أو أربعة.. اشتريتها لولدي إلياب.

راحيل: وأين هي؟.. وما قصتها؟

آزر: هي بقرة صغيرة ذات لون أصفر جميل يعم بد ا كلها, وقد وقع في قلبي أن أشتريها.. وما إن اشتريتها حتى أقبلت تأكل ما قدمت لها من الكلأ اليابس.. وهي الآن ترعى في الغيضة القريبة منا.. ثم سكت قليلا وقال: وأنت كيف أخبارك؟ وكيف حال ولدنا إلياب؟ أين هو؟

راحيل: يلعب مع صبيان القرية وهو بخير.., وقد مر بنا نبي الله موسى عليه السلام وهو عائد من جبل المناجاة وقد دعا لولدنا إلياب فقبله.. ومسح على رأسه ودعا له بخير ولكنه لم ينتظر كعادته.

آزر: إذا كان لم ينتظر كعادته فلا بد أن بني إسرائيل أحدثوا حدثا في غيبته, فأخبره الله به, فرجع على هذه الحالة التي ذكر ا من الحزن والغضب.

راحيل: سمعت أنه ترك بني إسرائيل يعبدون عجلا من ذهب صنعه لهم ساحر منهم اسمه السامري.. فكلمت نبي الله موسى حين جاء في ذلك فلم يجبني بجواب.

آزر: هذا هو السبب, فما أشد ما يلقى نبي الله موسى من بني إسرائيل.

قالت راحيل لزوجها آزر: ألا تقوم معي لتريني العجلة التي اشتريتها لولدنا إلياب.

قام الرجل يتوكأ على عصاه وسار هو وزوجته حتى بلغا مكان العجلة, فنظرت إليها راحيل, فإذا لو ا الأصفر الجميل يتألق كأنه ينبعث منه شعاع الشمس, فسرت بمنظرها سرورا عظيما, وأحست كأنما تطالعها بفأل حسن, وأخذت تمر بيدها على جسمها وتمسح لها رأسها وفمها.. والتفتت إلى آزر وقالت:

انظر يا آزر فإنني أراها مقبلة على عشب الغيضة ولن تمضي عليها بضعة أيام حتى تمتلئ لحما.

وبعد قليل استدار الزوجان عائدين إلى الكوخ..

قال آزر: إ ا حقا بقرة جميلة, وإن قلبي يحدثني أن ستكون خير المال أتركه لولدي إلياب..

فاستاءت راحيل من إشارة آزر إلى الموت وقالت: ولكنها تحتاج إلى جهد ورعاية حتى تثمر ويجني ثمرها. فهي ضعيفة عجفاء كما ترى.

فقال آزر: اعلمي أنني لا أورث ابني إلياب سوى تقوى الله عز وجل, وهو سبحانه يتولى الصالحين وسيتولاني في ولدي إلياب, وسيبارك له في مالي أو في كنـزي الذي تتهكمين به.. فإذا أنا فارقتكم فالتفتي لولدك, وعلميه قواعد الإيمان وما ورثناه عن آبائنا: إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وما تلقيناه عن نبي الله موسى ولا تمي بأمر العجلة.. لا تحرثي عليها أرضا, ولا تسقي ا زرعا, ولا تركبي لها ظهرا, ولا تحلبي لها لبنا.. ذريها واتركيها مسلّمة في الغيضة ولا تفكري فيها فإ ا ستكون بعين الله. ومتى كبر إلياب فاذكري له شأ ا.

عاد الزوجان بعد هذه الرحلة إلى الكوخ, فدخل آزر إلى فراشه وقد أحس بالتعب يعاوده من جديد, وتحدث مع زوجته في أمور كثيرة تحدث معها عن خوفه من الموت وكرر لها الوصية بولده إلياب والكنـز الثمين وهو العجلة الصفراء العجفاء التي سيتركها له.

وقال لها: لقد كان حقا علينا أن نتحدث عن الحياة لا عن الموت والفرح لا

الحزن, نعم هذا الصبح سوف أحدثك عن الحياة والفرح وأقول لك إنني أحب أن يتزوج ولدي إلياب رفقة بنت شمعون فإن أباها من صلحاء شيوخ بني إسرائيل..

وكان شمعون بن نفتالي هذا رجلا غنيا يملك الكثير من الغنم والبقر ويملك الذهب والفضة, وصاحب وصديق نبي الله موسى عليه السلام الذي لا يكاد يفارقه, وهو شيخ من العباد, وكثيرا ما كان يقول لآزر: لقد سميت ابنتي الوحيدة رفقة تيمنا باسم رفقة زوجة أبينا إسحاق نبي الله, وأتمنى على الله أن يكتب لها الزواج من شاب صالح.. ثم يقول: حبذا لو كان هذا الشاب هو غلامك الصغير إلياب فإنه يكبرها بعامين.

سعدت راحيل ـذا الكلام, وقالت: حبذا لو كان ذلك إن رفقة طفلة جميلة وستكون أجمل إذا ما كبرت..

وسعدت راحيل أيضا بحديث زوجها المتفائل عن الزواج والفرح ولكن المرض اشتد على الرجل, ولم يمهله وقتا طويلا فتوفي بعد عدة أيام.

زواج لم يتم:

جاء رجل يقال له منسي بن إليشع إلى صديقه شمعون بن نفتالي الرجل الغني الصالح, وقال له: إن ناداب ابن أخيك صوغر قد أوفدني إليك لأرجوك أن تزوجه ابنتك رفقة, وأرى أن تجيب رجاءه رعاية لقرابته ورحمه.

فقال شمعون على الفور وقد أشاح بوجهه: تكلم في غير هذا يا منسي, ولا تخاطبني في هذا الماجن الذي قطع علاقته بربه.

وليكن في علمك يا منسي أن ناداب لا يريد الزواج برفقة؛ إنما يريد أن يرثني.. ويريد أن تؤول تركتي إليه مع رفقة.. ولست أول من جاء ليخطب له ابنتي ومحال أن يكون ذلك.

فقال منسي: لك الحق يا شمعون, وإني أُقرك وأوافقك على كل كلمة قلتها, وما حملني على أن أكون رسوله إليك إلا ما رأيته في عينيه من الشر, فإني أخشى أن يقتلك ويؤذي ابنتك من بعدك.

فقال شمعون: هذا ما أشعر به يا منسي, وذلك ما أتوقعه من هذا الشرير, ومع

ذلك فلن أزوجها له, وليفعل ما يشاء.

صمت منسي لحظة ثم قال: ولكن عليك أن تدبر أمر ابنتك من الآن, وتختار لها بنفسك الشاب الذي تراه كفءا لصلاحها وعقلها.

قال شمعون: اخترت لها إلياب ابن صديقي آزر رحمه الله. ولكني لا أعرف أين يقيم, وأنا دائم البحث عنه, فإذا عثرت به زوجته إياها, إنه الآن في الثامنة عشر من عمره, وقد ورث كل ما نعرف لأبيه من خلال وصفات, لقد ورث الشرف والصدق, وصدق الإيمان بالله.

قتيل بني إسرائيل

استيقظ بنو إسرائيل في صبيحة يوم من أيام الله وقد وجدوا جثة شمعون بن نفتالي ملوثة بالدماء وملقاة قرب محلة بعيدة عن المكان الذي فيه منـــزلته وعشيرته.

وقد دوى خبر مقتله دويا هائلا في بني إسرائيل وأثار ضجة كبيرة فيما بينهم لما كان له من حسن الخلق وجودة الرأي ووفرة الغنى وكثرة البر والصدقة.

وصار هياج بين الناس, وحزن الفقراء واليتامى والضعفاء, وقامت عشيرته بل بلدته كلها تطالب بدمه وتلقي وزر الجريمة على سكان المكان الذي وجدت فيه جثة شمعون بن نفتالي, وكان أشد الجميع مطالبة بدم شمعون هو "ناداب بن صوغر" ابن أخ شمعون, مظهرا الحزن والجزع لما أصاب عمه العزيز!

وكان أهل المحلة التي وجدت جثة القتيل قربها من أشد الناس حزنا عليه ولكن عشيرة "شمعون" القتيل وعلى رأسهم "ناداب بن صوغر" ظلوا مصرين على أنه قتل بيد من فئة من أهل هذه المحلة واشتدوا في المطالبة بدم قتيلهم.

وعلا الضجيج, وكثر اللغط, واشتد الجدل بين الفريقين, وأوشكوا أن يقتتلوا, فاجتمع شيوخ بني إسرائيل ومن حولهم الغوغاء والعامة إلى نبي الله موسى عليه السلام ليفصل بين الفريقين في قضية دم القتيل.

واجتمع الناس في مجلس يشبه مجلس القضاء أو المحاكمة وكان الاجتماع في ساحة واسعة امتلأت عن آخرها شيبا وشبابا, ورجالا ونساء, وجاء أهل القتيل " شمعون" وجاء أهل البلدة المتهمة, وتكلم ناداب بن صوغر في جزع وحزن مثبتا

التهمة على القرية الظالمة وأدلى بما لديه من حجج, وأنكرت القرية تهمة القتل وأولت ذلك بما تكن للقتيل من حب ومعزة واحترام.

وانتظر الناس كلمة نبي الله موسى عليه السلام, فهي الفاصلة بينهم, فأنصت الجميع وأرهفت الآذان وتطاولت إليه الأعناق, وإذا به يقول: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة.

وسمع القريبون من موسى الكلام فدهشوا له وعجبوا, وظهرت الحيرة على وجوههم وفي نظراتهم, أما البعيدون عن المجلس فلم يسمعوا غير أنهم رأوا الدهشة والحيرة على وجوه غيرهم فتصايحوا يريدون معرفة حكم نبي الله موسى.. وارتفعت الأصوات.

فوقف أحد الناس على مكان مرتفع وصاح بأعلى صوته وقال:

إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة.

وعندما سمع الناس قوله هاجوا وأحدثوا شغبا, وساد الهرج والمرج, واختلطت أصوات ساخرة بأصوات مستنكرة هذا الطلب وهذا الأمر. فهذا يقول: ما دخل معرفة القاتل بذبح البقرة؟

وآخر يقول: إن نبي الله يمزح.

وثالث ينادي بأعلى صوته قائلا: وهل هذا وقت المزاح؟

وقال ناداب بن صوغر: إن موسى يهزأ بنا. إنه يتخذنا هزوا.

وسادت الفوضى فانسحب موسى من المجلس, وانفض الناس وهم يتندرون بالبقرة التي يريد نبي الله ذبحها.

أما المؤمنون الأتقياء فقد طلبوا من الناس أن يكفوا عن السخرية والشغب وقالوا لهم: إن نبي الله موسى لم يقل شيئا من عنده, بل هو كلام الله الذي كلمه به, فهو يقول لكم: **إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة** فكيف يكون هذا مزاحا؟

عليكم أن تتلقوا أمر الله بالطاعة والتسليم لا بالسخرية والشغب والتندر والمعصية.

وفي اليوم التالي جاء موسى عليه السلام إلى مجلس القضاء وجلس بين المؤمنين الأتقياء, وتقدمت إليه عشيرة القتيل وقالوا له: يا نبي الله أتتخذنا هزوا؟!

قال موسى: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين.

وهنا وقف شيخ كبير صالح وقال: يا بني إسرائيل لقد رضيت عشيرة القتيل, وعرفت أن نبي الله لا يتخذها هزوا وخصوصا أن القتيل كان من صالحي خلصائه وأصحابه.

وبعد نقاش وحوار حول من يدفع ثمن البقرة قال أحد الشيوخ العقلاء: أرى أن يشترك في ثمن البقرة كل رجال بني إسرائيل, فالقتيل قتيلنا جميعا, وسلام الشعب لا يهم طائفة دون طائفة بل يهم الجميع.

سكت الناس ورضوا ـذا الحكم, ونظر الجميع إلى نبي الله موسى.

فقال موسى: إذن فاجمعوا المال واشتروا البقرة واذبحوها طاعة لأمر ربكم.

وتلكأ القوم وقالوا: أي بقرة نذبح؟ ادع لنا ربك يبين لنا ما هي.

وصمت موسى وأصغى لنداء الله في قلبه ثم قال لهم: **إنه يقول إ ا بقرة لا فارض ولا بكر عوان** بين **ذلك فافعلوا ما تؤمرون** . [البقرة: ٦٨].

وسألوا وجادلوا عن لو ا, وقالوا: لا بد أن نعرف لو ا.

فتوجه موسى إلى الله يسأله فسمع الإجابة في صدره بأ ا: **بقرة صفراء فاقع لو ا تسر الناظرين** ..

ولكن القوم جادلوا وأكثروا الجدال وقالوا لموسى: **ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله** لم**هتدون** . [البقرة: ٧٠].

وظل بنو إسرائيل في شكهم فمنهم من يؤيد ومنهم من يستنكر حتى أ م قضوا عدة أيام يتجادلون, ثم ذهب صلحاء القوم وعقلاؤهم إلى موسى يقولون له: إنك مطالب بالفصل في قضية دم القتيل شمعون فلا يشغلك عناد قومك عن هذه القضية فاسأل ربك عما يريدون.

فسأل موسى ربه, ثم اجتمع القوم ليسمعوا الإجابة:

قال إنه يقول إ ا بقرة لا ذلول تثير **الأرض ولا تسقي الحرث مسلّمة لا شية فيها, قالوا الآن جئت بالحق, فذبحوها وما كادوا يفعلون** . [البقرة: ٧١].

أي أن هذه البقرة معفاة من الخدمة فهي غير مذللة لحرث الأرض أو سقيها, وليس في جسمها بقعة أو علامة من لون يخالف لون جسمها الأصفر الصافي الفاقع.

اقتنع القوم وقالوا: **الآن جئت بالحق** .

وأخذوا يبحثون عن بقرة: لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك صفراء فاقع لو ا, تسر الناظرين لا ذلول, تثير الأرض, ولا تسقي الحرث, لا شية فيها, فلم يعثروا عليها عند أحد من أهل القرى التي حولهم.

كانوا إذا وجدوا بقرة صفراء ردوها لأن فيها شيئا من لون يخالف لو ا الأصفر, فإذا وجدوها صفراء خالصة ردوها لأ ا بكر أو فارض وليست عوانا بين ذلك, وهكذا دقق بنو إسرائيل في البحث عن البقرة التي تتكامل فيها الأوصاف المطلوبة, وقسموا أنفسهم مجموعات وفرقا للبحث عن البقرة المطلوبة في أنحاء شبه جزيرة سيناء الواسعة, وانتشروا في الشمال والجنوب.

بقرة إلياب الصفراء

بلغ إلياب الثامنة عشرة من عمره وأصبح فتى يافعا وجاءت أمه لتقول له: يا بني لقد كبرت وبلغت سن الثامنة عشرة وصار لزاما علي أن أدلك على الكنـز الذي تركه لك أبوك.

دهش إلياب وقال لأمه: كنـز؟! إن أبي كان فقيرا فكيف يترك لي كنـزا؟

قالت الأم راحيل: لقد ترك لك عجلة صغيرة منذ تسع سنوات وأوصى أن أتركها في أرض الله لا أذللها بحرث أو سقي ولا أتعدها بحراسة فهي في حراسة الله. وقال: إذا كبر إلياب فادفعيها إليه.

فقال إلياب لأمه: وفي أي مكان تركها؟

قالت راحيل: لا أدري ولكنه قال: إ ا في الغيضة الواسعة المجاورة لنا, فاذهب إليها وابحث عنها وسوف لا يطول بحثك لأن الله سيقبل ا عليك.

فقال إلياب: ولكن ما لو ا أو علامتها التي أعرفها ا؟

قالت راحيل: إ ا صفراء فاقع لو ا تسر الناظرين كأن شعاع الشمس ينبعث من جلدها, ليس فيها لون آخر غير هذا اللون الأصفر حتى ولا لون قرنيها وأظلافها.

خرج إلياب للبحث عنها, وما هي إلا ساعة واحدة حتى عاد بالبقرة الصفراء

الجميلة وقد كبرت بعد أن كانت صغيرة وامتلأ جسمها باللحم بعد أن كانت هزيلة.

قال إلياب: يا لها من كنــز مبارك يا أمي..

قالت راحيل: إن ثمنها لا يزيد على ثلاثة دنانير, ولكن المال الحلال الصالح لا يقدر بعدد, بل يقدر بما فيه من بركة, وبر وتقوى الله والنية الصالحة. من أجل هذا سماها أبوك الكنــز.

فقال إلياب: والمال الحلال الصالح يا أمي ينميه الله ببركة التقوى فيعد بالمئات والألوف. وما يدرينا لعل هذه البقرة ذات الدنانير الثلاثة تباع بالألوف التي لا تخطر لنا ببال!

البقرة المعجزة

ومضت أيام, وبينما كان إلياب جالسا مر به أعرابي يقول له: إن جماعة من بني إسرائيل يبحثون في لهفة شديدة عن بقرة تشبه بقرتك وقد دللتهم عليك وإني لأرى أنك لو رفعت ثمنها عليهم لأعطوك ما تريد ولو طلبت ملء جلدها ذهبا لأعطوك.

جاء القوم من بني إسرائيل وقالوا لإلياب: لقد جئنا من عند نبي الله موسى فبعنا هذه البقرة ولا تزد في سعرها.

قال إلياب: إن كانت البقرة لنبي الله موسى فله من غير ثمن.

فقال قوم: إن شعب إسرائيل فقراء وقد أ كتهم الصحراء فاقبل منا ما بأيدينا وليبارك الله لك فيه.

قال إلياب: إن شعب إسرائيل ليس فقيرا, لقد صنع عجلا من الذهب ليعبده من دون الله فليس من الكثير عليه أن يدفع لي ما أريد.

استأذن أمه للذهاب مع القوم ليلقى نبي الله موسى وليتقاضى ثمن البقرة, وقال إنه لن يطيل الغياب.

معجزة الحق والعدل

اجتمع بنو إسرائيل لما سمعوا أ م وجدوا البقرة, وجاؤوا يهرولون ويقولون:

لقد وجدنا البقرة.. لقد وجدنا البقرة.

فلما سمع ناداب هذا الكلام وجاءته هذه الأخبار انعقد لسانه عن الكلام واصفر وجهه, ووجد نفسه يقوم من مكانه مع أصحابه إلى حيث يهرول الناس, فلما بلغوا ساحة القضاء وجدوها مكتظة عن آخرها بالناس ورأوا البقرة قائمة أمام نبي الله موسى, وأنه عليه السلام يقبل إلياب صاحب البقرة لما عرف أنه ابن الرجل الصالح آزر ويربت على كتفيه ويقول له: لقد صرت رجلا والحمد لله, لقد مررت بك وأنت غلام صغير فمسحت على رأسك ودعوت لك بالخير.

وكان بالقرب منه منسي بن إليشع الرجل الذي جاء يخطب رفقة بنت شمعون القتيل لناداب ابن أخيه, وتذكر في رغبة شمعون في زواج إلياب بن آزر منها, فدنا منه ورحب به, وانحنى إلى أذن موسى وأسر إليه كلاما لم يسمعه أحد, ثم ترك الجميع وهرول إلى بيت رفقة ليخبرها أن فتاها إلياب هو صاحب البقرة وقد حضر معها, أما نبي الله موسى فقد أمر بذبح البقرة, فذبحوها, فلما انتهوا قال: اقطعوا عضوا منها, فقطعوه.

فقال عليه الصلاة والسلام: فليحمل هذا العضو إلياب فإنه غريب وإن كان إسرائيليا.

فحمل إلياب العضو.

وقال موسى: هيا بنا إلى قبر شمعون.

فذهبت الجموع تتدافع إلى القبر في زحام شديد, وكثرة هائلة وهم لا يدرون ماذا يريد نبي الله بهذا كله.

قال موسى: افتحوا القبر وأخرجوا جثة القتيل, ونادى: يا إلياب! اضرب القتيل بالعضو الذي بيدك.

وكانت الدهشة والعجب حين رأى الناس القتيل يعود إلى الحياة, ويقف بين الناس بشرا سويا.

فقال موسى: يا شمعون نسألك بحق الذي رد إليك الحياة أن تذكر لنا اسم الذي قتلك.

فقال شمعون: الذي قتلني هو ناداب بن صوغر.

وفي وسط ذهول الناس لهذه المعجزة, عاد شمعون إلى الموت وأقبلت الجموع ثائرة على ناداب تريد أن تفتك به, ولكن موسى قال: القصاص حكم الله.. فلنقم عليه حد القتل جزاء ما فعل.

وشهد الناس مشهدا عجيبا، شهدوا إلياب يزف إلى رفقة في بيت أبيها. وشهدوا ناداب يندب حظه وهو يساق إلى الموت.

تلك هي معجزة القتيل الذي رده الله إلى الحياة ليشهد على قاتله.

ويقول الله عز وجل عن هذه المعجزة: **فقلنا اضربوه ببعضها, كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلّكم تعقلون** [البقرة: ٧٣].

سبحان الله خالق المعجزات والآيات..

موسى والخضر

قال تعالى: **فلما بلغ مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا* فلما جاوزاه قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا* قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فأني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره, واتخذ سبيله في البحر عجبا* قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا* فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما** [الكهف ٦١-٦٥].

اختص الله عز وجل موسى بنعم كثيرة, وكذلك اختص قومه بهذه النعم التي أنعم بها عليه, ولذلك فقد ظل موسى عليه السلام يشكر الله على نعمه.

وكان موسى يصلي لله شكرا على ما أعطاه من نعم, يتعبده حمدا على ما وهب له, ويبتهل إليه أن يديم عليه رضاه وكرمه. وذات يوم سأل ربه: يا رب؛ أأنا الآن الوحيد على وجه الأرض الذي حبوتني بالعلم, وخصصتني بالمعرفة؟!

فأجابه ربه: يا موسى إنك لا تعلم إلا ما شئنا نحن أن تعلمه, ولا تعرف إلا ما أردنا لك أن تعرفه.

قال موسى متسائلا: يا رب, أيوجد من هو أعلم مني؟!

فأجابه ربه: لي عبد صالح يعلم ما لا تعلم. ويعرف ما لا تعرف.

قال موسى: يا رب, أين أجد عبدك الصالح هذا؟ لقد اشتاقت نفسي إلى معرفته.

قال عز وجل: يقيم الآن عند مجمع البحرين.

قال موسى: يا رب؛ أريد أن أذهب لأراه, فأرشدني إليه, ووفقني للقائه.

قال عز وجل: اذهب وسأجعل لك من عندي آية تدلك وعلامة بينة ترشدك.

البحث عن العبد الصالح

يأ موسى عليه السلام للذهاب لمقابلة العبد الصالح, الذي أرشده الله عز وجل إليه, فنادى يوشع بن نون فتاه المخلص وقال له: يا يوشع, إني عزمت على القيام برحلة, لا أدري: أتطول هي أم تقصر؟!! فهل لك في أن تصحبني في تلك الرحلة التي لا يعلم إلا الله مداها؟!

وكان يوشع بن نون هو الفتى الذي أحب موسى عليه السلام, وآمن به وأخلص له, ووهبه قلبه, وصحبه في غدوه ورواحه, ينهل من حكمة موسى عليه السلام, ويغترف من علمه, ويأخذ من معرفته.

قال يوشع: إني لك يا سيدي الصاحب الوفي والرفيق المطيع الأمين.

قال موسى عليه السلام: إذن, فلنتهيأ لرحلتنا من فورنا, ولنسر على بركة الله, فهو مرشدنا وهادينا إلى سواء السبيل. و يأ موسى وفتاه للسفر وتزودا بزاد مما يتزود به عادة المسافرون, الذين يقطعون الصحارى, ويجتازون الفيافي والقفار, مثل الخبز الجاف, والتمر اليابس, واللحم المقدد.

ولما جهزا جهازهما؛ سأل يوشع بن نون موسى: يا سيدي أي المطايا تركب؟ وأي القوافل تصحب؟ وأي الطرق تسلك؟!

قال موسى: يا بني, ستكون مطيتنا أرجلنا, وسيكون البحر صاحبنا, وسيكون شاطئه مسلكنا.

سأل يوشع متعجبا: وإلى أين نقصد؟!

قال موسى: نقصد مجمع البحرين, لأقابل رجلا من عباد الله الصالحين, أرشدني الله إليه.

قال الفتى: وهل تعرف مجمع البحرين؟!

أجاب موسى: سيعرفني الله مجمع البحرين ويهديني إليه.

رحلة البحث

مضى موسى عليه السلام ومعه فتاه يوشع على شاطئ البحر, أياما وليالي, لا يكلان ولا يملان ولا يتأففان من طول سير, أو وعورة طريق؛ ولا يتوقفان إلا لتناول غذاء, أو لأخذ قسط من النوم. ومر عليهما وهما على هذه الحالة وقت من الزمن, وموسى لا يزال كأول عهده بالرحلة: نشيطا, متشوقا إلى مقابلة عبد الله الصالح, ولم تفتر همته, ولم يدركه سأم, ولم يتطرق إلى نفسه ملل.

وسأل يوشع موسى يوما: يا ترى!! ألا يزال أمامنا مرحلة طويلة حتى نصل إلى مجمع البحرين؟

قال موسى: لا أدري!! ولكنني لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين, أو أمضي حقبا.

واستمر موسى عليه السلام وفتاه يوشع يغذان السير في البر, وهما على روح الثبات والنشاط حتى نفد طعامهما, فاصطاد يوشع حوتا من البحر حمله معه, ليتزودا من لحمه, ووصلا إلى صخرة عظيمة فجلسا يستجمان بجوارها, ويستظلان بظلها, ويصيبان قسطا من الراحة والنوم. فلما نالا قسطا من النوم قاما يسيران ويسعيان, فما كاد ينصرم ارهما هذا, ويمسي عليهما المساء حتى شعر موسى بتعب وفتور لم يعهده منذ بدأ رحلته, وأحس أن قدميه لا تستطيعان حمله أكثر مما حملتاه, أحس كذلك أن أعضاءه قد وهنت وضعفت, فجلس على الأرض, وقال لفتاه: **آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا** عسى أن يمدنا الله ببعض القوة التي تعيننا بلوغ غايتنا.

حينئذ ضرب الفتى يوشع جبينه بيده, وصرخ صرخة مكتومة وقال لموسى: **أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره** .

قال موسى عليه السلام مستفسرا: وما بال الحوت؟!

أجاب يوشع قائلا: لقد تسرب الحوت, واتخذ سبيله في البحر عجبا.

لقد هرب الحوت من السلة, ومضى في طريق محدد الاتجاه إلى البحر. تعجب

موسى عليه السلام من كلام فتاه يوشع, وسأله وقد دبت في نفسه فرحة أمل, وابتسامة تفاؤل فقال: أفصح يا يوشع, ماذا حدث للحوت وما الذي حدث منه؟!!

قال يوشع: حدث وأنت نائم, أن أفقت أنا من نومي على صوت السلة التي ا الحوت, وكانت بجانبي, ففتحت عيني, فوجدته ينـزلق متدحرجا بين الصخور, فأسرعت خلفه لأعيده إلى مكانه؛ ولكني رأيت عجبا, ورأيت ما أدهشني.

قال موسى فرحا مستبشرا: ماذا رأيت؟ عجل بالقول!!

قال الفتى في أسف وحسرة: رأيت الحوت قد غمره الماء, وخيل إليّ أنه يتحرك, ويتقلّب, كأن الحياة قد ردت إليه, يضطرب في سرب بين الصخور, خرج منه إلى البحر, دون أن أدركه, أو أستطيع اللحاق به.

فلم يدهش موسى, ولم يتعجب, فقد لمس في آيات الله له كل مقدرة, ورأى في بيناته له كل عجب. ولكنه سر وفرح, فقد أدرك أن بعث الحوت الميت, ورده حيا, هو آية الله التي وعده ا ليرشده إلى مجمع البحرين, وعرف أن الطريق الذي تسرب فيه الحوت هو الطريق الذي يؤدي إلى عبد الله الصالح الذي ينشد لقاءه, فنهض نشيطا فرحا, وهو يقول لفتاه: **ذلك ما كنا نبغ** فهيا بنا نعود إلى الصخرة.

هذه الحالة في حد ذا ا بداية معجزات موسى عليه السلام التي وهبها الله له في هذه القصة الجميلة.

وسنرى المعجزات العجاب حين يلتقي بالعبد الصالح.

فما أشرق الصباح حتى ارتد موسى عليه السلام وصاحبه فتاه يوشع يقصان ويبحثان عن آثارهما وطريقهما الذي جاءا منه, حتى لا يضلا عن الصخرة التي نـزلا بجانبها من قبل, وما زالا سائرين يتحسسان طريقهما الأول, حتى وصلا إليها؛ فقال موسى عليه السلام لفتاه يوشع:

يا يوشع أرني المكان الذي تسرب منه الحوت ونفذ إلى البحر.

فأشار يوشع لموسى إلى سرب بين الصخور, وقال له:

هذا هو الطريق الذي سلكه الحوت.

فنظر موسى عليه السلام إلى حيث أشار يوشع, فوجده سربا بين الصخور

يفضي إلى البحر من ناحيته الأخرى, فنفذ منه ومن ورائه فتاه, فخرجا إلى البحر من الناحية الأخرى للصخرة, ونظر موسى حوله, فرأى ما وعده الله حقا!! رأى ما حجبته الصخرة عن رؤيته بعظم رمها! رأى ماء البحر العذب يلتقي بماء البحر المالح.

ورأى بجانب الصخرة بساطا أخضر نضيرا من عشب أخضر, وقد جلس عليه شيخ جميل وضيء مهيب الطلعة, أبيض اللحية, وقد تربع في جلسته.

عندئذ عرف موسى عليه السلام أنه أمام العبد الصالح الذي وعده ربه بلقائه, وهو الرجل الذي علمه الله سبحانه وتعالى أشياء من علم الغيب الذي استأثر به.

وكانت هذه الثانية خطوة على طريق المعجزات في هذه القصة المباركة, ترى بعد هذا اللقاء ماذا فعل موسى عليه السلام مع العبد الصالح؟ لنرى ذلك.

وتقدم موسى من العبد الصالح وقال له:

السلام عليك يا حبيب الله.

فنظر الشيخ إليه, وقد أشرق وجهه, ورد عليه السلام قائلا: وعليك السلام يا نبي الله.

ثم دعاه إلى الجلوس بجانبه, فجلس موسى عليه السلام وهو يسأله دهشا مستعجبا: أوتعرفني؟!

قال الشيخ: نعم, أولست موسى نبي إسرائيل؟

قال موسى وقد ازداد عجبه: من أعلمك عني؟! ومن عرفك بي؟!

أجاب الشيخ أعلمني الذي أعلمك عني وعرفني بك الذي عرفك بمكاني.

فامتلأ قلب موسى هيبة من الشيخ, وإيمانا به, وعلم أنه حقا في حضرة رجل صالح قد اصطفاه ربه, واتخذه وليا وآتاه رحمة من عنده وعلما من لدنه. فقال يسأله في تلطف وتودد: **هل أتبعك على أن تعلمنِ مما علّمت رشداً** .

فابتسم الشيخ لموسى عليه السلام وقال له:

إنك لن تستطيع معي صبرا .

قال موسى: سأصبر على كل ما تعلمني إياه, وترشدني إليه.

فهز الشيخ رأسه باسما, وقال: **وكيف تصبر على ما** لم **تحط به خبرا** .

يا موسى إن علمي الذي أعلمه غير علمك الذي تعلمه, لن تستطيع أن تصبر

على ما يصدر من علمي, ولا تقدر أن تطيق ما تراه مني.

قال موسى: **ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا** فقد صح عزمي على أن أكون تابعك لتعلمني مما علمك الله وترشدني إلى ما أرشدك إليه.

حينئذ حط عصفور على حجر في الماء, فنقر نقرة في الماء ثم طار, فقال الشيخ:

أرأيت يا موسى ما أخذ العصفور في منقاره من الماء؟!

والله ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطير بمنقاره من البحر. ثم قال:

فإن اتبعتني فلا تسئلني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا وأفسر لك ما خفي عليك تفسيره.

قال موسى على الفور: لك علي ذلك.

وبدأت قصة المعجزة, بل المعجزات في هذه القصة في ثلاثة مشاهد عجيبة, سيفسر أسبا ا العبد الصالح في النهاية فتكون معجزة حضرها موسى عليه السلام وتعلّم منها أ ا معجزات علم الغيب.

القصة الأولى

اصطحب العبد الصالح النبي موسى عليه السلام إلى شاطىء البحر وكان يتبعهما يوشع, وعند الشاطئ لاحت لهما سفينة سائرة في عرض البحر, فأشار لها الشيخ بيده فاقتربت من الساحل وأطلّ رجالها منها يستفسرون الشيخ وموسى عما يريدان, فعرفوا الشيخ لأ م يرونه دائما جالسا يتعبد على ساحل البحر؛ وقال لهم الشيخ:

- نريد منكم أن تحملونا معكم إلى حيث تقصدون وليس معنا ما ننقدكم إياه أو نقدمه لكم أجرا على ذلك.

فقال رجال السفينة: مرحبا بالرجل الصالح...

وركب الشيخ وموسى ويوشع السفينة, ورحب م أهلها أجمل ترحيب وأكرمه, وتسابقوا إلى خدمتهم.

ومضت السفينة في طريقها سائرة م حتى قاربت أن ترسو على ميناء إحدى المدن؛ حينئذ رأى موسى من الشيخ أمرا عجيبا! رآه قد أخذ فأسا من السفينة, واقترب من جدارها, وما زال يعالج ا لوحا من ألواحها حتى كسره, وخرقها.

فلم يملك موسى نفسه, وغضب لفعل الشيخ بالسفينة, لأنه رأى في ذلك إساءة لأصحاب السفينة, وتعريضا لهم جميعا لخطر الغرق؛ فقال له والغضب بدا على وجهه:

ماذا فعلت؟

قوم حملونا بغير أجر وأكرمونا غاية الإكرام, عمدت إلى سفينتهم فخرقتها, لتغرقها وتغرق أهلها؟! **لقد جئت شيئا أمرا** .

قال الشيخ: **ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا** .

تذكّر موسى على الفور وعده للشيخ ألا يسأله عما يرى منه, وعجب لما فعله الشيخ, وعما يربط هذا الفعل القبيح بالعلم الذي يعلمه, ولكنه لم يسمعه إلا أنه قال للشيخ أسفا: **لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا** .

وما لبثت السفينة أن رست بجانب المدينة التي تقصدها, فنـزل منها الشيخ وموسى, وأخذا يسيران في المدينة. وقد بدا أن الشيخ يستعد لموقف آخر أكثر عجبا من الموقف الأول وموسى عليه السلام لا يعلم شيئا عما يجري ويخشى المناقشة حتى لا يتهم بعدم الصبر أو ينقض شرط الرجل الصالح, الذي قال له: **فلا تسئلني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا** فصمت موسى عليه السلام.

القصة الثانية

مضى موسى والعبد الصالح يتجول في المدينة مع موسى عليه السلام ويدخل هنا وهناك, ويتردد بين شوارعها وطرقا ا ومسالكها.

ولكن موسى عليه السلام عجب أشد العجب وجزع أشد الجزع, عندما أتى العبد الصالح أمرا عجبا وفعلا نكرا.. ترى ماذا فعل الشيخ العبد الصالح؟

لقد اقترب من غلام كان يلعب في الطريق, فجذبه بيده, ثم أمسك بعنقه بكلتا يديه, وما زال يضغط عليه حتى قتله.

أصبح الأمر لا يحتمل بالنسبة لموسى عليه السلام فهو يرى جريمة قتل مروعة أمامه, فنظر إلى ما فعل العبد الصالح متعجبا ثم ذاهلا, ثم خرج من عجبه, وأفاق من ذهوله, ساخطا مستنكرا غضبا, وصرخ في الشيخ قائلا:

يا رجل ماذا فعل هذا الغلام حتى تقتله؟! **أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا** فقال الشيخ في هدوء: **ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا** .

هدأ موسى عليه السلام, وسكّن من غضبه, وتحير في أمر هذا الرجل الصالح الذي اتبعه لهدف واحد وهو أن يستزيد من علمه, فلم يجد عنده حتى الآن شيئا من ذلك, بل إنه يأتي أفعالا منكرة لا يرضاها علم, ولا تقرها شريعة, ولكنه لم يسعه إلا أن قال للشيخ: **إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا** يحق لك به ترك مرافقتي, والانصراف عن صحبتي.

القصة الثالثة

خرج الرجل الصالح وموسى من تلك المدينة, وضربا في الأرض حتى وصلا إلى مدينة أخرى, وكانا قد جاعا وتعبا, فسألا أهل المدينة ضيافة وطعاما, فلم يجبهما أحد إلى ذلك, وكان كل من سألاه ضيافة يقول لهما: إننا لا نضيف الغرباء إلا بأجر. وكل من يسألاه طعاما يقول لهما: إننا لا نعطي طعاما بغير ثمن.

ولما نال من موسى التعب مبلغه, جلس هو وفتاه يستريحان في ظل جدار منـزل.

ودعا موسى الشيخ إلى الجلوس معهما ليستريح من عناء السير, ولكن موسى رأى شيئا عجيبا يثير الدهشة.

ترى ما هذا الشيء؟

لقد رأى الشيخ يتقدم من الجدار الذي بالقرب منهما- وكان جدارا قديما يوشك أن ينقض, فيفكك أحجاره المتخلخلة, ثم يجمع من الطريق ترابا, ويعجنه بالماء, ويصنع منه طينا يعيد به تثبيت الأحجار في أماكنها, حتى أعاد إقامة الجدار متينا ثابتا من غير أن يطلب منه ذلك أحد.

فدار بخلد موسى أن الشيخ يفعل ذلك لينال عليه أجرا يمكنه أن يشتري به

طعاما من أهل المدينة التي لا تضيف غريبا إلا بأمر, ولا تطعم جائعا إلا بثمن.

وما إن انتهى الشيخ من عمله, حتى طلب من موسى إن يتبعه ثم انصرف عائدا ولم يطلب من أحدا شيء أبدا!!

فقال له موسى بدهشة: ولم إذن أقمت الجدار؟!

لقد كان جدار مهدما فأصلحته, ومائلا فأقمته, فلم لا تطلب من أصحابه أجر ما فعلت؟! **لو شئت لتخذت عليه أجرا** .

عند ذلك نظر الشيخ إلى موسى, وقال له: **هذا فراق بيني وبينك** .

انتبه موسى, وأدرك أنه تجاوز الشرط المبرم بينه وبين الشيخ ألا يسأله عن شيء حتى يذكره هو له, وأدرك موسى أنه قد حق عليه فعلا فراق الشيخ, لأنه لم يستطع أن يضبط نفسه من السؤال, ولا أن يكف لسانه عن الكلام, وكان ذلك نـزولا على حكم الشرط الذي اشترطه للشيخ على نفسه.

فقال موسى للشيخ أسفا: حقا لقد عذرت معي, فما استطعت أن أكبح نفسي عن السؤال, ولا أن أرد لساني عن الكلام, ولا أن أصبر على ما رأيته يصدر منك من الفعال.

فقال الشيخ ملاطفا:

لا تأسف ولا تحزن, سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا.

فقال موسى فرحا متشوقا: هات حديثك فإني متشوق إليه.

فقال الشيخ: هيا بنا نتخير مكانا نجلس فيه, لأفسر لك ما خفي عنك, وأشرح ما غمض عليك.

وعندما يكشف العبد الصالح سر المواقف الثلاثة: خرق السفينة, وقتل الغلام, وبناء الجدار في قرية بخيلة لا تطعم ولا تسقي, سنرى المعجزات التي كشف لموسى عنها, وليعلم أن ما عنده من علم فهو قليل.

معجزات علم الغيب

بادر موسى على الفور العبد الصالح بالسؤال فقال له:

ما أمر السفينة؟

فأجاب العبد الصالح:

-أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر, وهم شركاء فيها, وهم شركاء كذلك فيما تحمل من تجارة قليلة ضئيلة, يبادلو ا بتجارة ثانية, ويتقاضون ا سلعا أخرى فيما يمرون به من البلاد, ويرسون عليه من المدن.

قال موسى: ولم إذن خرقتها وحال أصحا ا على ما تصف من الفقر والضعف, وقد أكرمونا وأحسنوا إلينا, وأجهدوا أنفسهم في ضيافتنا؟!

قال الشيخ: أردت أن أعيبها, فإن المدينة التي رست عليها ا ملك ظالم جبار يرسل أتباعه يفحصون السفن التي ترسو بمدينته, ويختبرو ا, فالسفن التي على حالة جيدة يأخذها من أصحا ا غصبا, ويسلبها قوة واقتدارا, أما السفن المعطوبة التي ا عيب, أو التي أصا ا تلف فإنه لا يأخذها.

فاتضحت الحقيقة, وظهرت المعجزة أمام عيني موسى عليه السلام, معجزة علم رآه يفوق حتى خياله.

وقال للشيخ ضاحكا: لذا خرقت أنت السفينة فعبتها حتى لا يأخذها من أصحا ا المساكين هذا الملك الظالم؟

قال العبد الصالح: نعم فعلت ذلك, لكي يتركها الملك الظالم, فيستطيع أصحا ا بعد ذلك أن يصلحوها ويرتزقوا منها.

فتخيل موسى عليه السلام أصحاب السفينة, وهم غاضبون ساخطون حين يكشفون عن العطب الذي أصا ا, ولكنهم لو علموا ما كان مخبأ لهم, كما عرفه موسى من العبد الصالح لفرحوا وحمدوا ر م على ذلك فرب مصيبة فيها الفرج.

ثم قال موسى للشيخ: وما سبب قتلك الغلام؟!

أجاب الشيخ: أما الغلام فكان أبواه مؤمنين, وكان هو كافرا طاغيا ضالا, **فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا** يؤذيهما إذا عصياه ببذاءته وفساده, ويؤذيهما إذا اتبعاه بكفره وضلاله.

قال موسى: لقد أراح الله منه أبويه, وجنبهما شر السقوط في معصيته ولكنهما لا يشعران بنعمة موت هذا الابن الضال, ولا يحسان إلا بشدة وقع وفاته, وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم.

قال الشيخ معقبا على هذا الكلام: نعم, فسيبدلهما ربهما خيرا منه زكاة, وأصلح منه دينا وأحسن منه خلقا, وأقرب رحما.

قال موسى: إن الله على كل شيء قدير, يشمل برحمته من يشاء.

أجاب الشيخ: أما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة, وكان تحته كنـز لهما, خبأه لهما أبوهما قبل أن يموت, وكان أبوهما صالحا مؤمنا تقيا, فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنـزهما رحمة من ربك.

قال موسى متسائلا: فأقمت الجدار خوفا من ضياع الكنـز؟

أجاب الشيخ: نعم ليبقى الكنـز مصونا من أيدي العابثين, حتى يشب الغلامان فيستطيعا أن ينتفعا به في حياتهما ومعاشهما.

عند ذلك ظهرت المعجزات وحقائق العلم الخفي الذي يعلمه العبد الصالح لموسى, وأدرك أن ما خفي عليه كان علما ظاهرا لهذا الرجل (العبد الصالح) وأن ما استتر عنه كان معرفة واضحة أمام الشيخ, فاختص موسى حين أراد أن يعلمه ربه بهذه المعجزات العظيمة.

موسى والبحر

البحر ينشق نصفين

قال تعالى: **فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر, فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم* وأزلفنا ثم الآخرين* وأنجينا موسى ومن معه أجمعين* ثم أغرقنا الآخرين* إن في ذلك لآية, وما كان أكثرهم مؤمنين** . [الشعراء ٦٣- ٦٧].

تعددت معجزات موسى عليه السلام مع البحر والنهر وعيون الماء وقد وهب الله موسى هذه المعجزات كي يمكّن المؤمنين من دعوته وينصر موسى عليه السلام على أعدائه, ولكي تكون هذه المعجزات عبرا إيمانية ودروسا تستجيب أمامها العقول المتحجرة, ولو نظرنا لموسى عليه السلام, نجد أن حياته بدأت بصندوق حمله في نهر النيل إلى أن وصل إلى قصر فرعون, فحملته آسية امرأة فرعون وتربى موسى عليه السلام في قصر فرعون على ضفاف النيل.

ومعجزة موسى مع البحر بدأت بغباء فرعون وقومه, فأرسل الله عليهم آيات

العذاب كالجراد والضفادع, ثم وقعت آخر آيات العذاب الدنيوي, وهي آية الدم.

لقد تحولت مياه النيل إلى دم لا يستطيع أن يسيغه أحد وكانت آية جديدة على قوم فرعون إذ أن الآيات السابقة كانت من النوع المعروف في البيئة الزراعية, التي تقوم حيا ا على النهر, سواء أفاض النهر أم أمسك عن فيضانه.

أما آخر الآيات التي عذب ا قوم فرعون فهي الدم, وهذا لون جديد لم تألفه البيئة المصرية, لقد تحولت مياه النيل إلى دم, وتمّ هذا التحول إلى المصريين من أتباع فرعون, فكان موسى وقومه يشربون مياها عادية, وكان أي مصري يملأ كأسه ليشرب, يكتشف أن كأسه مملوء بالدم.

كانت هذه الآية من آيات العذاب بمثابة صدمة اهتز لها المصريون وقصر فرعون, إ ا آية رهيبة وكارثة ضخمة.

ولم يجدوا أمامهم ملاذا يتوسلون إليه ليتخلصوا من عذاب هذه الآية الرهيبة سوى موسى عليه السلام فذهبوا يتوسلون إليه ويرجونه أن يدعو ربه, وقالوا إ م مقابل ذلك سوف يطلقون سراح بني إسرائيل هذه المرة بعد أن رفضوا خروجهم ومنعوهم قبل ذلك مرات ومرات.

استجاب موسى عليه السلام لتوسلا م التي طالما كرروها في مواقف عدة ولم يوفوا بعهودهم أبدا, ودعا موسى ربه فانكشف عنهم العذاب, وعاد الماء صافيا, فشربوا منه وارتووا, ولما حان تنفيذ وعدهم والوفاء بعهدهم الذي عاهدوه موسى عليه السلام رفضوا, ورفض فرعون أن يسمح لموسى باصطحاب قومه من بني إسرائيل والرحيل م وزاد الأمر تعقيدا, أن فرعون تشدد أكثر في كفره, واشتد في الهجوم على موسى, وأعلن بين قومه أنه إله, وقال: أليس لي ملك مصر, وهذه الأ ار التي تجري من تحتي؟ وأعلن فرعون أن موسى ساحر كذاب, وأنه رجل فقير لا يملك مالا ولا يملك أسورة واحدة من الذهب.

وقد قص القرآن كل هذا المشهد المثير فقال عز وجل:

ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال أني رسول رب العالمين* فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون* وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها, وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون* وقالوا يا أيه الساحر ادع لنا ربك بما

عهد عندك إننا لمهتدون* فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون* ونادى فرعون في قومه قال ياقوم أليس لي ملك مصر وهذه الأ ار تجري من تحتي أفلا تبصرون* أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين* فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين* فاستخف قومه فأطاعوه, إ م كانوا قوما فاسقين* . [الزخرف ٤٦- ٥٤].

هكذا بدا فرعون متجبرا مغرورا, وبدا واضحا لموسى عليه السلام أن هذا الفرعون وقومه لن يؤمنوا مهما أعطوا من عهود, وأن فرعون لن يكف عن تعذيب بني إسرائيل, والاستخفاف م. شعر موسى عليه السلام أنه لا فائدة من هؤلاء, ومن كبيرهم الفرعون. لقد أغلقوا عقولهم في وجه الإيمان, وأغمضوا عيو م لكي لا ترى جمال الخالق وعبرة خلقه الماثلة أمامهم.

وجاء الدعاء من موسى عليه السلام, جاء هذه المرة غاضبا ساحقا لا رجعة عنه, وقف مع أخيه هارون وقد شاركه هذا الإحساس بأنه لا فائدة من هؤلاء, رفع موسى يده إلى السماء ورفع هارون يده إلى السماء ودعا كل منهما ربه فقال: وقال موسى: **يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون * فاصفح عنهم وقل سلام, فسوف يعلمون** [الزخرف ٨٨- ٨٩].

وقد استجاب الله عز وجل لهذا الدعاء, وخاطب موسى وهارون فقال لهما:

لقد أجيبت دعوتكما فاستقيما لي ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون [يونس: ٨٩].

ترى ما هي الخطوة القادمة؟ ماذا عليه أن يفعل موسى؟

لقد أمر أن يخرج من مصر, وأذن له بالخروج من مصر واصطحاب قومه معه.

والغريب أن بعض قوم موسى كانوا لم يؤمنوا به بعد وقد ذكرهم الله في آياته فقال عز وجل: **فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملاءيهم إن يفتنهم, وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين** [يونس: ٨٣].

لقد انتهى أمر فرعون, وانصرفت مشيئة الله عز وجل أن يوضع حد لجرائم هذا الكافر اللعين, بعد أن استنفدت معه كافة الطرق وخرج من رحمة ربه, صدر الأمر لموسى بالخروج من مصر, واستأذن بنو إسرائيل فرعون في الخروج إلى عيد

لهم, فأذن لهم وهو كاره, وتجهزوا للخروج وتأهبوا وحملوا معهم حليهم واستعاروا من حلي المصريين شيئا كثيرا.

ومع دخول الليل خرج بنو إسرائيل يتقدمهم موسى عليه السلام وسار م نحو البحر الأحمر قاصدا بلاد الشام.

وما هي إلا لحظات حتى التقطت وسائل التجسس الخاصة بفرعون واستخباراته, التقطت أخبار خروج موسى مصطحبا قومه إلى بلاد الشام وأنه خرج ليلاً.

ثار فرعون ثورة عارمة, وأمر أن يحشد جيش عظيم, من كل المملكة, وقال في سياق أوامره الثائرة الغاضبة إن موسى غاظه, فقال: **وإ م لنا لغائظون** الشعراء: 55], لقد غاظني موسى, ولا بد من قتاله والقضاء عليه وعلى بني إسرائيل.. وأعلن ذلك صراحة أمام الناس.

وفي وقت قصير جمع فرعون جيشا ضخما, جاء لمطاردة موسى والقضاء عليه, وخرج جيش فرعون مسرعا, كان المشهد مخيفا مهيبا لكثرة عدد الجند وكثافة السلاح الذي يحملونه في ذلك الوقت, بينما حمل بنو إسرائيل جزءا من متاعهم وخرجوا خائفين.

بدأت المطاردة العنيفة, فجيش فرعون يجري بأقصى سرعة, ويطوي الطريق طيا, في حين أن موسى وبني إسرائيل لم يكونوا ذه السرعة, لكثرة ما حملوا على ظهورهم وأكتافهم من متاع أحبوا أن يحتفظوا ا لأنفسهم, واقترب جيش فرعون من موسى وقومه, وكلما نظر القوم خلفهم هالهم هذا الجيش الضخم.

ومن بعيد.. ثار غبار يدل على أن جيش الفرعون يقترب, واقترب فعلا وظهرت أعلام الجيش, وامتلأ قوم موسى بالرعب.. لقد كان الموقف حرجا وخطيرا جدا, لقد وجدوا البحر أمامهم والعدو الظالم خلفهم يلاحقهم كي يقضي عليهم وليست أمامهم فرصة واحدة للدفاع عن أنفسهم, إ م مجموعة من النساء والأطفال والرجال غير المسلحين.

لو لحق م فرعون فسيذبحهم جميعا, ولن يبقى منهم أحدا.

بدأت الناس تبكي خوفا, ونادت أصوات تقول:

سيدركنا يا موسى.. سيدركنا فرعون.

فقال لهم موسى عليه السلام بهدوء واطمئنان شديد:

كلا.. إن معي ربي سيهدين.

لجأ موسى عليه السلام في هذه اللحظات إلى ربه, إذ لا ملجأ إلا إليه سبحانه عز وجل, فتلقى أمرا صريحا ووحيا كاملا بأن يضرب بعصاه البحر.

جاء ذلك في القرآن الكريم فقال عز وجل:

فأتبعوهم مشرقين* فلما تراآ الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون* قال كلا إن معي ربي سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم

نفذ موسى عليه السلام أمر ربه, ضرب البحر بعصاه فانفلق البحر نصفين, وكانت معجزة هائلة من المعجزات التي من الله بها على موسى عليه السلام.

انشق طريق صلب يابس في وسط البحر وأصبح الموج كالجبل الراسخ عن اليمين وعن اليسار, وتقدم موسى وقومه في وسط هذه المعجزة المدهشة, التي كان يجب أن تتعظ بها جيوش الباطل التي تلاحقهم وتطاردهم.

تقدم موسى وسار بهم عبر البحر, كانت المعجزة هائلة بكل المقاييس. طريق يابس, وسط أمواج من البحر تموج عن يمين وتموج عن شمال ولا تغرق هذا الطريق الذي انشق في وسطها, والغريب أن جيش فرعون سوف يتابع المسير خلفهم دون النظر أو الدهشة أو التمعن والاعتبار, كل هذا لم يرد على عقول مغلقة, أغلقها الكفر, فخسرت نور الإيمان.

لقد كانت الأمواج تعلو وتهبط وتتصارع فيما بينها ولكنها ما أن تصل إلى الطريق المشقوق وسط البحر حتى تبدو وكأن يدا خفية تمنعها من أن تغرق هذا الطريق أو حتى تبلله.

وصل فرعون إلى البحر, وشاهد هذه المعجزة, شاهد البحر وقد انشق نصفين, ووجد فيه طريقا يابسا. أحس في البداية بالخوف, ولكنه زاد في عناده ونسي كل تأمل وعبرة, وأمر عربته أن تنطلق في هذا الطريق العجيب, فتقدمت عربته مسرعة تقطع الطريق, ولحقه جيشه القوي الجرار في الطريق, واشتدت المطاردة هنا وهناك, وأصبح الفريقان على مرمى البصر من بعضهما, ولكن موسى وقومه كانوا قد عبروا

البحر, قبل فرعون, وعند خروج آخر فرد من بني إسرائيل من طريق البحر ووقوفه على الضفة الأخرى, التفت موسى عليه السلام إلى البحر وأراد أن يضربه بعصاه ليعود كما كان, ولكن الله عز وجل أوحى إلى موسى أن يترك البحر على حاله كما هو.

كان موسى يريد أن يفصل البحر بينه وبين فرعون لينجو بقومه من بطش فرعون, مخافة أن يلحق م ويبطش م ويعذ م, ولو أنه ضرب البحر ربما لتغيرت أحوال لاندري ما هي ولكن الله عز وجل قال له: **واترك البحر رهوا أ م جند مغرقون** [الدخان: ٢٤].

هكذا شاءت إرادة الله, لقد أراد الله إغراق الفرعون, ولهذا أمرموسى أن يترك البحر على حاله.

ووصل فرعون بجيشه إلى منتصف البحر, وتجاوز منتصفه وكاد يصل إلى الضفة الأخرى.. وأصدر الله عز وجل أمرا إلى جبريل فحرك الموج, فانطبقت الأمواج على فرعون وجيشه.

وغرق الفرعون وجيشه, غرق مع كفره وعناده "لقد غرق الكفر ونجا الإيمان", وعندما غرق فرعون رأى مقعده في النار وهو يغرق, لذلك أدرك وقد انكشف عنه الحجاب, أدرك أن موسى عليه السلام كان صادقا أمينا, ولم يكن ساحرا أو كاذبا كما ادعى عليه أمام جموع الكفار من قومه, أدرك أنه عبد ذليل, ولن يكون في يوم من الأيام ربا كما زعم أمام الناس.

دخل فرعون في سكرات الموت, وأدرك أيضا أنه كان مخطئا عندما حارب موسى عليه السلام وطارده وعاداه وقرر أن يؤمن في هذه اللحظة, جاءت هذه اللحظة في القرآن الكريم في الآية الكريمة التي تقول:

حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين [يونس: ٩٠].

هل قبلت توبة فرعون؟ لا لم تقبل توبته, لأ ا جاءت بعد أن أدركه العذاب والموت, وقد قال له جبريل عليه السلام: **آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين** [يونس: ٩١].

انتهى الوقت المحدد للتوبة, توبة فرعون, وانتهى الأمر ولا نجاة من الغرق

والموت, سينجو جسدك وحده, ستموت وتقذف الأمواج جثتك إلى الشاطئ, لتكون آية وعبرة لمن بعدك.

قال عز وجل: **فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية, وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون** . [يونس: ٩٢].

هذه معجزة البحر مع موسى عليه السلام, إ ا واحدة من المعجزات العظيمة التي أفاء الله ا على عبده موسى عليه السلام. وما أكثر المعجزات..

موسى والعصا

قال تعالى: **وما تلك بيمينك يا موسى * قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش ا على غنمي ولي فيها مآرب أخرى* قال ألقها يا موسى* فألقاها فإذا هي حية تسعى* قال خذها ولا تخف سنعيدها سير ا الأولى** . [طه: ١٧-٢١].

بداية المعجزات

ازدحمت قصة موسى عليه السلام بالمعجزات, ولعل سبب كل هذا ما كان عليه اليهود من تعنت وكبرياء, وقد بدأت المعجزات في قصة موسى عليه السلام مع بدء حياته وفي طفولته, فها هو فرعون قد اتخذ قرارا بقتل كل طفل ينجب من بني إسرائيل, ولكن إرادة الله انصرفت لنجاة موسى بل وأن ينمو ويترعرع في قصر فرعون ذاته.

كان ذلك عندما خافت أم موسى على ولدها من الذبح إذا علم فرعون بوجوده, فألهمها الله أن تضع صندوقا وتلقيه في النهر أو في البحر, وظل الصندوق يحمل موسى وتتلاطمه الأمواج حتى وصل إلى شاطئ تحت القصر لتراه آسيا زوجة فرعون وتطلب من زوجها أن يبقيه لهم يستمتعون بتربيته ليملأ عليهم دنياهم.

واستمرت المعجزة لتكمل مسيرة موسى عليه السلام, فها هي أم موسى خائفة والهة على ابنها فأراد الله أن يطمئن قلبها, فألهمها القوة والصبر حتى يجمعها بابنها الذي أصبح عائما في النهر, تراقبه أخته خوفا عليه, وقد كادت أن تصرخ أو تفقد تماسكها لولا مشيئة الله أن تكون قوية شجاعة في ذلك الموقف.

فرحت آسيا بوصول هذا الطفل الجميل إلى قصرها وموافقة زوجها فرعون

على الإبقاء عليه والعدول عن فكرة قتله شأنه شأن أطفال بني إسرائيل, وبقيت أم موسى حزينة باكية, فلم تكد ترمي موسى في بحر النيل حتى أحست أنها ترمي قلبها خلفه, وظلت تتابع الصندوق الذي يحمل وليدها حتى غاب عن عينها واختفت أخباره. طلع الصباح على أم موسى فإذا قلبها فارغ يذوب حزنا عليه, وكادت تفقد صوابها وتبدي ولهها على وليدها الفقيد, لولا أن الله عز وجل ربط على قلبها وملأ بالسلام نفسها, فهدأت واستكانت واطمأنت, وتركت أمر ابنها إلى الله عز وجل, وأمرت ابنتها أن تذهب بهدوء إلى جوار قصر فرعون وتحاول أن تعرف أخبار أخيها موسى عليه السلام, وحذرتها من أن يشعر أحد بأنها تتجسس عليهم.

ورفض موسى كل المرضعات, وأوقف قبوله للرضاعة على ثدي أمه!! أليست هذه معجزة كبرى بدأ بها موسى حياته؟!

وقد تحدث القرآن الكريم على طفولة موسى عليه السلام فقال عز وجل:

وأصبح فؤاد أم موسى فارغا, إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين* وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون* وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . [القصص: ١٠- ١٢].

وكان وعد الله حقا, وأصبحت أم موسى عليه السلام مرضعة لابنها دون أن يشعر فرعون أو أحد من قصره, وكانت تتردد كل يوم على القصر فتسعد نفسها ويهدأ فؤادها, وتقر عينها برؤية ابنها بعد إرضاعه والتمتع بلذة الأمومة, وقد وصف القرآن هذه المعجزة فقال عز وجل:

فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون . [القصص: ١٣].

كان موسى عليه السلام موضع حب الجميع, فكان لا يراه أحد إلا أحبه وهذا من الله عز وجل إذ قال جلّ شأنه: **وألقيت عليك محبة من عندي ولتصنع على عيني** [طه: ٣٩].

كبر موسى وترعرع, وأصبح فتيا شابا وتعلم علوما كثيرة, وعلم أنه ليس ابنا لفرعون, وكان يرى اضطهاد فرعون ورجاله وأتباعه لبني إسرائيل, ودخل المدينة

على حين غفلة ذات يوم, فوجد رجلا من أتباع فرعون يقتتل مع رجل من بني إسرائيل, واستغاث به الرجل الضعيف فتدخل ووكز الرجل الظالم بيده فوقع قتيلا, فقد كان موسى قويا لدرجة أنه إذا ضرب خصمه ضربة واحدة فإنه يقتله. ولم يقصد موسى قتل ذلك الرجل, وكان موته مفاجأة مزعجة له لدرجة أنه قال: **هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين** ودعا موسى ربه..قال: **رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي** .

وغفر الله تعالى له, إنه هو الغفور الرحيم.

وبعد أيام قليلة جاء قريبه هذا الذي قتل من أجله أحد أقارب فرعون, جاء يستنجد به في معركة أخرى مع رجل آخر, فأدرك موسى أنه من هواة المشاجرات والمعارك, فصرخ به موسى قائلا: **إنك لغوي مبين** واندفع نحوه فخاف الرجل منه واعتقد أنه سيبطش به كما بطش بعدوه بالأمس فقال مسترحما موسى: **يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين** .

ذه الكلمات كشف الرجل المصري سرا كان يبحث عنه جنود فرعون, فلم يكن قد عرف بعد قاتل الرجل, وأصبح موسى خائفا يترقب خطرا قد يلحق به وهو في المدينة, وأرسل الله عز وجل لموسى رجلا مصريا عاقلا ينصحه ويحذره, وقد أطلعنا القرآن الكريم على ذلك في قوله تعالى: **فلما أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال ياموسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس, إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين** [القصص: ١٩].

خرج موسى من المدينة ودعا ربه: **رب نجّني من القوم الظالمين** .

سافر موسى إلى مدين وجلس عند بئرها الرئيسي الضخم, وجاء الرجال الأقوياء يسقون أغنامهم. كان موسى متعبا من السفر, جائعا لم يأكل شيئا منذ فترة, أحس أنه فقير غريب, هارب من بطش فرعون وقومه بسبب ما أصابه في المدينة, دعا ربه وهو جالس تحت الشجرة بالقرب من البئر قائلا: **رب إني لما أنـزلت إليّ من خير فقير** [القصص: ٢٤].

في هذا الوقت لاحظ موسى جماعة من الرعاة يسقون غنمهم, ووجد امرأتين

تمنعان غنمهما أن تختلط بغنم القوم, فشعر موسى عليه السلام أن الفتاتين بحاجة إلى المساعدة, تقدم منهما وسأل إن كان يستطيع أن يساعدهما بشيء.. فقالت الفتاة الكبرى: نحن ننتظر حتى ينتهي الرعاة من سقي مهم لنسقي.

فقال موسى: ولماذا لا تسقيان معهم؟

فقالت الصغرى: لا نستطيع أن نـزاحم الرجال كما ترى!!

نظر إليهما موسى في دهشة لأ ما ترعيان الغنم.. وهذه مهنة يجب أن يعمل ا الرجال, لأ ا شاقة متعبة, وسأل موسى عليه السلام مرة أخرى: لماذا ترعيان الغنم؟

فأجابت الصغرى أيضا قائلة: أبونا شيخ كبير لا تساعده صحته على الخروج معنا كل يوم.

عندئذ تقدم موسى عليه السلام في شهامة الرجال وقال:

سأسقي لكما.

مشى موسى وخلفه الفتاتان وأمامه الغنم, حتى وصل إلى بئر مدين وهناك عند البئر اكتشف أن الرعاة قد وضعوا على فم البئر صخرة ضخمة لا يستطيع أن يحركها إلا عشرة رجال, وعلى الفور احتضن موسى الصخرة ورفعها من فم البئر, وسط دهشة الفتاتين اللتين شاهدتا عروق رقبته ويديه قد انتفخت بشدة عند رفعه للصخرة الضخمة, لقد كان موسى رجلا قويا, منحه الله قوة هي بمقاييس عصره معجزة, وسقى عليه السلام الغنم وأعاد الصخرة إلى مكا ا وتركهما تمضيان إلى حال سبيلهما ثم عاد إلى الشجرة التي كان يجلس تحتها من قبل, ورفع يده بالدعاء المشهور عنه فقال مرة أخرى: **رب إني لما أنـزلت إليّ من خير فقير** .

عادت الفتاتان إلى دارهما وحكتا لأبيهما شعيب قصة الشاب الكريم الذي سقى لهما وجعلهما تعودان إلى الدار مسرعتين مبكرتين على غير عاد ما. وشرحتا له كيف سقى, وكيف نام متعبا, يبدو عليه أنه قادم من سفر بعيد, وجائع ومجهد.

أرسل له الأب إحديهما ليعطيه أجر ما سقى لهما, وجاءته على استحياء فجعلها تمشي خلفه وتنبهه هي إلى الطريق.

وهناك أكرمه الرجل وقدم له الطعام وعرض عليه إحدى ابنتيه ليتزوجها على

أن يعمل في رعي الغنم عنده ثماني سنوات, فإن أتمّ عشر سنوات, فله الحرية إن شاء.

وافق موسى على هذا العرض السخي الذي كان بمشيئة الله خيرا لموسى.

ومضت السنون واستكمل الله لنبيه موسى عليه السلام التأهل لكي يكون نبيا يتحمل الأمانة وعظمها ومشاقها.

وانتهت الفترة المحددة وبدأت مرحلة المعجزة الكبرى في حياة موسى, سنرى بداية المعجزة هناك تحت جبل الطور, وسنرى العلاقة بين العصا والحية.

العصا

كانت العصا معجزة من المعجزات التي انصرفت مشيئة الله تعالى أن تكون كما كانت, وأن تفعل ما فعلت ولكن أهميتها في نظر موسى عليه السلام كانت محصورة في شيئين هما على حد قوله: **أتوكأ عليها** , **وأهش ا على غنمي** .

ولكن لأن موسى نبي ولكلام الأنبياء جوامع قد ينطقون ا, فتنصرف الأحداث بمشيئة الله لتفسيرها, قد قال بعد الأهميتين الاثنتين اللتين ذكرهما: **ولي فيها مآرب أخرى** .

وعصا موسى لها عدة أسماء ذكرها العلماء, فقيل إن اسمها "ماسا" وقيل اسمها "نفعة", واسمها "غياث", وقال آخرون: اسمها "عليق" وكان طولها عشرة أذرع على طول موسى عليه السلام. العرائس للثعلبي ١٥٦.

وقد ورد عن عصا موسى عليه السلام قصص وحكايات قصيرة, ذكرها المؤرخون وأصحاب كتب السير, ومنها أنه: كان لعصا موسى شعبتان ومحجن في أسفل الشعبتين وسنان حديديان في أسفلها, وأن موسى عليه السلام إذا دخل مغارة أو سار في ليل شديد الظلام, كانت تضيء شعبتاها كالشمعتين من نار تنيران له مد البصر, وأنه كان إذا أعوزه الماء دلاها في البئر فتمتد على قدر ماء البئر ويصير في رأسها شبه الدلو فيستسقي ا.. إلى آخر هذه الصفات التي لا نريد الخوض فيها كثيرا لأننا لا نعرف مدى صحتها.

ومنها أن العصا كانت تضرب ا الأرض فتخرج طعاما يكفي ليوم موسى عليه السلام, وكان يضرب ا على الجبل الوعر الصعب المرتقى وعلى الحجر

والشوك فتفرج له الطريق, وكان إذا أراد عبور ر من الأ ار بلا سفينة ضرب ا عليه فانفلق وبدا له فيه طريق تنفرج..

قضى موسى عليه السلام الأجل الذي حدده له شعيب, تزوج خلاله ابنته "صفورا", وقرر الخروج من مدين فسار بأهله, منفصلا عن أرض مدين ببلاد الشام, وكان ذلك في فصل الشتاء حيث البرد والظلام الشديد, وكانت معه امرأته وأغنامه التي أعطاها له شعيب أجر ما فعل.

وسار موسى عليه السلام في بر الشام مبتعدا عن المدن وأماكن العمران مخافة الملوك الذين كانوا بالشام, وكان أكبر همّه عليه السلام يومئذ إخراج أخيه هارون من مصر إن استطاع إلى ذلك سبيلا, فسار موسى في البرية غير عارف بطرقها, فألجأه السير إلى جانب الطور الأيمن الغربي في عشية شاتية شديدة البرد, وأظلم عليه الليل وأخذت السماء ترعد وتبرق وتمطر, وقد كانت زوجته حاملا في شهرها التاسع, ففاجأها الطلق والولادة. فأصابته حيرة شديدة خوفا على زوجته من البرد والظلام وهي في هذه الحالة, فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور نورا فحسبه نارا, فقال لأهله: **امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى** يقصد أنه يتمنى أن يجد من يدله على الطريق التي أضلها, فلما أتى النار واقترب منها رأى نورا عظيما ممتدا من السماء إلى شجرة عظيمة هناك, كان موسى قد دخل واديا يقال له طوى, لاحظ الصمت والسكون, والدفء والهدوء, واقترب موسى من النار, وما كاد يقترب منها حتى سمع صوتا يناديه: **أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين** [النمل: ٨].

توقف موسى عن السير فجأة, وأصابته رعشة, شعر أن الصوت يأتي من كل مكان ولا يجيء من مكان محدد.

نودي موسى من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة, ارتجت الأرض بالخشوع والرهبة والله عز وجل ينادي: **إني أنا ربك** . [طه: ١٢].

وازداد خوف موسى وارتعاشه, فسمع الصوت يقول: **فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى** [طه: ١٢].

فلما سمع ذلك علم أنه ربه, خفق قلبه وكل لسانه وضعفت بنيته وصار حيا

كأنه ميت إلا أن روح الحياة تدب فيه من غير حراك, وكان السبب في أمر الله له بأن تمس راحة قدميه الأرض الطيبة فتناله بركتها لأ ا مقدسة, وقال بعض العلماء إن السبب هو أن الحفوة , أي أن يمشي الإنسان حافيا, في مكان مقدس أو طاهر تعد من أمارات التواضع والاحترام و ذيب النفس.

ثم تلقى موسى عليه السلام الوحي الإلهي الذي بلغه بأنه نبي مختار من الله عز وجل فقال:

وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى * إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري* إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى * فلا يصدنك عنها من لا يؤمن ا واتبع هواه فتردى [طه: ١٣- ١٦].

وجاء دور العصا التي انصرفت مشيئة الله أن تكون معجزة من معجزات موسى عليه السلام, فقد سأل الرحمن الرحيم عبده موسى عليه السلام عن العصا فقال: **وما تلك بيمينك يا موسى** [طه: ١٧].

أجاب موسى إجابة البشر الذين لهم حدود في المعرفة, فقال في حدود المعرفة, وفي حدود علمه: **هي عصاي أتوكأ عليها وأهش ا على غنمي ولي فيها مآرب أخرى** [طه: ١٨].

إلى هذا الحد توقف موسى عليه السلام عن الحديث فهذه حدوده كبشر, والمآرب الأخرى يعرفها موسى عليه السلام, فهو إذا ألقاها فيرى أ ا انقلبت حية كأعظم ما يكون من الثعابين السوداء الضخمة تدب على الأرض, جاء في وصفها في كتاب العرائس ص ١٥٦: إ ا سوداء مدلهمة تدب على أربع قوائم فتصير شعبتاها فما مفتوحا وفيه اثنا عشر نابا وضرسا لها صريف وصرير يخرج منها كلهب النار, وعيناها تلمعان كما يلمع البرق.. وكانت تكون في عظم الثعبان وفي خفة الجان ولين الحية, وذلك موافق لنص القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى في موضع:

فإذا هي ثعبان مبين .

وفي موضع آخر: **كأ ا جانّ** .

وفي موضع ثالث: **فإذا هي حية تسعى** .

نعود إلى مشهد الحوار بين موسى عليه السلام ورب العزة عز وجل فبعد أن

عرف موسى ما بيمينه وقال: **هي عصاي** جاءه الأمر الإلهي فجأة يقول: **ألقها يا موسى** . [طه: ١٩].

رمى موسى عليه السلام العصا من يده, وقد ازدادت دهشته, وفوجئ عليه السلام بما يرى أمامه, فالعصا قد تحولت إلى ثعبان عظيم هائل الجسم, وراح الثعبان يتحرك بسرعة مخيفة, ولم يستطع موسى أن يقاوم خوفه, وأحس أن بدنه يهتز بشدة ويرتعش بعنف, وانتابه شعور بزلزال من الخوف, فما كان منه إلا أن استدار إلى الخلف فزعا وانطلق يجري خطوات قليلة حتى ناداه ربه.. كي يثبته ويطمئنه قائلا:

يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون [النمل: ١٠].

أقبل ولا تخف إنك من الآمنين [القصص: ٣١].

توقف موسى لحظات واستدار وعاد مكانه خائفا من الحية التي تتحرك أمامه.
كيف يقف موسى عليه السلام أمام ثعبان ضخم بدأ يتحرك أمامه ويرفع رأسه ويفتح فمه؟ وعاد صوت رب العزة يناديه قائلا:

خذها ولا تخف [القصص: ٣٢].

كيف يأخذها وهي تتحرك؟! لم يسبق لموسى أن أمسك ثعبانا ضخما كهذا بين يديه, فهذا طريق الموت والهلاك بعينه, من يجرؤ على ذلك؟ ولكن جاء التأكيد من الله سبحانه وتعالى والوعد بالاطمئنان وعدم الخوف, قال عز وجلّ: **خذها ولا تخف سنعيدها سير ا الأولى** .

تردد موسى برهة, وخاف وتلعثم لحظة, وبدأ يقترب بحذر شديد, مد موسى يده التي كانت ترتعش, وكان على موسى جبة صوف فلف كمه على يده وهو للثعبان هائب, فنودي أن أخرج يدك, فحسر كمه عن يده ووضع تحت يده رأسها فلما أدخل يده ولمس الثعبان فإذا هي عصاه في يده ويده بين شعبتيها حيث كان يضعها.

ثم جاء الأمر الإلهي مرة أخرى لموسى عليه السلام فقال له: **اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب** [القصص: ٣٢].

وضع موسى يده في جيبه وأخرجها فإذا هي تتلألأ كالقمر, يعجز البصر عن

النظر إلى بريقها الجميل, وقد زاد ذلك انفعال موسى عليه السلام, فوضع يده على قلبه كما أمره ربه: **واضمم إليك جناحك من الرهب** .

وضع يده على قلبه كما أمره الله فذهب خوفه وشعر بالطمأنينة, وسكنت أطرافه عن الارتجاف والارتعاش, واستعاد توازنه وأصدر الله عز وجل أمرا بعد أن أراه هاتين المعجزتين بأن يذهب إلى فرعون فيدعوه إلى الله برفق ولين, فأبدى موسى عليه السلام خوفه وفزعه من فرعون وقال لربه أنه قتل نفسا منهم ويخاف أن يقتلوه. لم يدر موسى عليه السلام أن عصاه هي التي رأى منها المعجزات ستهز بقدرة الله أركان فرعون وملكه كله.

ولذلك ولعدم دراية موسى عليه السلام بما في الغيب طلب من ربه أن يرسل معه أخاه هارون عليه السلام.

طمأن الله نبيه موسى عليه السلام وقال: إنه سيكون معهما يسمع ويرى, وأن فرعون رغم جبروته وسطوته لن يمسهما بسوء, وعرف موسى أنه هو الغالب. وقد روت الآيات الكريمة كل ما ذكرناه في هذا الموقف عن العصا.

قال تعالى: **هل أتاك حديث موسى * إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى* فلما أتاها نودي أن ياموسى* إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى* وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى* إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري* إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى* فلا يصدنك عنها من لا يؤمن ا واتبع هواه فتردى* وما تلك بيمينك يا موسى * قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش ا على غنمي ولي فيها مآرب أخرى* قال ألقها يا موسى* فألقاها فإذا هي حية تسعى* قال خذها ولا تخف سنعيدها سير ا الأولى* واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى** [طه: ٩-٢٢].

في قصر فرعون

مضى موسى عليه السلام إلى مصر, ثم دخل على الطاغية فرعون, فحدثه عن الله عز وجل عن فضله ورحمته ورزقه, وحدثه عن وجوب توحيده وعبادته, حاول أن يدعوه بطريق لينة, خاطب فيها وجدانه, ولكن فرعون تكبر وتجبر, وذكّر موسى

بأن رباه وانتشله من النيل طفلا, وذكّره بمقتل القبطي, ثم سأله عن رب العالمين فقال: إنه ربي وربك, وجادل فرعون جدالا كثيرا, والعصا في يد موسى عليه السلام, وبعد أن أ ى موسى كلامه والرد على فرعون, نظر إليه فرعون وقال في ـديد ووعيد: **لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين** [الشعراء: ٢٩].

عندئذ أدرك موسى أن الحجج لن تفلح والأمور العقلية لن تحرك في هذا الفرعون المغرور المتكبر ساكنا, فتحسس موسى عليه السلام العصا التي في يده, وأدرك أن وقت إظهار المعجزة قد جاء وآن أوانه فقال لفرعون:

أولو جئتك بشيء مبين [الشعراء: ٣٠].

وكان في نبرة موسى عليه السلام تحد لفرعون, فقبل فرعون التحدي على الفور وقال: **فأت به إن كنت من الصادقين** [الشعراء: ٣١].

عندئذ أمسك موسى بعصاه وألقاها في صالة القصر وسط ذهول فرعون والوزراء الجالسين حوله, الذين ظنوا أن العصا سقطت منه بسبب ارتباكه من طلب فرعون الدليل على صدقه. وفجأة تحولت العصا إلى ثعبان مبين, ثعبان هائل يتحرك بسرعة عظيمة, اتجه الثعبان على الفور إلى فرعون, شحب وجه فرعون من الخوف وثبت مكانه في البداية, وخرج الناس مذعورين منفضين عن مجلسه, وذعر فرعون ثم وثب عن مكانه, وصاح مستنجدا بموسى عليه السلام.

وقف الجميع على جوانب بوابات القصر ينظرون بذعر ويشهدون ما يفعله موسى, فهز موسى يده إلى الثعبان فعاد في يده عصا كما كان.

عاد موسى يكشف أمام الواقفين معجزته الثانية, أدخل يده في جيبه وأخرجها فإذا هي بيضاء كالقمر, فذهل الواقفون فرعون ووزراؤه.

وهكذا استمرت العصا معجزة من معجزات موسى, ولها مشاهد كثيرة لم تنته بعد.

في يوم السحرة

ظن فرعون بعد كل ما حدث معه وشهده بنفسه أن أمر موسى وهارون عليهما السلام ضرب من ضروب السحر, وقال لحاشيته: إن موسى ساحر يعرف

علم السحر والسحرة, يريد أن يخرجكم به من أرضكم, فماذا تأمرون؟
وقال العلماء قول ابن عباس وأورده الثعلبي في العرائس:
قال فرعون أيضا لما رأى من سلطان الله تعالى في يد موسى وعصاه: إنني أرى أننا لن نغلب موسى وننتصر عليه إلا بمن هو مثله, فأخذنا غلمانا من بني إسرائيل يقال لهم "الغرقاء" يعلمو م السحركما يعلمون الصغار في الكتاب, فعلموهم سحرا كثيرا, ثم إن فرعون واعد موسى موعدا, وقال له: أنت ساحر يا موسى.. ولقد قررت أن أكشف أمرك أمام الناس جميعا, وبعد أيام قليلة يحضر السحرة.
فقال موسى عليه السلام: ومتى ألتقي بالسحرة؟
قال فرعون: موعدكم يوم الزينة, إنه يوم من أيام الربيع يحتفل به الناس جميعا. وسوف يأتي الناس في ضحى هذا اليوم, هذا هو موعدك يا موسى.
فقال موسى عليه السلام: سأخرج مبكرا من بيتي في هذا اليوم.
وبعد هذا اللقاء خرج موسى عليه السلام من قصر فرعون, وركب عدد من الرجال مركبا م وأسرعوا يتفرقون في مصر كلها: إن على جميع السحرة الماهرين التوجه إلى قصر فرعون لأمر هام. واستدعى فرعون نبي الله موسى وحاول ديده وإخافته ولكن موسى ظل على حاله.
وجاء يوم الزينة, واجتمع السحرة إلى فرعون فوعدهم بأجر كبير لو غلبوا موسى عليه السلام.
وخرج الناس جماعات جماعات, أطفالا ونساء, شبابا وشيوخا, جاؤوا ليشهدوا مباراة هي الأولى من نوعها: مباراة بين سحرة فكلهم يظنون أن موسى عليه السلام ساحرا!!
بدأ الناس بأخذ أماكنهم في الاحتفال منذ الصباح الباكر, ولم يكن أحد في مصر لم يعرف قصة التحدي واللقاء بين هؤلاء السحرة, ولم يكن أحد يعرف بمعجزة موسى التي ستخرس كل الألسنة, وستجعل من فرعون وسحرته مثالا للكذب والتجني.
كانت العصا في يد موسى عليه السلام, وتقدم السحرة خمسة, عشرة, عشرون ساحرا, وموسى يقف وحيدا في ساحة المباراة أو قل ساحة الحرب والصراع

بين الحق والباطل, بين الصدق والكذب, بين التواضع وبين الكبر والافتراء, إ ا معركة بين الكفر والإيمان كفر فرعون وسحرته وإيمان موسى عليه السلام ومعجزته.

جلس فرعون تحت مظلة واقية من الشمس, ومن حوله جنوده وحاشيته وقادته وهو يرتدي أفخم الثياب المرصعة بالجواهر, أما موسى عليه السلام فوقف صامتا يذكر الله في نفسه ولا ينظر لشيء حوله.

وتقدم السحرة إلى موسى عليه السلام وسط الجمع الهائل الذين استجمعوا كل حواسهم لرؤية وسماع ما سيحدث.

قال السحرة لموسى: **إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى** .

قال موسى عليه السلام: بل ألقوا.

فقال السحرة: نحن الغالبون بعزة فرعون.

فقال موسى: ويلكم, لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب أليم.

في هذه اللحظة, التفت موسى فإذا جبريل على يمينه يقول له: يا موسى ترفق بأولياء الله, قال موسى لنفسه: هؤلاء سحرة جاؤوا ينصرون دين فرعون, عاد جبريل يقول: ترفّق بأولياء الله, هم من الساعة إلى صلاة العصر عندك.., وبعد صلاة العصر في الجنة.

وهؤلاء السحرة اختلف في عددهم فقال كعب: إ م كانوا اثني عشر ألفا. وقال عالم آخر: بضعة وثلاثين. وقال عكرمة: سبعين ألفا. وقد أجمعت الأقاويل على أن فرعون جمع السحرة وهم سبعون ألفا فاختار منهم سبعة آلاف ليس فيهم إلا من هو ساحر ماهر, ثم اختار سبعمائة ثم اختار سبعين من كبارهم وعلمائهم, وكان رئيسهم يسمى شمعون, وقيل يوحنا وقيل إن أعلم السحرة كانا بأقصى الصعيد وكانا أخوين.

نعود إلى ساحة المباراة: لما قال لهم موسى عليه السلام: **ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى** فتناجى السحرة فيما بينهم, فقال بعضهم لبعض: ما هذا بقول ساحر, فذلك قول الله تعالى: **فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى** فقال السحرة: **فلنأتينك بسحر مثله** .

رمى السحرة بعصيهم وحبالهم, فإذا المكان يمتلئ بالثعابين والحيات التي تجري

هنا وهناك فجأة لقد سحروا أعين الناس, واسترهبوهم وأخافوهم وجاؤوا بسحر عظيم, وهلّل المصريون مكان الاحتفال, وابتسم فرعون ابتسامة عريضة وظن أنه قضى على موسى عليه السلام.

نظر موسى إلى حبالهم وعصيهم فشعر بالخوف, وكذلك هارون الواقف إلى جواره, ولكنه سرعان ما سمع صوتا يقول له: **لا تخف إنك أنت الأعلى* وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى** .

اطمأن نبي الله موسى حين سمع رب العالمين يطمئنه, ولم يعد يرتبك أو ترتعش يداه, ثم رفع عصاه وألقاها فجأة.

ولم تكد عصا موسى عليه السلام تلامس الأرض حتى وقعت المعجزة, فقد تحولت إلى ثعبان جبار سريع الحركة, وتقدم هذا الثعبان فجأة نحو حبال السحرة وعصيهم التي كانت تتحرك وبدأ يأكلها واحدا بعد آخر.

راحت عصا موسى عليه السلام تأكل حبال السحرة وعصيهم بسرعة مخيفة.

وفي دقائق معدودات خلت ساحة المباراة تماما من كل حبال السحرة وعصيهم, لقد اختفت في بطن عصا موسى, ومشى الثعبان الضخم في أدب نحو موسى, ومد موسى يده فتحول الثعبان إلى عصا.

أدرك السحرة أن هذا ليس سحرا, لعلمهم بالسحر وعلومه.

وكانت المفاجأة الكبرى: لقد سجد السحرة جميعا على الأرض وقالوا: **آمنا برب العالمين رب موسى وهارون** .

إ ا المعجزة التي تولّد معها الإيمان بالله عز وجل.. ولكن لم ينته دور العصا بعد.

إبراهيم

النار لا تحرق النبي

قال تعالى: **قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين* قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم* وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين** [الأنبياء: ٦٨-٧٠].

إبراهيم الخليل عليه السلام نبي الله, وهو خليل الرحمن, وأبو الأنبياء الأكبر من بعد نوح، عليهما السلام, ولد إبراهيم عليه السلام في أور الكلدانيين في العراق, أما

أبوه فهو "آزر" كما ورد في القرآن الكريم, وكان قوم إبراهيم عليه السلام الذين ولد فيهم يعبدون الكواكب السيارة والأصنام, وقد دلت الآثار التي أكتشفت في العراق على صحة ما عرف في التاريخ من عباد م للأصنام الكثيرة, كما ورد في القرآن الكريم حتى كاد أن يكون لكل منهم صنم خاص به سواء الأغنياء أو الفقراء منهم في ذلك.

وقد عاب إبراهيم عليه السلام على قومه في العراق شركهم بالله وعباد م الأصنام, وجادل أباه وقومه في ذلك, ثم أراد أن يلفت أنظارهم إلى باطل ما هم عليه من عبادة غير الله بما جاء به من حجج مقنعة وقوية وقيامه بتكسير أصنامهم إلا كبيرهم, ولكن لم يرجعوا عن كفرهم وضلالهم, وإنما قرروا قتله بإلقائه في النار.

هذه السطور هي ملخص سريع لقصة سيدنا إبراهيم إلى أن جاءت معجزة خروجه من النار ونجاته منها. ولنر هذا الصراع من البدء إلى أن وصل إلى نقطة القرار الشرير وهو السعي إلى حرق إبراهيم عليه السلام بالنار والتخلص منه.

حوار مع الأب

بدأ إبراهيم عليه السلام حوارا مع أبيه بالدعوة إلى الله فنهاه عن عبادة الأصنام وقد ذكر ذلك في القرآن الكريم.

قال عز وجل: **وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة** إني **أراك وقومك** في **ضلال** مبين . [الأنعام: ٧٤].

ولقد أنكر إبراهيم عليه السلام على أبيه عبادة الأصنام, وقال له: إني أراك وقومك تسلكون مسلك الضلال, فأنتم لا تدون إلى الطريق الصحيح, إنكم تائهون لا تدون، إلى أين تذهبون, إن ضلالكم هذ واضح لا شبهة فيه لأن الأصنام والأوثان التي تعبدو ا, والتي اتخذتموها آلهة لكم, لا تصلح أن تكون آلهة في أنفسها.

قد آمن إبراهيم عليه السلام وأيقن أن الله واحد لا شريك له صاحب معجزات تفوق كل هذا الكون آمن بذلك وبدأ يضرب الأمثال لقد أراه ربه الدلالة على وحدانيته, فلما رأى كوكبا قال لقومه هذا ربي على زعمكم, لأ م كانوا يعبدون الكواكب والشمس والنجوم والقمر, وكذلك قال إبراهيم لقومه عن القمر

فقال: إنه ربي على زعم أنكم تقولون إنه إله ورب وكذلك عن الشمس, فلما غابت وأفلت, وقد رأى أفول الشمس قال للناس مبرئا نفسه من الكفر والشرك: إني بريء من شرككم بالله تعالى. وإني بريء أيضا من هذه الأصنام والكواكب والمعبودات التي جعلتموها آلهة مع الله, وقال إبراهيم عليه السلام: **قال يا قوم إني بريء مما تشركون** . [الأنعام: ٧٨].

ثم أضاف إبراهيم عليه السلام مبلّغا قومه رسالته ودينه وربه الذي آمن به, فقال:

إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا, وما أنا من المشركين [الأنعام: ٧٩].

وهنا يقصد إبراهيم عليه السلام أنه قصد بعبادته وتوحيده لله عز وجلّ, وبذلك يكون إبراهيم عليه السلام حنيفا, أي مائلا للحق ومنحازا له, وقال إبراهيم عليه السلام نافيا عن نفسه الشرك: **وما أنا من المشركين** ولن أشرك بعبادة ربي أبدا فهو الذي خلقني ورزقني ومن علي بكل هذه النعم التي لا تحصى ولا تعد.

ولكن القوم لم يقتنعوا بكل هذه الحجج القوية والدعوة الواضحة.

حوار مع قومه

جادل القوم الكفار إبراهيم عليه السلام فيما يقوله وفيما توصل إليه من الحق بشأن معبودا م الباطلة, لم يقنعهم قول الحق الذي قاله إبراهيم عليه السلام فقال لهم: أتجادلونني في أمر الله الذي لا إله إلا هو, وقد بصرني وهداني إلى الحق, فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة, وإنني لا أخاف من آلهتكم ولا أبالي ا ولا أقيم لها وزنا أبدا فإن كانت حقا آلهة وكان لها ضرر أو كيد فكيدوني ا ولا تمهلوني, فالذي ينفع ويضر هو الله وحده أفلا تعتبرون وتعقلون وتتذكرون ما بينته لكم لتعلموا أن هذه الأصنام باطلة فتبتعدوا عن عباد ا, كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدو ا من دون الله ولا تخافون أنتم من الله الذي أشركتم به.

فأي الطائفتين يا قوم أحق بالأمن والطمأنينة والنجاة من عذاب الله يوم القيامة. هل هو الفريق الذي يعبد أصناما خرساء صماء لا تنفع ولا تضر, ولا تنطق

ولا تعقل, أو من يعبد الله الذي بيده الضرر والنفع, وخالق كل هذه النعم, وكل هذا الكون بما فيه الكواكب والشمس والقمر والأحجار التي تعبدو ا فهل تعقلون كل هذا؟ إن كنتم تعقلوه فاعبدوا الله وحده لا شريك له واتركوا عبادة الأصنام.

أما الآمنون المطمئنون فهم الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له, سبحانه عز وجلّ, إن هؤلاء المؤمنين هم الآمنون المهتدون في الدنيا.

حوار مع الأب ثانية

حرص إبراهيم كل الحرص على هداية أبيه وضمه إلى دعوة التوحيد وترك الشرك بالله عز وجل, فكان عليه السلام صريحا معه, يصارحه فيما هو عليه من الكفر, ويقول له إن هذا الكفر إن لم يقلع عنه ويتركه سيذهب إلى النار, وسيعذب عذابا شديدا.

لذلك فقد كان إبراهيم عليه السلام لطيفا لينا مع أبيه فهو يكرر دعوته له بغاية التلطف واللين معه, مستعملا في حديثه كلمة **يا أبت** يشعره بأنه ابنه البار الحريص على ما ينفع أباه. وقد جاء حديثه في القرآن الكريم مع أبيه لطيفا لينا فقال له:

واذكر في **الكتاب إبراهيم, إنه كان صديقا نبيا* إذ قال لأبيه يا أبت** لم **تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا** يغني **عنك شيئا** [مريم: ٤١- ٤٢].

لقد سلك إبراهيم عليه السلام في دعوته لأبيه مسلكا عظيما, ومنهجا حسنا, واحتج عليه أبدع احتجاج، كل ذلك بحسن أدب وخلق جميل, حتى لا تأخذه عزة نفسه فيرتكب ذنبا ويستمر في شركه وكفره.

لقد طلب إبراهيم من أبيه معرفة السبب في عبادته لما لا ينفع ولا يضر ولا يستحق العبادة أصلا, كيف يترك عبادة الله الخالق الرازق النافع الضار الذي يحيي ويميت؟! وهل يستسيغ ذلك عاقل؟!

وابتعد إبراهيم عليه السلام عن وصف أبيه بالجهل فقال: **يا أبت إ**ني **قد جاء**ني **من العلم ما** لم **يأتك** [مريم: ٤٣].

كان إبراهيم عليه السلام في حديثه وسطا, فلم يصف أباه بالجهل المطلق, ولم

يصف نفسه بالعلم الفائق, ولكنه قال عليه السلام لأبيه: إن معي طائفة من العلم وشيئا منه ليس معك, وذلك علم الدلالة على الحق والطريق الصحيح, وهي دلالات وحجج واضحة قوية حاسمة لا لبس ولا شك فيها, فلا تستكثر يا أبت علي النصح واقبل قولي. فلك أن تتصور أنني أسير معك في طريق وعندي معرفة بالطريق ومسالكه, فمن مصلحتك أن تتبعني حتى تنجو من الضلال والتيه.

وحذر إبراهيم عليه السلام أباه من عبادة الشيطان, فقال له:

يا أبت لا تعبد الشيطان, إن الشيطان كان للرحمن عصيا [مريم: ٤٤].

أي أن عبادتك لغير الله من أصنام وأوثان هي عبادة للشيطان, لأن الشيطان هو الذي يأمر بذلك وهو المؤول عنها, ولا ينبغي لك أن تطيع من يعصي الله الذي خلقك وأنعم عليك.

ثم قال إبراهيم لأبيه في تلطف: يا أبت إني أخاف إن عصيت الله وواليت عدوه أن يقطع رحمته عنك كما قطعها عن الشيطان, فتكون كالشيطان يصيبك عذاب شديد.

وقد كان كل هذا التحذير والتخويف واضحا, ولكنه حمل أدبا وحسن خلق من إبراهيم حين قال: **أخاف أن يمسك عذاب** [مريم: ٤٥].

فذكر إبراهيم عليه السلام خوفه عليه حتى من مس العذاب.

هكذا كان إبراهيم عليه السلام لطيفا مع أبيه, حسن الخلق ينصحه ويدعوه لطاعة الله, فيبدأ كل نصيحة من نصائحه الأربع بقوله **يا أبت** على سبيل التوسل إليه والاستعطاف, ونيل رضاه, بذلك ضرب إبراهيم عليه السلام مثلا عظيما في حسن الخلق والتأدب مع أقرب الناس إليه وهو أبوه آزر, ولكن هل كان رد الأب إيجابيا؟

للأسف, لم يكن كذلك, فقد أصر على عناده وكفره وقال لإبراهيم: أمعرض أنت يا إبراهيم ومنصرف عن آلهتي؟ لئن لم تمتنع عن الطعن والإساءة لآلهتي وإن لم تبتعد عن نصحك لي بترك عباد ا لأرجمنك بالحجارة, هيا اهجرني وابعد عني ولا تعد تأتيني أبدا.

سمع إبراهيم عليه السلام رد أبيه, ولم يعارضه بسوء الرد ولم يستمر معه في

الجدال, وإنما قال له:

سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا [مريم: ٤٧].

لن أصيبك بمكروه يا أبي, ولكن سأدعو ربي أن يغفر لك إنه كان بي حفيا أي مبالغا في اللطف بي. القرطبي ج١ ص١١١-١١٣.

وقال إبراهيم عليه السلام: سأجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التي تعبدو ا من دون الله, وأعبد ربي وحده لا شريك له عسى أن لا أكون بدعائه خائبا ضائع الجهد والسعي. ومضى إبراهيم عليه السلام لشأنه.

حوار قبل تحطيم الأصنام

عاد إبراهيم عليه السلام ليحاور قومه, عسى أن يعودوا عن عنادهم وكفرهم, وسألهم قائلا: **ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون** [الأنبياء: ٥٢].

فأجابوا على الفور: **قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين** [الأنبياء: ٥٣].

أي أ م يعبدو ا تقليدا لأسلافهم وأجدادهم, وحجتهم أمام إبراهيم هي تقليد آبائهم الذين ضلوا الطريق.

فقال لهم إبراهيم عليه السلام وعلى الفور وفي جرأة شديدة:

لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين [الأنبياء: ٥٤].

عند ذلك ا موا إبراهيم عليه السلام باللعب بالألفاظ وقالوا له:

قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين [الأنبياء: ٥٥].

أي: أجئتنا بالجد في دعوتك ورسالتك ونسبتنا إلى الكفر والضلال, أم أنت من اللاعبين المازحين في كلامهم, إننا لم نسمع من قبل كلاما كالذي تقوله يا إبراهيم.

فقال إبراهيم عليه السلام: لست بلاعب, بل أدعوكم إلى الله ربكم خالق السموات والأرض الذي خلقهن وأبدعهن إنه هو الذي يجب أن يعبد وليس هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع وأنا على ذلكم من الشاهدين, قوي الحجة, فهذه حجتي التي لا ينكرها أحد, وأنتم تحتجون بحجة باطلة وهي أنكم وجدتم آباءكم يعبدو ا.

إبراهيم يحطم الأصنام

بعد انتهاء هذا الجدال بين إبراهيم عليه السلام وقومه أراد إبراهيم عليه السلام أن يلفت أنظارهم, فعزم على تكسير أصنامهم وتحطيمها, لقد أقسم إبراهيم قائلا: **وتالله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين** [الأنبياء: ٥٧].

وانتظر إبراهيم انصرافهم وخروجهم من عيدهم وتجمعهم, وحمل فأسا ومضى إلى حيث توجد الأصنام وجعل يحطم ويكسر الأصنام, حتى جعلها جميعا قطعا متناثرة هنا وهناك وأبقى على صنمهم الأكبر, أكبر صنم فيهم وعلّق في عنقه الفأس التي كسر ا بقية الأصنام, لعلهم يرجعون إلى إبراهيم عليه السلام ودينه ويتعظون ذه الموعظة.

بدء المعجزة

عاد الكفار إلى الأصنام وهالهم وروعهم ما شاهدوه.. لقد كسرت أصنامهم جميعها وعلّق الفأس في عنق الصنم الأكبر فقالوا: من الظالم الذي فعل هذا بآلهتنا؟ إنه جريء في ظلمه هذا.

كان بعض الناس من الكفار قد سمعوا إبراهيم عليه السلام يقول: **لأكيدنّ أصنامكم** فقالوا: سمعنا فتى يذكر أصناما بمكروه منه اسمه إبراهيم.

فقرروا أن يشكّلوا له محكمة يحاكمونه فيها أمام حشد كبير من الناس وهذا ما يريده إبراهيم عليه السلام, حتى يبين لأكبر عدد من الناس وأمام أكبر عدد منهم أ م جاهلون, وأغبياء عندما عبدوا هذه الأصنام التي لا تدفع عنهم الضرر ولا تدفع حتى عن نفسها الضرر, ولا تملك لنفسها ضرا ولا نصرا عندما تتعرض لسوء وهذا أمر ماثل وواضح أمامكم.

واحتشد الناس وجيء بإبراهيم أمام حشد هائل من الناس وطرح عليه السؤال: **أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم** [الأنبياء: ٦٢].

أجا م بما يريد من إثبات بطلان حجتهم, وغباء تفكيرهم قال: **بل فعله كبيرهم هذا فسئلوهم إن كانوا ينطقون** !! حتى يتبين لهم أن هذه الأصنام لا تنطق ولا تعقل فهي جماد, و ذا قصد إبراهيم تقريعهم وتوبيخهم على عبادة هذه

الأصنام, فراجعوا عقولهم, ورجع بعضهم إلى بعض لضعف حجتهم وعجزهم عن الرد, وقال بعضهم لبعض: أنتم الظالمون بعبادة من لا ينطق بلفظة ولا يملك لنفسه شيئا, فكيف ينفع من يعبده ويدفع عنه الضرر وقد فشلوا في منع الفأس من تكسيرهم وتحطيمهم.

ولكن الكفار عادوا إلى جهلهم وعنادهم وقالوا لإبراهيم: لقد علمت أ م لا ينطقون يا إبراهيم فكيف تقول لنا اسألوهم إن كانوا ينطقون, وأنت تعلم أ ا لا تنطق؟

عند ذلك بدأ إبراهيم عليه السلام في استثمار هذا الموقف بعد أن وضعهم في أول طريق الحجة السليمة الصحيحة فقال لهم:

إذا كانت لا تنطق ولا تنفع ولا تضر فلم تعبدو ا من دون الله؟ ثم تضجر إبراهيم وتأفف منهم وقال لهم: **أف لكم ولما تعبدون من دون** الله **أفلا تعقلون** [الأنبياء: ٦٧].

ورغم كل ذلك فقد صدر الأمر, أمر العاجز عن الإقناع بالحجة، صدر الأمر بقتل إبراهيم عليه السلام, وأن يكون هذا القتل بطريقة بشعة, إنه الحرق بالنار حتى الموت.

قالوا: **حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين** [الأنبياء: ٦٨].

وجاء قولهم أو حكمهم في موضع آخر من الآيات الكريمة: **قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه** في **الجحيم* فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين** [الصافات: ٩٧-٩٨].

لقد عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعت حجتهم وغلبهم إبراهيم عليه السلام بالحق, ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلا استعمال قو م وسلطا م, لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيا م, فكادهم الله جل جلاله, وأعلى كلمته ودينه وبرهانه.

بدء المعجزة

ذهب الكفار إلى رجل من الأكراد يقال له "هيزن" وطلبوا منه أن يصنع منجنيقا ليضعوا فيه إبراهيم عليه السلام ويلقوه في النار.

وشرعوا على الفور في جمع الحطب من جميع الأماكن والشعاب هنا وهناك, فمكثوا مدة طويلة حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطبا لحرق إبراهيم عليه السلام, وحفروا حفرة ضخمة فوضعوا فيها كل الحطب الذي جمعوه, وأشعلوا النار, فاضطرمت وتأججت والتهبت علاها شرر لم ير مثله قط.

ثم أخذوا يقيدون إبراهيم ويكتنفونه ويربطونه بالحبال وهو يقول:" لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك, لا شريك لك" رواه ابن عسكر في تاريخه ٢/ ١٤٧.

فلما حملوه ووضعوه في كفة المنجنيق مقيدا مكشوفا وأطلقوه إلى النار بالمنجنيق, لقيه جبريل في الهواء فقال له: يا إبراهيم ألك حاجة؟

فقال: أما إليك فلا! (قصص الأنبياء لابن كثير) ص ١٢١.

وجاء أمر الله فوريا وسريعا للنار فقال عز وجل: **يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم**

حتى قيل إنه لولا أن الله قال: **وسلاما على إبراهيم** لآذى بردها إبراهيم عليه السلام.

وقيل إنه لم يصب إبراهيم عليه السلام منها إلا العرق على وجهه كان يمسحه جبريل عليه السلام.

ولما ألقي إبراهيم عليه السلام في النار كان يقول:

اللهم إنك في السماء واحد, وأنا في الأرض واحد أعبدك.

وكان معه في النار ملك الظل, وصار إبراهيم عليه السلام من ميل الحفرة حوله نار وهو في روضة خضراء, والناس ينظرون إليه لا يقدرون على الوصول, ولا هو يخرج إليهم.

ومكث إبراهيم في النار أربعين يوما أو خمسين يوما كانت أطيب عيشا وأكثر بردا وسعادة.

ولم تحرق النار منه سوى وثاقه وحبله الذي ربطوه به فقط وكانت النار بردا وسلاما على إبراهيم, خرج منها بمعجزة عظيمة من الله ا عليه, وأبت النار أن

تحرق إلا الكفار, فإ ا لا تحرق الأنبياء بأمر الله, وهذه معجزة من معجزات إبراهيم عليه السلام التي من الله ا عليه.

معجزة الكبش العظيم

قال تعالى: **فلما أسلما وتلّه للجبين* وناديناه أن يا إبراهيم* قد صدقت الرؤيا, إنا كذلك** نجزي المحسنين* **إن هذا لهو البلاء** المبين* **وفديناه بذبح عظيم** [الصافات: ١٠٣-١٠٧].

كان إبراهيم عليه السلام قد كبر ونالت منه الشيخوخة منالها ولم ينجب أبناء, وكان يدعو ربه دائما أن يرزقه الولد فأحست سارة برغبته هذه فقالت له: يا إبراهيم, إني عاقر, وأحب أن يرزقك الله بولد ولذلك فإنني سأهب لك جاريتي هاجر لكي تتزوجها, فقد يرزقك الله بل ويرزقنا جميعا منها ولدا تقر به أعيننا!! صمت إبراهيم قليلا وحذر سارة من الغيرة إذا أتمّ هذا الأمر,فقالت سارة في ثقة واطمئنان تعودان إلى عاطفة وحنان متدفقين منها وهي أنثى شأ ا شأن حواء على وجه الأرض, تحكم الأمور وتغلبها على الأرجح بعاطفتها, قالت: لا تخف يا إبراهيم, لا تخف.

تزوج إبراهيم عليه السلام من هاجر التي وهبتها له سارة ومرت أيام جميلة سعيدة فحملت هاجر وولدت لإبراهيم عليه السلام ولدا جميلا وضيئا أسماه إسماعيل .

وجاء إسماعيل بفرحة كبيرة دخلت على نفس إبراهيم عليه السلام فأحب إبراهيم عليه السلام إسماعيل حبا كثيرا, فكم من مرة حمله وداعبه, وأحبه حبا كثيرا.

واستمرت الأحوال في البيت النبوي الكبير هانئة سعيدة بوليدهم الصغير, فأبو الأنبياء سعيد غاية السعادة يشكر ربه ليل ار ويسبح بحمده على ما أفاء عليه من نعمة الولد وهو في هذا السن المتقدم.

وفجأة دوت في البيت النبوي الكبير مفاجأة كان مصدرها السيدة سارة, فقد خرجت الأنوثة لطبيعتها تعبر عما يجيش في صدرها دون تكلف, دبت الغيرة في

نفس الأنثى سارة وهي شأ ا شأن بنات جنسها لا تستطيع أن تكتم ما في نفسها ولا أن تغير فطرة النساء وبنات حواء, جاهدت نفسها وكظمت غيظها, وحاولت أن تفعل شيئا, كانت تعلم أن هذا الأمر سيزعج إبراهيم عليه السلام ولكن نفسها لم تقاوم جبروت الغيرة, اقتربت من إبراهيم قليلا و اوت الدموع من عينيها قطرات وقالت في صوت متهدج: يا إبراهيم؛ إني لا أستطيع أن أساكن هاجر وابنها بعد اليوم, فانظر لنفسك ولها أمرا.

صمتت سارة وقد انتا ا حزن شديد من أجل خليل الله الذي شاركها الصمت أيضا, نعم لا تستطيع سارة أن تكبح جماح الغيرة, وهذا ما كان يخشاه إبراهيم.

ظن إبراهيم عليه السلام في البداية أن الأمر بضع خطوات وينتهي الأمر بمسكن جديد قريب لهاجر وابنها, ولكن سارة ذهبت مذهبا بعيدا, قالت: إنني لا أريد أن تسكن هاجر بلدا أسكنه..

هكذا لم تستطع الصبر على مجرد وجودهما بالقرب من إبراهيم فيراهما بين الحين والآخر عن قرب.

انصرفت مشيئة الله أن يكون هذا قول سارة, وحاول إبراهيم أن يترضى سارة على هاجر وولدها إسماعيل , ولكنها أبت وأصرت, فوجد أن لا مناص من أن يباعد بينهما.

اصطحب إبراهيم هاجر وولده إسماعيل , وخرج ما قاصدا مكانا يؤويهما فيه, وسار ما شاء الله له أن يسير, فترك فلسطين, وقصد جهة الجنوب, ضاربا في صحراء الحجاز, كان ذلك على ما يبدو بوحي خفي, فكان يمشي طوال النهار ولا يستقر في مكان إلا إذا أحس بتعب واحتاج للراحة أو أحس بجوع أو عطش, ثم يستأنف المسير اجر وولده الطفل الصغير, وظلّ على هذه الحال إلى أن استقر به المقام بوادي مكة, ومكان ملتقى الطرق للقادم والذاهب من الشام إلى اليمن وبالعكس, وفي هذا الوادي أقام إبراهيم لأسرته الصغيرة الأم ووليدها خيمة, يأويان إليها إذا جن عليهما الليل ويضعان فيها ما معهما من زاد ومتاع.

التفتت هاجر يمينا ونظرت يسارا, وكان ما تراه لا يوحي بشيء مريح, فهو

مكان مجدب مقفر, فلم تقع عيناها على زرع ولا ضرع, ولا ماء, ولا حتى بشر يؤنسون وحد ا.

ساد الصمت برهة من الزمن هاجر تنظر هنا وهناك, وقد أصابتها حيرة ودهشة, فكيف اختار إبراهيم هذا المكان المقفر الموحش مستقرا لأسرته, لا بد وأنه موحى إليه أو مأمور بذلك, وخطر ببالها أن تسأله حتى تجد تأكيدا لخواطرها وشكوكها, فرفعت رأسها وقالت في شغف: أأمرك ربك أن تتركنا هنا يا إبراهيم؟!.

قال إبراهيم: نعم.

قالت هاجر المؤمنة بر ا على الفور: إذن توكل على الله, فقد وكلتنا إلى من لايضيع عنده الرجاء.

وفي وداع يحمل هيبة الإيمان وجبروت المشاعر, ترك إبراهيم عليه السلام هاجر ووليدها الطفل الصغير إسماعيل ومضى وأحسب أن الدموع قد احتبست في حدقات هؤلاء البشر منها دموع طفل أ كه السفر, وأقلقه أمّ تضطرب أمام تجربة لم تعهدها من قبل.

ومضى إبراهيم منصرفا عن زوجته وابنه, فلما صار على مرمى النظر منهما, رفع رأسه وابتهل في دعاء خاشع فقال:

ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة وي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون [إبراهيم: ٣٧].

وكانت نظرة الوداع من إبراهيم لزوجته وابنه بعد هذا الدعاء المبارك, ومضى إبراهيم عليه السلام عائدا إلى بلاد الشام.

مرت الأيام وعطش إسماعيل وبكى وهرولت هاجر من وادي المروة إلى جبل الصفا وكررت, وتفجر بئر زمزم, وشرب إسماعيل من عين عذبة خصصت لضيوف الرحمن, ولم تخف هاجر الضيعة فهنا سيبني خليل الله بيت الله.

وكانت عين زمزم التي تفجر ماؤها خير شيء في هذا المكان رغبة المارة, فنـزلوا ا, وأقاموا أوقاتا إلى جوارها للاستراحة والاستسقاء.

وراق لإحدى قبائل العرب أن تنـزل بجوار وادي مكة, وهي قبيلة جرهم, فاستأذنوا هاجر, فأذنت لهم, فوجدت إلى جوارها من تستأنس به, وتطمئن إلى جواره. وعمرت مكة ـذه القبيلة وأصبح الوادي عامرا بالناس والإبل والماشية والطيور, وتحققت دعوة إبراهيم عليه السلام عندما دعا لها وهو مغادر هذا الوادي قاصدا بلاد الشام وفلسطين التي تسكنها سارة حين دعا ربه قائلا: **فاجعل أفئدة من الناس وي إليهم وارزقهم من الثمرات** .

وفي بلاد الشام شعر إبراهيم عليه السلام بحنين لرؤية ابنه إسماعيل وزوجته هاجر, وجاء خليل الله إبراهيم ليرى ما فعل الله بوديعته, فوجد عمرانا وناسا وخياما, وحياة تدب في كل مكان, حتى ظن أنه قد ضلّ عن وادي مكة الذي ترك فيه إسماعيل وهاجر بأمر ربه, فقد كان واديا غير ذي زرع, حتى أنه سأل:

أهذا وادي مكة, أهنا تسكن هاجر وإسماعيل ؟

عرف إبراهيم عليه السلام أنه وادي مكة ومضى خليل الرحمن يبحث عن خيمة هاجر وابنه إسماعيل بلهفة ما بعدها لهفة, وشوق ما بعده شوق, لقد كثرت الخيام وتعددت, ولكن خيمة هاجر شهيرة, معروفة لدى العامة في مكة. فأرشده الناس إليها.

نظر إبراهيم الخليل عليه السلام في وجه طفله المشرق, فسره سرورا كثيرا, وفرح به فرحا وفرحت هاجر بلقاء زوجها وشكرا الله على ما أولاهما من نعم, وعلى ما حباهما من عطف.

وظلّ هذا حال إبراهيم عليه السلام يأتي إلى أسرته الصغيرة الجميلة بين الحين والحين لرؤية إسماعيل وأمه.

وفي كل مرة كان إبراهيم يصلي ويسجد شكرا لله عز وجل الذي أقر عينه بجمال طفله وهو في هذه السن البعيدة والعمر المتأخر, ولم تكن هذه نعمة الله الوحيدة على إبراهيم الخليل عليه السلام, ولكن الله أفاء عليه بالكثير الكثير من النعم والعطايا. وأكبرها نعمة الإيمان.

المعجزة الكبرى

كانت هذه المعجزة اختبارا عظيما, بكل المقاييس, ولكنه اختبار من الله لرجل هو خليله وهو عبده وهو نبي من الصالحين, أي نوع من أنواع الاختبار يا ترى سيجري على إبراهيم الخليل عليه السلام.

نحن أمام نبي يعد أبا الأنبياء, وخليل الرحمن, وصفه ربه بالحلم, ونحن أيضا أمام نبي قلبه أرحم قلب على وجه الأرض, فاتسع هذا القلب الكبير لحب الله عز وجل, وحب مخلوقاته, وهذا القلب الرحيم, يمتحن في دقاته دقة دقة ونبضاته نبضة نبضة, لقد كان إسماعيل دقات قلبه, وحبه الكبير, جاءه على كبر من السن, جاءه وهو طاعن في السن ولا أمل هناك في أن ينجب ثم يأتيه الاختبار الصعب في هذا الابن والذي هو قرة عينه ونبضة قلبه.

ويجيء الأمر والاختبار أثناء النوم, لم يكن وحيا مباشرا فما أن استسلم إبراهيم عليه السلام للنوم حتى رأى في المنام أنه يذبح ابنه وبكره ووحيده الذي لم ينجب غيره.

ترى ماذا حدث في هذه الرؤيا؟ لقد رأى إبراهيم عليه السلام في نومه هاتفا يهتف قائلا: يا إبراهيم؛ اذبح ابنك في سبيل الله.

ترى ماذا فعل إبراهيم عليه السلام بعدما سمع هذا الهاتف؟ لقد هب عليه السلام من نومه مذعورا, واستعاذ بالله من مكر الشيطان, ثم عاود نومه مرة أخرى, فعاوده الهاتف أيضا يهتف قائلا: يا إبراهيم اذبح ابنك في سبيل الله.

فهب إبراهيم عليه السلام قائما, وقد صح عنده أن الهاتف من عند الله عز وجل, وتحقق أن الله يأمره بذبح ابنه الحبيب إسماعيل .

من الخطأ أن يظن الإنسان أن صراعا من نفس إبراهيم لم ينشأ بعد هذه الرؤيا, فهذا بلاء مبين, لا بد أن ينشأ في النفس من أجله صراع طويل, نشب هذا الصراع في نفس إبراهيم عليه السلام, صراع الأبوة الحانية والقلب الذي حمل أكبر قدر من الرحمة والحلم, فكّر إبراهيم في الأمر وتدبر, وتراجع كل شيء إلا شيء واحد وهو الإيمان بالله, فهكذا أراه الله في المنام, و ذه الرؤيا يكون الأمر بالتنفيذ من الله, ورؤيا الأنبياء حق, فلينفذ إبراهيم عليه السلام أمر ربه, فكله خير, فإذا كان التفكير يقتصر على إسماعيل الابن ومخاطبة قلب إبراهيم لنفسه, فإن هذا الأمر لا بد

وأن يتراجع إلى الخلف.

أزاح إبراهيم كل هذا من تفكيره, وصوب فكره لاتجاه واحد يقول: نفذ أمر حبيبك يا إبراهيم..

كل ما فكر فيه إبراهيم عليه السلام, كيف يفاتح ابنه في الأمر وماذا يقول عنه إذا أرقده الأرض ليذبحه.

من الأفضل أن يقول لولده ليكون ذلك أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قهرا ويذبحه قهرا.

وصل إبراهيم إلى هذه القناعة, لا بد أن يكون صريحا وواضحا مع ابنه.

جاء إبراهيم إلى ابنه, فقال له: يا بني خذ الحبل والسكين وانطلق بنا إلى هذه الهضبة لنجمع الحطب.

أطاع إبراهيم عليه السلام, وفعل ما أمره به أبوه, وتبعه إلى الهضبة التي أشار إليها والده, كان إسماعيل غلاما مطيعا لا يعصي أباه أبدا, مضى إلى هناك حيث أمره ووقف إبراهيم أمام ابنه إسماعيل عليهما السلام وقد أصبح الاثنان في خلوة لا يراهما أحد إلا الله سبحانه عز وجل, عندئذ قال إبراهيم لابنه إسماعيل:

يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى, قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين [الصافات: ١٠٢].

انظر إلى تلطف إبراهيم في إبلاغ ولده هذا الأمر, وتركه للأمر لينظر فيه الابن بالطاعة, إن الأمر مقضي في نظر إبراهيم لأنه وحي من ربه.. فماذا يرى الابن الكريم في ذلك؟ وجاءت إجابة إسماعيل بنفس جواب إبراهيم عليه السلام: هذا أمر يا أبي, إنه أمر الله, فبادر بتنفيذه, وجاء الرد في القرآن على لسان إسماعيل يقول:

يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين .

انظر إلى هذا الشق من المعجزة, إنه رد الابن, إنسان يعرف أنه سيذبح فيمتثل للأمر الإلهي ويقدم المشيئة ويطمئن والده أنه سيجده.. إن شاء الله.. من الصابرين.

فلما تناول إبراهيم عليه السلام من إسماعيل الحبل ليوثقه والسكين في يده ليذبحه, قال إسماعيل له:

يا أبتاه, إذا أردت ذبحي فاشدد وثاقي لئلا يصيبك شيء من دمي فينقص

أجري, إن الموت لشديد, ولا آمن أن أضطرب عند الذبح إذا أحسست مس السكين, واشحذ شفرتك حتى تجهز علي سريعا, فإذا أنت أضجعتني لتذبحني, فاكببني على وجهي, ولا تضجعني لجنبي, فإني أخشى إن أنت نظرت إلى وجهي أن تدركك رقة, فتحول بينك وبين تنفيذ أمر ربك فيّ, وإن أردت أن ترد قميصي على أمي فافعل, فعسى أن يكون هذا أسلي لها.

فقال إبراهيم: نعم العون أنت يا بني على أمر الله.

ثم شحذ إبراهيم شفرته, وأحكم وثاق ابنه, وكبه على وجهه، أعلا جبينه إلى الأرض متحاشيا النظر إلى وجهه, وبسمل واستشهد ثم هم بذبحه, ولم يكد يسحب السكين على قفا ابنه ليذبحه, حتى سمع مناديا ينادي, ماذا يقول المنادي إذن؟ إنه يبشر بالمعجزة الكبرى.

قال المنادي يا إبراهيم؛ قد صدقت الرؤيا, فافتد ابنك بذبح عظيم..!!

نظر إبراهيم عليه السلام إلى حيث سمع المنادي, فوجد بجانبه كبشا أبيض أعين أقرن, فعرف أن الله سبحانه عز وجل قد أرسل هذا الكبش فداء لابنه إسماعيل , وقيل إن هذا الكبش رعى في الجنة أربعين خريفا الطبري في الريخه ١/ ٢٧٧, وكان يرتفع في الجنة حتى تشقق, وكان له ثغاء, وقيل إنه الكبش الذي قربه هابيل ابن آدم فتقبل منه, تاريخ الطبري.

أخلى إبراهيم ابنه من وثاقه, وهو يقبله باكيا من شدة الفرح ويقول: يا بني؛ لقد وهبت لي اليوم من جديد.

ثم أوثق الكبش جيدا, وذبحه شاكرا ربه, وكان هذا البلاء العظيم الذي ابتلى الله به إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هو اختبار عظيم, ومعجزة بكل المقاييس من المعجزات التي ساقتها إرادة الله عز وجلّ لهما, وقد ضرب إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام المثل العظيم في الرضا والتسليم بقضاء الله وقدره, والطاعة الخاشعة المؤمنة لأمر الله, فوهبهما الله هذه المعجزة الكريمة, والأضحية المباركة. وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه المعجزة في لحظتها الحاسمة فقال عز وجل:

فلما أسلما وتلّه للجبين [الصافات: ١٠٣].

قيل: أسلما:أي استسلما لأمر الله وعزم على ذلك فما إن ألقاه إلى وجهه:

وناديناه أن يا إبراهيم* قد صدقت الرؤيا, إنا كذلك نجزي المحسنين* إن هذا لهو البلاء المبين* وفديناه بذبح عظيم [الصافات: ١٠٤-١٠٨].

هذا هو الإسلام الحقيقي, الذي ضرب فيه إبراهيم وإسماعيل ابنه المثل العظيم, فكان جزاء الله لهما عظيما, لأنهم أحسنوا عبادة الله, وأحسنوا طاعة الله, ونجحوا في اختبار صعب شمل المصاعب التي تهزم قوى الإنسان وتجعله يخر صريعا أمامها, ولكن بقدر ما كان للأب من إيمان مدهش وصبر عظيم وتسليك قانع راض بهذا القدر كان للابن الغلام الصغير.

إن إبراهيم عليه السلام كان معجزة ايمانية سلوكية, وإسماعيل ضرب مثلا في الطاعة فكان مدهشا في رباطة جأشه ووصوله إلى مدى بعيد الطاعة.

إن الموقف كله معجزة, ولم يكن الكبش وحده هو المعجزة, الأب, الابن, الكبش, مشيئة الله, كل هذه الأطراف صنعت معجزة هائلة لن تنساها البشرية.

عزير

الحياة بعد الموت

قال تعالى: **أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم, قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما, فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير** [البقرة: ٢٥٩].

أما قبل

فحديثنا عن معجزة عزيرا عليه السلام, يحتاج إلى تعريف مختصر يسير, بمن هو عزير,, حتى نجعل لكل أول آخر, ونربط المعجزات بالمصائر.

وعزير عليه السلام صبي من نسل نبي الله هارون عليه السلام, وفي وقت معجزته هذه كان يقيم مع قومه من بني إسرائيل في بابل, الذين كثروا بها وتناسلوا بعد أن أخرجهم بختنصر, وأخذ معظم الأسرى إلى بابل وكان بختنصر هو أول من جاس في ديارهم, بعد أن أفسدوا في الأرض, ولذلك فقد حقت عليهم كلمة الله عز

وجل: **وقضينا إلى بني إسرائيل** في **الكتاب لتفسدنّ** في **الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا* فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار, وكان وعدًا مفعولا** [الإسراء ٤- ٥].

كان عزير عليه السلام صبيا نا ا كارها لحياة الذل في أرض بابل, يملأ قلبه الأسى والحزن لما يلقاه بنو قومه من الذل والعبودية والهوان, وكان عزير عابدا صالحا يقرأ التوراة, ولم يكن في بني إسرائيل آنذاك من يحفظ التوراة عن ظهر قلب سوى عزير, وكان أبوه وجده يحفظا ا من قبل.

وكان عزير عليه السلام يقرأ التوراة ويعمل ا, ويعظ الناس, فأحبه الإسرائيليون والبابليون على حد سواء, لخلقه, واستقامته, وحسن سيرته وسلوكه بينهم, وصدق نصائحه وتوجيهاته ومواعظه, وكان عزير مستجاب الدعاء, فما يدعو لأحد بخير إلا استجاب الله لدعائه المبارك.

وقد تزوج عزير عليه السلام وأنجب ابنين, ولما بلغ الأربعين من عمره أوحى الله إليه أنه سيخرج من هذه الأرض, أرض بابل, التي أسره فيها بختنصر وأن بني إسرائيل سيخرجون أيضا, ويعيدون عمارة بلادهم.

ولما كان العزير عاقلا هادئا حكيما, فإنه لم يبح لأحد بما أوحي إليه لا لبني إسرائيل ولا لغيرهم, وكان كتمانه هذا حرصا وخوفا على بني إسرائيل من أن ينـزل م شر من أي جانب أو جهة.

ومرت الأيام وعزير عليه السلام يجد في داخله حافزا إلى الخروج من بابل حيث الذل والمهانة إلى حيث وعده ربه بعمارة الأرض المقدسة, وتزايدت في داخل عزير تلك الحوافز يوما بعد يوم, ومر شهر وحنين عزير يشتد أكثر وأكثر, وأصبح لا يطيق البقاء في بابل وأقر في نفسه أنه لا مفر من الخروج.

فكّر عزير عليه السلام قليلا فيما سيواجهه من مشاكل من جراء خروجه من بابل, فماذا سيصنع بزوجته وأبنائه, وخادمته التي طالما كانت وفية أمينة مطيعة له على مدى سنوات مضت.

وسأل نفسه: كيف يصطحب كل هؤلاء معه؟ وفي ظل حراسة مشددة, وهل يغفل هؤلاء الحراس, الذين وضعهم الملك في كل مكان من بابل؟

كانت هذه المشكلة التي تؤرق عزير عليه السلام وأحس أ ا ستعطل خروجه من بابل, ولكنه فكر في الأمر مليا, وجمع زوجته وبنيه, وخادمته الأمينة في ليلة من الليالي, وفي مكان أمين, وقد سكن الليل, وأوى الناس إلى مضاجعهم, وقال لهم:

لقد قررت الرحيل.

فقالت الزوجة: إلى أين؟

فقال عزير: إلى الأرض المقدسة.

قالت الزوجة: إن هذا الأمر غاية في الصعوبة, ونحن نحاط ذا الكم من حراس بختنصر.

ولكن عزير الذي أوحي إليه أصر أن يخرج مهما كان الثمن, ذلك لأنه رأى في الخروج تنفيذا لأمر الله عز وجل.

عندما أباح عزير بالسر وهو أن خروجه بوحي من الله عز وجل, وأن الوحي بشر بعمارة بني إسرائيل لأرضهم, وزوال ذل وهوان بختنصر عنهم, فرحت الزوجة والأبناء والخادمة, وعرفوا أن عزيرا أصبح نبيا من أنبياء بني إسرائيل.

فقال لهم عزير عليه السلام: لقد أوحي إلي منذ ثلاثة أشهر, وها هي التوراة في قلبي أحفظها, فهي كلام الله, تنير لي الطريق إن شاء الله.

طلبت الزوجة عندئذ من زوجها عزير أن يعلم بني إسرائيل بما أوحي إليه من الله عز وجل, حتى يستبشروا وتقوى عزائمهم ويتخلصوا من الذل الذي اعتادوا عليه منذ أن اجتاحهم بختنصر بجيوشه القاسية الفتاكة.

وقالت الزوجة والأبناء: إن خروجك وحيدا لن يعمر الأرض فإنك لن تجد هناك من يعينك على ذلك, ولن تجد أيضا هناك من تعلمه التوراة, وبقاؤك معنا سيفيدنا لأننا سنتعلمها منك.

قال عزير: هذا أمر الله, وأنا جبلت على طاعته ولن أعصي له أمرا, وقد أوحى الله أمرا واقعا في المستقبل لا نعرف نحن عنه شيئا, ولكن مشيئة الله نافذة, وبعد وقت قليل سيلحق بي بنو إسرائيل وستلحقون بي أنتم جميعا, فاصبروا, ولا تجزعوا فإنه أمر الله, ولا راد لأمره, سنلتقي هناك في الأرض المقدسة, وسنجتمع كلنا في الغد القريب.

ثم أكّد عزير على سرية خروجه, فقال لهم: إذا أصبحتم فاكتموا أمري, فإذا سأل عني سائل فقولوا له: خرج ولا ندري متى يعود..!

فلما تأثرت الزوجة والأبناء أكّد عزير عليه السلام قائلا: تصبروا, فإننا سنلتقي إن شاء الله, فهكذا أوحى الله إليّ.. كفوا عن البكاء والحزن, واحبسوا أصواتكم حتى لا يشعر بنا أحد..

والآن أستودعكم الله.

سألت الزوجة: وماذا أعددت لركوبك؟

قال: لقد اشتريت حمارا جلدا قويا منذ أيام لهذا الغرض.

فقالت: وأين هو؟

قال: تركته عند صديقي, وواعدته أن يلقاني به الليلة, خارج أسوار المدينة.

قالت: وهل علم صديقك بنبأ رحيلك؟

فقال عزير: نعم, علم بكل شيء, وكان أول من آمن بنبوتي, وسيكتم أمري كله إن شاء الله.

كان الفراق صعبا بالنسبة للزوجة والأولاد والخادمة, وكان وداعا هامسا, حارا, هادئا.. وخرج عزير.

بدء المعجزة

مضى عزير عليه السلام في رحلة طويلة شاقة, بعد لحظات خوف وترقب أثناء خروجه من بابل وقد أحاطها الحراس والجنود في كل مكان.

وبعد طول مسير وكثير عناء, وجد العزير نفسه في الأرض المقدسة التي طالما تاقت نفسه لرؤيتها, فلما دخل وجد شيئا عجيبا, لم يجد آثارا للعمران, بل وجد الخراب جاثما عليها منذ ثلاثين سنة مضت, منذ أن خربتها جيوش بختنصر الذي كان قد اقتحم دمشق, وسار منها إلى بيت المقدس, وتذكّر عزير ملك بني إسرائيل الذي خرج إليه, وقدم له الطاعة وطلب منه الصلح, وأعطاه من الأموال والجواهر والأشياء النفيسة ما أرضاه, ويومها طلب بختنصر بعض أعيان بني إسرائيل ليكونوا رهائن عنده ضمانا لاستمرار الصلح, وعدم التمرد. تاريخ الطبري.

وتذكّر أن أهله بني إسرائيل لما نـزل بختنصر فزعوا, وتفرقوا, وأغلقوا دورهم عليهم, فلما صالحه الملك وأعطاه الرهائن وجلا عن البلاد بجيشه, خرجوا من جحورهم غاضبين يلومون ملكهم على الصلح, ويعلنون أ م كانوا قادرين على قتال عدوهم, وإنـزال الهزيمة به, وثاروا على ملكهم وقتلوه, ونقضوا الصلح مع بختنصر.

وتذكّر كذلك لما رأى الخراب أن بختنصر لما علم بما حدث منهم عاد إلى بيت المقدس, فتحصنوا بداخلها, فحاصروها حصارا شديدا, ثم قام بدك أسوارها بما يقذفه عليها من مدمرات, حتى دمت, فاندفع جيشه وخرب المدينة, وقتل النساء والأطفال, وخربوا الدور والزروع والقرى وقتلوا وأسروا كل من وصلت إليه أيديهم.. حتى خربت الديار, وكثرت الدماء, وتناثرت الأشياء وهرب من هرب وأسر من أسر, وهرب منهم كم إلى مصر,وإلى مكة وإلى يثرب وجهات أخرى, وبقي بختنصر ليأتي على البقية الباقية من هدم للبيع والمعابد وإحراق كل ما وقع له من نسخ التوراة, وقتل الشباب من الأسرى القادرين على حمل السلاح, واستبقى النساء والأطفال عبيدا عنده وخدما, وغادر البلاد بعد تركها خرابا.

كل هذا تذكره عزير عليه السلام لما رأى الخراب والدمار حوله في كل مكان؛ فقد وجد أشجار الفاكهة قائمة بغير عناية, فلم تحصد منذ سنين ولم تقطف ثمارها, فهي محملة بالثمار الحديثة والقديمة, والأعشاب وبعض الزروع وقد تفرقت هنا وهناك بغير انتظام, وقد كست الأرض, فتطول في مكان وتقصر في الآخر.

وسمع عزير عليه السلام عواء الذئاب بعيدا, وأصوات السباع, وبحث عن أي أثر لأي إنسان فلم يجد, وظل العزير يمشي ويمشي حتى بلغ مدينة القدس ووجد ا آثارا لمذبحة بختنصر. فعظام القتلى بقايا بالية مبعثرة, والدماء على الجدران جافة سوداء, وعشرات الألوف من الجماجم الآدمية تدل على هول ما أنـزل بختنصر ببني إسرائيل من هلاك, ورأى عزير البيوت وقد دمت وطمرت بالأنقاض, أما المساجد والمعابد فقد أصبحت خاوية على عروشها, مهجورة وقد ملأها التراب...

هال عزيرا عليه السلام ما شهده من مشاهد, وقد جرت أحداث بختنصر هذه وهو صبي لم يتجاوز العاشرة من عمره, ولكنه سمع فيما بعد ذه المذابح والمعارك من الآباء لكن ما شهده كان أكبر مما تصوره, لم يكن يعرف أن هذه المعارك كانت

عاتية فادحة الخسائر إلى هذا الحد, الذي يشهده بعينيه وهو يمر بين الأنقاض والديار المهدمة.

طاف عزير عليه السلام مدينة الأشباح, وقد شغله هذا الماضي المفجع المحزن والحاضر وما سيكون عليه المستقبل, سأل نفسه عدة أسئلة:

أتصبح هذه الأرض القفراء عامرة؟

أتصير هذه يوما من الأيام, معمورة الأسواق والندوات والمجالس, آهلة بالسكان والأطفال والنساء والبيوت؟

وقد أوحى الله إليه أنه سبحانه عز وجل سيعيدها سيرتها الأولى فتدب فيها الحياة, وتنشط الحركة وتقوم التجارة, ويزدهر نشاط الناس بالزراعة والصناعة.. صمت عزير عليه السلام قليلا وتساءل في عجب: **أنى يحيي هذه الله بعد موتها** [البقرة: ٢٥٩].

أحس عزير عليه السلام بوحدة قاتلة, ووحشية مميتة من هذا الصمت الذي يطوف حوله, صمت المدينة, والأشجار, وكل شيء حوله صامت لا يتحرك, وأحزنته مشاهد الدمار التي ما زالت متناثرة في الشوارع والطرقات على شكل عظام ودماء, وبقايا حياة كانت مليئة بالحيوية والبهجة, ولم يسمع عزير حوله سوى صوت الرياح تهمس في أذنيه مرة عاصفة وأخرى عليلة هادئة النسمات.

من كل هذا الجو الموحش آثر عزير أن يتخذ لنفسه مغارة في أحد الجبال المحيطة بالقدس ليقيم فيها, وحث حماره فمشى, وعند أحد البساتين توقف عزير عليه السلام وصنع لنفسه سلة ملأها عنبا وتينا, وعصر بعض العنب, وجعله معه في إناء من الجلد ليشربه.

وفي ضحى هذا اليوم دخل عزير عليه السلام مغارته الواسعة العتيدة فربط ا حماره, ووضع سلته وشرابه إلى جانبه واستلقى على ظهره ليريح نفسه من العناء والتعب, وقد شغل فكره بواحدة من الأفكار تقول: كيف تعود الحياة ثانية إلى هذه القرية؟!

وعزير عليه السلام على علم من وحي الله أن الحياة ستعود مرة ثانية إلى هذه القرية ولكنه إنسان, ومازال رغم كل ذلك يقول ويردد: **أنى يحيي هذه الله بعد**

مو ا .

من هذا التساؤل العجيب, ومن هذا الاستطلاع وحبه المعروف عند البشر, تكون المعجزة في طريقها إلى عزير عليه السلام بأمر الله عز وجل.

وظل عزير عليه السلام يقول: كيف تعود الحياة إلى سائر بني إسرائيل وها هي صامتة صمت الزمن أيامي؟!

ظل عزير عليه السلام على هذه الحال, حتى أسلمه التعب والتساؤل والرغبة في المعرفة إلى نوم عميق عمق الزمن الذي طال, ثقيل ثقل السنين التي مضت ولم يشعر ا عزير أبدا.

وفي نومه العميق أو في نومته الصغرى, نام نومة كبرى, لقد قبض الله روحه, ولم يعد عزير يشعر بشيء مما حوله فهو في يد العناية الإلهية, تنصرف إلى ما تشاء ولا راد لمشيئة الله لا في الأرض ولا في السماء.

العودة

مضت السنون سريعة خاطفة عاما وراء عام, ومضى على خروج عزير عليه السلام من بابل عشرة أعوام, انتظرت فيها زوجته وبنوه مشيئة الله عز وجل التي تتيح لهم الخروج من بابل حتى يلحقوا به في الأرض المقدسة, ولكن طال انتظارهم, ولم يحدث شيء, وتلاحقت الأعوام حتى بلغت أربعين عاما, ولم يخرج بنو إسرائيل ولم تأت أخبار عن عزير, ويئسوا من العودة إلى الأرض المقدسة.

أربعون عاما كانت كافية لتغيير أشياء كثيرة, فتغيرت أجيال واندثرت أجيال.

وفي خضم هذا الأمن والطمأنينة, نشأت في بني إسرائيل فتاة جميلة بارعة الجمال, تتسم بالذكاء حتى تفوقت على بنات جيلها جمالا وذكاء, فكان أن رآها ملك بابل فطلب الزواج منها, فتزوجها وهام ا حبا, وأصبحت ذات مكانة رفيعة لدى زوجها, ومنـزلة عظيمة ومن الله عليها بمولود جميل, مما زاد حبها رسوخا في نفس زوجها الملك, ملك بابل, وأصبحت الزوجة ذات مكانة عظيمة في أوساط زوجها والقصر وكل من حولها, وكان لها عظيم الأثر في نفس زوجها الملك مما جعله يحسن معاملة بني إسرائيل, فصار الأحبار يدخلون القصر ويعلمون ابنها التوراة, فأصبح محبا

لأهل أمه, مما جعل الأحبار يشعرون ببركة هذا الزواج, فأصبحوا يتمتعون بمعاملة كريمة واحترام كبير وإكرام ما بعده إكرام, وأصبح لهم نفوذ كبير في القصر, فهم بمنـزلة وزراء الملك وأعلى الناس في حاشيته ومستشاريه.

ومرت السنون والأحوال تزداد تحسنا بالنسبة لبني إسرائيل, وجاء اليوم الذي مات فيه الملك, فخلفه ابنه الذي رضع حبا لأخواله بني إسرائيل, وحفظ منهم التوراة وعلومها, وأحبهم حبا شديدا, وجاء اليوم أيضا الذي جلست فيه الأم لابنها الملك لتحدثه عن أرض بني إسرائيل التي ما زالت خاوية خربة وتحتاج لأبنائها كي يعمروها, ويزرعوا أرضها.

وفي هذا اليوم المشهود لبني إسرائيل والذي جاء بعد مضي سبعين سنة على خروج عزير عليه السلام من بابل في هذا اليوم خرج المنادي ينادي في شوارع بابل: من أحب أن يخرج من بني إسرائيل إلى بلاده فليخرج ولا حرج عليه في ذلك.

فخرج بنو إسرائيل مهاجرين إلى بلادهم, وهناك هالهم ما رأوه من خراب ودمار, ولكنهم شمّروا عن ساعد الجد, فغرسوا وزرعوا, ودبت الحركة في المدينة التي أصبحت أكثر نظافة ونظاما عما قبل, وعادت الحياة تدب من جديد في أرجائها, وخرجوا إلى القرى المحيطة ا فعمروها, وبدأ التجار عملهم, فاستؤنفت التجارة بين القرى, وبدأ أرباب الصناعة في تشغيل صناعا م وظهرت المساكن الجديدة هنا وهناك, وامتدت الأيادي للبناء, وكان الجميع في سعادة وهم يبنون ويعمرون ويشعرون بالحرية, ولم يعد الذل يطاردهم كما كان في بابل. ومضت ثلاثون عاما أصبحت فيها البلاد عامرة, وقد أثمرت صناعا م وعمرت قراهم, وانحسرت آثار الكارثة التي مرت م تماما ولم يعد لها أثر يذكر.

ظهور المعجزة

كانت زوجة عزير عليه السلام قد كبرت وأخذ منها الزمان ما أخذ, وكذلك خادمته الصغيرة, وقد بحثوا جميعا في أول مجيئهم مع بني إسرائيل عن عزير في كل مكان بالمدينة, فلم يجدوا له أثرا, وأرسلوا إلى المدن والقرى للبحث عن عزير ولكن دون جدوى.

وأثناء سؤالهم هذا صرفهم الله عز وجل عن المغارة التي سكنها عزير ومات فيها, وانصرفت مشيئة الله أن لا يقترب بشر من هذه المغارة, لأمر عنده كان مفعولا, واكتملت مائة عام على وفاة عزير, فتحرك الجسد الذي أصبح ترابا, وأحياه ربه بعد مائة عام, رد فيه الحياة, فاجتمعت عظام جسمه ونبض قلبه من جديد فاعتدل جالسا, ونظر حوله هنا وهناك فوجد إلى جواره إناء العصير, وطعامه لم يحدث له شيء وسمع مناديا ينادي **كم لبثت** كم من الوقت قضيت في النوم؟

نظر عزير عليه السلام حوله فوجد الشمس قد بدأت تعلو من المشرق, فأجاب على الفور **لبثت يوما أو بعض يوم** أي نمت يوما أو أقل من يوم, فوجد الصوت الذي ناداه يقول **بل لبثت مائة عام..** .

دهش عزير عليه السلام وفزع مما سمع, وردد في ذهول: مائة عام؟! وأعاد النظر إلى سلة الفاكهة, فوجد العنب طازجا كأنه مقطوف لتوه وكذلك التين, والعصير في الإناء الجلدي كما هو لم يتغير ولم تصدر عنه رائحة غير مقبولة, ولم يتبخر ولم يتجمد, ولم يدركه أي تحول في الطعم أو اللون.

تذكر عزير شيئا ونظر هنا وهناك بسرعة, وتطلع إلى الأفق هناك خلف الأشجار, وكأنه يبحث عن شيء, لقد تذكّر حماره, أين هو؟.. لا بد أنه هرب, ووقعت عيناه على عظام بالية في المكان الذي ربطه فيه, وربما تساءل في نفسه, ولم الحمار, لقد أصبح عظاما نخرة بعد أن أفناه الدهر؟

وقف عزير عليه السلام بين فاكهته وطعامه الذي لم يتغير وبين حماره الذي فني وأصبح عظاما لطول ما مر به من السنين, وبدأ يردد: إ ا مائة عام, حقا إ ا مائة عام, كانت كافية بإفناء جلد الحمار وعظامه, ولحمه, لقد بليت حوافره وزالت وأصبح مكان عينيه حفرتان في عظام الرأس ا لوفة.

رأى عزير عليه السلام آيات ربه: فطعامه لم يتغير وحماره أصابه الفناء.. سبحان الله, إ ا بلا شك آية من آيات الله العلي القدير, ونعمة من نعمه العظيمة, ثم زاد مستدركا: بل إ ا آية, وكرر: إ ا آية من آيات الله.

وانصرف عزير عليه السلام للتسبيح والصلوات حتى سمع قول الله عز وجلّ: **ولنجعلك آية للناس** [البقرة: ٢٥٩].

لم تكن الآية في الطعام والشراب الذي لم يتغير بل أصبحت في عزير عليه السلام نفسه, وهذا ما جعله يفكّر فيما سيأتي من بعد ذلك. ما الذي سيحدث بحيث يصبح عزير آية تدعو إلى العجب والدهشة ومعجزة يتحدث عنها الناس جميعا؟!

ولكن ما هي الآية؟ وعم ستكون المعجزة؟!

فجأة سمع عزير عليه السلام نداء خفيا, يقطع عليه تفكيره, ويصرفه عن هذا التفكّر والتأمل, جاء النداء يقول آمرا عزيرا: **وانظر إلى العظام** [البقرة: ٢٥٩].

نظر عزير عليه السلام إلى العظام, ثم أكمل الصوت أو النداء: **كيف ننشزها ثم نكسوها لحما** [البقرة: ٢٥٩].

أعاد النظر عزير عليه السلام فإذا به يجد عظام الحمار تتحرك قائمة بقدرة الله ومشيئته, كل عضو يتحرك إلى مكانه المعروف من الجسم, حتى اكتمل هيكل الحمار العظمي ثم يكسو الله بقدرته ومشيئته هيكل العظام هذا باللحم, حتى يعود حمار العزير خلقا كاملا سويا كما كان.

أخذت الدهشة عزيرا عليه السلام لكنه تمالك نفسه, ولما رأى ذلك بعينه سلّم وآمن بقدرة الله عز وجل, واطمأن يقينه, فقال في خشوع: **أعلم أن الله على كل شيء قدير** [البقرة: ٢٥٩].

لقد كان عزير عليه السلام في زمن سبق موته يعجب لقدرة الله كيف تعيد الحياة إلى هذه البلاد بعد أن رآها مقفرة موحشة, وها هو اليوم يرى أعجب وأعظم مما كان يتصور, إ ا قدرة الله سبحانه عز وجل.

وخرج عزير عليه السلام ينظر إلى الطريق العام فوجد الناس تأتيه من بعيد وهم يتكلمون رائحين وغادين, ورأى المدينة قد عمرت, ورأى في المدينة أنوارا خافتة تظهر مع طلائع الظلام التي أقبلت مع الغروب, مما جعل العزير يشعر بالفرح والسرور ويشكر الله على نعمته, ويتيقن كما كان أن الله على كل شيء قدير.

مضى العزير إلى المدينة يتطلع إلى أخبارها وكيف أصبحت بعد مائة عام, وماذا يفعل الناس: أهم سعداء أم م هم وما هي أخبار أسرته؟ هل هناك أحد منهم على قيد الحياة؟

دخل عزير المدينة وفي رأسه مئات الأسئلة يريد إجابة عليها, فإذا به يرى مبان جديدة, رائعة التقسيم والبنيان على غير ما كان يرى منذ مائة عام, وشوارع وخططا غير التي كان بعهدها في القديم, وأخذ ينظر هنا وهناك, ويتنقل في طرقا ا وشوارعها بحثا عن منـزله القديم الذي تركه منذ أكثر من مائة وعشرين سنة, ولما وجد نفسه في مكان جديد عليه وقد تغير تماما عما عهده قبل مائة عام, هداه فكره إلى أن يسأل الناس المارة في الشوارع.

تحدث عزير عليه السلام وقال لأحدهم: أين دار العزير؟ فأجابه الرجل:لا نعرف دارا للعزير, ولكن يوجد هنا ديار أبناء العزير! انظر إلى هذه الدور المترصة, إ ا دور أبناء العزير.

مضى العزير إلى المكان حتى جاء إلى دور أبنائه, وعند أول باب من أبوا ا طرق الباب طرقا خفيفا, فسمع صوتا من الداخل يقول: من الطارق؟ من بالباب؟ فأجاب على الفور: أنا العزير!!

فقال الفتى الذي رد عليه: ماذا تقول؟ العزير! أتسخر منا يا رجل؟

فقال العزير: افتح الباب يا بني وستعرف أنني لا أكذب عليك ولا أسخر منك.

ففتح الفتى الباب, ونظر إلى الرجل في دهشة واستغراب, ثم قال: لقد فقدنا العزير منذ مائة عام على ما سمعت من أبي, وكان سنه يومئذ أربعين سنة, فلو كان حيا لوجب أن تكون سنه الآن مائة وأربعين سنة, وأنا أراك الآن في سن الأربعين, إنك أصغر من أحفاده, فكيف يمكنني التصديق بأنك أنت العزير؟!

سمع الناس الحوار بين العزير وأحد أحفاده فتجمعوا حوله وأمطروه بالأسئلة, وكان يجيب بثقة ولسان صدق ويقول لهم: لقد أماتني الله مائة عام ثم بعثني, ورأيت بنفسي طعامي لم يتغير لونه ولا طعمه وشرابي لم يتبخر ولم يتغير وحماري الذي رأيت عظامه تتحرك وتأتي كل واحدة مكا ا حتى اكتمل, فكساه الله لحما وعلا صوته و ق يقا شديدا, كل هذا بعد مائة عام وقد ظننتها يوما أو بعض يوم, ولكن الله عز وجل أعلمني أ ا مائة عام, بعثت بعدها بمشيئة الله, أليس الله على كل شيء قدير؟!

في هذه الأثناء ظهرت عجوز لا ترى أمامها تتوكأ بصعوبة على الحائط مقعدة, ونادت قائلة: أدخلوه إلى داخل الدار, فإنني أعرف علامة في العزير فإن كان هو عرفته ا, فدخل العزير عليه السلام عليها فإذا هي عجوز عمياء قد أهلكها الدهر, فقالت له: أتقول أنك أنت العزير يا هذا؟

قال: نعم.

قالت لقد كان لدى العزير خادمة, وقد تركها وسنها عشرون عاما, أتعرف اسمها؟

قال: نعم اسمها "أشتر" قصص الأنبياء لابن كثير, وقد تركتها وسنها عشرون عاما, فإذا كانت على قيد الحياة فسنها الآن مائة وعشرون عاما.

فقالت العجوز: أتعرف أنني أنا "أشتر" خادمة العزير؟ وكان في العزير علامة, فقد كان مستجاب الدعوة فينا, فكان لا يسأل الله شيئا إلا استجاب له, فإن كنت العزير حقا, فادع الله لي أن يرد علي بصري, وأن يشفي قدمي, فقد صرت مقعدة لا أستطيع المشي والنهوض من شدة الآلام فيهما.

وفي لحظات دعا العزير ربه, ومسح بيده على عينيها, وأخذ بيدها لينهضها وهي مقعدة فإذا ا تنهض على ساقيها, وتبصر أحسن ما يكون الأبصار, وتأملت في وجهه وقالت: أشهد أنك عزير, إني أراك الآن كما رأيتك آخر مرة شاهدتك فيها منذ مائة عام..

وجاءت عجوز أخرى يقرب عمرها من مائة وأربعين عاما وقالت: وأنا أتعرفني يا عزير؟ فقال: أنت زوجتي ولن أجهلك أبدا.

وكان عند خروجه قد أعطاها خاتمه وقال: لعلك تذكرينني به, وكذلك هي فقد أعطته خاتمها كي يذكرها به, فقالت له: أتذكر ماذا تبادلنا ليلة خروجك؟

قال: تبادلنا خاتمي وخاتمك, فقد أعطيتك خاتمي وقلت لك: لعلك تذكرينني به.. وأعطيتني خاتمك وقلت لي: لعلك تذكرني به.. وها هو ذا خاتمك, وخلعه من إصبعه, وقدمه لها.

فرحت العجوز زوجة عزير وقالت: وها هو ذا خاتمك يا عزير ولطالما ذكرتك به.

وتجمع الناس على هذه الأحداث العجيبة التي جرت أمامهم فتكاثروا وجاء غيرهم, حتى ضاقت دار العزير, فوقفوا أمامها يعجبون لهذا الأمر العظيم, وهذه الآية الكبرى التي توالت أمامهم كالحلم, فكلما همّوا بتكذيب كلمة جاء تصديقها بشاهد وموثق, لأن مشيئة الله عز وجل انصرفت كي يكون عزير آية للناس, وذلك لقول الله عز وجل: **ولنجعلك آية للناس** .

في هذه الأثناء خرجت خادمته التي أبصرت واستعادت عافيتها وانصرفت عنها آلام قدميها, مسرعة إلى مكان هي تعرف ارتباطه ذا الأمر وهذه الآية, التي انصرفت مشيئة الله أن يكون عزير بطلها, لقد خرجت إلى بني إسرائيل وهم في أنديتهم ومجالسهم, وأخبر م بخبر وصوله, وكان على رأس الـلس شيخ وقور أخذ منه الدهر ما أخذ, إنه ابن العزير الذي بلغ من العمر عتيا. لقد بلغ مائة سنة وثماني عشرة, وجلس شيخا في مجلسهم..

وجاءت تصرخ وتقول: هذا عزير قد جاءكم.

فقال ابن العزير الأكبر وقد رفع وجهه وفحص ببصره الضعيف هذه الفتاة: من هذه الجارية؟

فقالت: أنا جارية أبيك عزير.. أنا خادمته " أشتر", لقد جاء أبوك ودعا لي ربه بالشفاء ورد بصري علي فاستجاب الله له كما عرفناه منذ مائة عام, أتدري أن الله أماته مائة عام ثم أحياه وبعثه من جديد!

صمت الشيوخ جميعا وساد الـلس لحظات من الهول والصمت, وهم يسمعون كلاما يظنون أنه لا يصدق, ولكن ها هي جارية عزير ماثلة أمامهم وقد قصت عليهم حقائق, فهي " أشتر" وهو اسمها, وعزير كان مستجاب الدعاء كما علموا وتعلموا من الآباء والأجداد, إ ا حقائق لا تكذب, وعزير خرج من بينهم منذ مائة عام كما تقول أيضا, وهي الآن تدعوهم لرؤيته رؤيا العين, كل هذا دعاهم إلى الوقوف فردا فردا والتوجه إلى خارج مجلسهم كي يروا بأعينهم ما سمعته آذا م, وإن لم يروه شكّوا في الأمر كله, فلن يصدق أحد منهم ما سمعه من أشتر تصديقا كاملا إلا إذا مضى في طريقه إلى دار العزير ورأى بنفسه العزير ماثلا أمامه يئته التي فقدت خيالها وملامحها ذاكر م, مضى القوم في الطريق إلى دار العزير, ولم يتوقف أحد

منهم ولم يتحدث أحد منهم إلى أحد.

تقدم ابن العزير الجميع وهو يتكئ على عصاه وقد أهلكته الشيخوخة ولم يسعفه الكبر كي يسرع الخطى أكثر من هذا, لقد بلغ مائة وعشرين عاما, و"أشتر" تقول إن أباه هناك في سن الصبا وهو في سن الأربعين, يا له من أمر يعجب له الإنسان المحدود بفكره وقدرته.

وعلى مشارف المنـزل وعلى مقربة منه تمعن ابن العزير ومسح عينيه كي ينقشع عنهما بعض ما تركه الزمن من غمامة, فرأى شابا في الأربعين قد وقف شامخا شديدا عظيم البنية وقد أضاء وجهه نور الإيمان وتقوى القلب.

حيا ابن العزير أباه وهو يتفحص وجهه وقال في هدوء شديد موجها حديثه إلى أبيه العزير: إن لي في أبي علامة.

فقال العزير: وما هي؟

قال الابن الشيخ: شامة سوداء مثل الهلال بين كتفيه.

صمت الابن الشيخ وساد الصمت المكان لحظات, والجميع يتطلع بعينه إلى العزير, وظنوا أن الأمر فيه من الكذب, فالأب شاب واقف في شموخ والابن عجوز لا تكاد رجلاه تحملانه.

صمت عزير عليه السلام قليلا ثم حرك يديه وكشف لابنه عن كتفه فنظر الابن إلى كتف أبيه فوجد الشامة السوداء مثل الهلال على كتفه..

هلل الابن الشيخ وقبل أباه ورحب به وقال: إنه حقا أبي وأشهد أنه أبي.. وهلل معه بنو إسرائيل جميعا وفرحوا بمجيء العزير ووجوده بينهم.

لكن أحد الأحبار قطع هذا الترحيب بدليل جديد يريد أن يتأكد من خلاله أن هذا الشاب الماثل أمامه الذي مات مائة عام وكان له من العمر أربعين قبلها هو عزير حقا.

قال الحبر: إن لنا نحن بنو إسرائيل في العزير علامة, غير التي شهدها ابنك وشهد أنك أباه.

قال: لم يكن فينا أحد يحفظ التوراة عن ظهر قلب كما حفظها عزير.

فقال العزير في ثقة واعتزاز, وصدق وكبرياء لهؤلاء الناس: وأنا أحفظ التوراة

عن ظهر قلب.

قام بعض شيوخ بني إسرائيل وانسحبوا من المجلس وجاؤوا بنسخة من التوراة قديمة كان أحدهم قد خبأها خوفا من بختنصر الذي كان يحرق التوراة أو يريد حرقها, وقالوا لعزير: اقرأ علينا التوراة, ونحن نراجع إن كنت تحفظها أم غير ذلك.

جلس عزير عليه السلام شابا وسط القوم وشرع يقرأ التوراة عن ظهر قلب وهم يراجعون عليه في صحف التوراة, وظل يقرأ ويقرأ وهم يزدادون خشوعا حتى انتهى منها دون أن يخطئ في حرف واحد من حروفها, أو يتردد في آية واحدة من آياتها أو كلماتها.

شهد الجميع بأنه العزير, وفرحوا به, ونظر بعضهم في المجلس فوجد آية عظيمة من آيات الله, لقد جلس العزير في هذا المجلس وفيه بنوه وبنو بنيه وهم شيوخ وقد شاب شعرهم وشابت لحاهم, وقوست السنون ظهورهم وأحنتها بشدة, بينما يجلس عزير شابا في الأربعين أسود الشعر, قوي البنية, منتصب القامة, فكانت آية عظيمة, وكان عزير عليه السلام آية بما حدث له وحدث معه من مشاهد اختصه الله بها حينما قال له: **ولنجعلك آية للناس** .

حقا إنه آية في موته وهو في سن الأربعين وآية في بعثه بعد مائة سنة, ورؤيته مشهد إعادة خلق حماره من جديد والعظام تتحرك أمامه واللحم يكسو جسم الحمار من جديد, وطعامه لم يتغير, ولم تجففه الشمس ولا الهواء بل ظل طازجا, وقد جاءت قصة عزير في القرآن الكريم تحكي عن الآية التي جعلت فيه, وأخذت منه درسا وعظة لكي يعلم من لا يعلم أن الله على كل شيء قدير وأنه سبحانه عز وجل قادر على أن يحيي الموتى فهو الذي خلقها, وأماتها, وأنشأها مرة أخرى, وهو خالق الطعام وقادر على إبقائه مائة عام دون أن يتبخر أو يتخثر أو تفوح رائحته كما يحصل خلال أيام قليلة بين يدي البشر, وهو القادر على خلق حمار عزير بعد أن أماته مائة عام وهو الذي صوره أمام عبده عزير كي يؤمن الذين في قلوبهم تردد بأن الله على كل شيء قدير, فالخلق خلقه والكون كونه سبحانه وتعالى عز وجل, ليس كمثله شيء, واحد أحد فرد صمد.

ونقرأ قصة العزير في سورة البقرة. قال تعالى:

أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحي **هذه الله بعد مو ا فأماته الله مائة عام** ثم **بعثه قال كم لبثت, قال لبثت يوما أو بعض يوم, قال بل لبثت مائة عام فانظر** إلى **طعامك وشرابك** لم **يتسنه وانظر إلى** حمارك **ولنجعلك آية للناس, وانظر** إلى **العظام كيف ننشزها** ثم **نكسوها** لحما**, فلما** تبين **له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير** [البقرة: ٢٥٩].

سليمان

معجزات عن الجن والنملة والعرش

قال تعالى: **ولسليمان الرياح غدوها شهر ورواحها شهر وأرسلنا له** عين **القطر, ومن الجن من يعمل** بين **يديه بإذن ربه, ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير** [سبأ: ١٢].

الجن

خرج سليمان عليه السلام كعادته إلى بيت المقدس, وكانت العاصفة شديدة, وبقي هناك في محرابه, يعبد الله حتى انتصف الليل, فلما هم للعودة, تجلى له نور الله عز وجل, وشعر كأن روحه يم في تلك الأشعة النورانية, فانطلق لسانه وتحركت شفتاه فقال: **وهب** لي **ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب** [ص: ٣٥].

شعر سليمان عليه السلام كأنه في حلم لم يستيقظ منه إلا في الصباح فعاد إلى قصره وجلس على عرشه يفكر فيما رآه من محرابه, وفيما دعا به ربه. فسمع هاتفا يهتف به ويقول له: لقد استجاب الله دعاءك, وسخر لك في ملكه ما لم يسخره لغيرك.

سخر الله سبحانه عز وجل الرياح لسليمان تجري بأمره حيث يشاء فتسقط الأمطار, وتسوق السفن.

وسخر له الجن والشياطين, يعملون له ما يريد من بناء المساكن والقصور, وإصلاح الأرض للزراعة, وحفر الآبار لريها.

وأخضع الله سبحانه وتعالى لسليمان الطير والحيوان, فكان هؤلاء وهؤلاء من رعاياه المخلصين.

وكان سليمان عليه السلام عبدا شكورا, يحمد الله وكان من عباد الله

المخلصين. فقال عليه الصلاة والسلام:

رب, بما أنعمت علي وعلى والدي, سأهب نفسي لطاعتك والجهاد في سبيلك, فوفقني إلى طريقك المستقيم.

سأحارب الفقر الذي يذل عبادك المخلصين.

سأعلن الحرب على الظلم الذي فتن عبيدك الأولين.

سأجاهد ما حييت المشركين بك, الخارجين عن طاعتك.

عند ذلك سمع الملائكة تقول آمين. فسجدوا لله القوي العزيز.

وحرص سليمان عليه السلام أن لا يفتنه الشيطان بالملك الواسع الذي وهبه الله له والقوى الخارقة التي لم يهبها الله لأحد من قبله ولا لأحد من بعده.

سخر سليمان عليه السلام كل هذه النعم التي أنعم الله ا عليه للإصلاح والتعمير, فخرجت السفن تدفعها ريح سليمان, وعادت تحمل المتاجر من البلاد النائية والجزية من ملوك الأرض والأقطار الواسعة, وقامت شياطين الجن بحفر الآبار وبنائها في الصحراء, وإصلاح الأراضي المحيطة ا, وقطع الأحجار من الجبال, وبناء المدن والأمصار بشوارعها الممهدة, وميادينها الفسيحة, وجعلت في وسط كل ميدان قدرا كبيرا من الحجر المنحوت, يشبه وعاء الطعام, ولكنه عظيم الاتساع, وتأتي السحب بعد ذلك فتملؤه بمياه الأمطار, فإذا هي كبيرة عظيمة الاتساع, تكسب الميادين جة وجمالا فإذا أخذت المدينة زخرفها وازينت أقبل الناس على سكناها وبذر البذور في الوادي المحيط ا, وريها بمياه الأمطار والآبار فتخضر الأرض, ويعم الخير, ويعيش الناس في رخاء يعبدون الله الواهب الرزاق.

وكثرت عمارة المدن, وزراعة الصحاري, وعاش بنو إسرائيل في نعيم ما رأوا مثيله في غابر الأيام والأزمان.

وكان قصر سليمان قصرا رائعا, بل يعد من أروع ما تمّ تشييده في هذا الوقت, فأحجاره من الرخام المرمر, وجدرانه وسقفه مموهة بالذهب الخالص, وبالقرب من مساكن الجند وحظائر الخيل, وتحت القصر خزائن الملك في جوف الأرض, يهبطون إليها في سراديب ممتدة بين قاعا ا, وفي ايتها أبواب ضخمة, وقف على كل منها ماردان من عفاريت الجان.

ومن المعجزات التي أنعم الله ا على سليمان, إن الشياطين كانت تخرج كل يوم إلى الجبال: بعضهم ينبشو ا ويستخرجون دفائنها من الذهب والماس, وآخرون يغوصون في البحار يصيدون حبات اللؤلؤ الثمينة, ويعود هؤلاء وهؤلاء في المساء, فيضعون ما جمعوا في خزائن سليمان, ثم يغلقون أبواب الخزائن كلها, ويخرجون من سراديبها إلى و القصر العظيم, فتغلق البوابة الكبرى, ويقف لحراستها ماردان من أشراف الجان, لا تغمض لهما عين.

كانوا يخرجون في كل يوم ويعودون, حتى امتلأت خزائن الأرض بالمعادن النفيسة, والأحجار الكريمة التي لا يجرؤ على الدنو منها والاقتراب منها إنس ولا جان.

وكان سليمان عليه السلام يعاقب من يخالفه من الشياطين عقابا صارما, فيحبسه في قارورة من زجاج فلا يستطيع الفرار منها طول حياته, وفي يوم جيء له بأحد الشياطين مقيدا بالأغلال, فلما سأل عن ذنبه قيل له: إنه قد أضاع لؤلؤة كبيرة خرج ا من البحر, ولم يودعها خزائن الملك.

قال سليمان: أين خبأ ا أيها العفريت؟

قال الشيطان: لقد غصت مع الغائصين, وخرجت بلؤلؤة في حجم رأس الإنسان, ما رأى أحد مثلها في جمالها, وروعة بريقها, وظننت أنني ذه اللؤلؤة سأحظى برضاك عني طول حياتي, ولكنني عند العودة فوجئت بمارد جبار قد انقض علي من السماء, وخطفها مني ثم انطلق في الجو نحو الجنوب, واختفى بين طيات السحاب, فما استطعت اللحاق به.

قال سليمان: إذا كان حقا ما تقول فإني سأعرض الجن عليك لتخرجه من بينهم.

قال الشيطان: لو كان هذا الجني من مملكتك لما استطاع أن يفر مني, ولكنه جني من نوع آخر يعيش في مملكة أخرى.

عندئذ أمر سليمان عليه السلام بسجنه حتى يرى مبلغ صدقه, ودعا وزيره "آصف" وكان وزيرا حكيما, وعالما, فرأى الوزير أن الجني صادق فيما يقوله, فقال لسليمان: يا نبي الله؛ إن الشياطين لا تم بجمع اللآلئ بنفسها, ولا بد أ ا مسخرة

الملك من الإنس, ولقد ساق الله إليك هذا الحادث ليذكرك بما أخذته على نفسك وهو الجهاد في سبيل الله بما وهب لك من القرى, فشغلك جمع النفائس عن الوفاء بوعدك, وأرى أن تجد في البحث وراء هذا المارد حتى تهتدي إلى الملك الذي أرسله وربما وجدته من المجوس الذين يتخذون لهم أربابا من دون الله عز وجل.

أمر سليمان بإطلاق سراح الجني الذي صاد اللؤلؤة, ومكث بعد ذلك ساعة مطرقا يفكر في كلام وزيره, ثم ذهب إلى محرابه في بيت المقدس حتى منتصف الليل, وفي الصباح أمر أن يتهيأ الجيش للزحف نحو الجنوب.

٢. حديث النملة

خرج سليمان يوما على صهوة جواد أشهب وعن يمينه فرسان الإنس على خيول حمر, وعن يساره فرسان الجن على خيول سود, وخلفه المشاة الذين لا يحصى عددهم من الإنس ومردة الجن, وانتشرت الطيور جماعات في السماء, تحجب أشعة الشمس المحرقة عن هذا الجيش العظيم الذي لم ير الناس مثله.

تحرك الجيش إلى الجنوب وظل أيام يضرب في مجاهل الصحراء حتى أشرف على وادي النمل فقالت نملة:

يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون [النمل: ١٨].

سمع سليمان عليه السلام قولها, وفهم حديثها, فتبسم ضاحكا من قولها وقال:

رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه [النمل: ١٩].

أحس سليمان بالمعجزة التي أنعم الله بها عليه وهي أنه يسمع قول نملة في باطن الأرض لا ترى بالعين المجردة ويفهم لغتها, ذلك أمر لا يؤتى لأحد غير سليمان عليه السلام وبمشيئة الله وقدرته عز وجل.

أمر سليمان عليه السلام فضربت الخيام, واستراح الجيش أمام وادي النمل يوما وليلة, ولمّا تهيأ الجيش بعد ذلك للرحيل, جمع فتات الطعام, فاتخذ النمل طريقه إليه ينقله إلى بيوته, وتحول جيش سليمان عليه السلام إلى طريق آخر في الصحراء, فظلوا سائرين فيها ليالي وأياما, ولم يصادفوا واحة ينـزلون بها, أو عينا يشربون

منها حتى نفذ ما كان معهم من الماء, وأقبل السقاؤون على سليمان يخبرونه حقيقة الأمر.

واستخدم سليمان عليه السلام ما أتاه الله من فضل, بل نقول إنه استخدم المعجزة التي حباه الله إياها وهي تسخير الجن له فأصدر سليمان أمره إلى شياطين الجن بحفر الآبار وإخراج الماء من باطن الأرض, فحفروا ولكنهم لم يجدوا ماء فأعادوا الحفر في أكثر من جهة, فما خرج الماء في واحدة منها, وعادوا إلى سليمان بخيبة الأمل.

قيل لسليمان عليه السلام: إن الهدهد وحده هو الذي يعرف بفطرته أماكن الماء في طبقات الأرض, وهو الذي يستطيع أن يخبرنا عن ماء قريب من السطح.

قال سليمان لحاجبه: علي بالهدهد.

خرج الحاجب وعاد ليقول: إن الهدهد ليس موجودا يا مولاي.

غضب سليمان عليه السلام, وخرج يتفقد الطير, فوجد مكان الهدهد خاليا فقال:

ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين [النمل: ٢٠].

قال الغراب: لقد رأيته ينطلق نحو الجنوب في صحبة هدهد آخر من طيور هذه الأرض.

قال سليمان: لأعذبنه عذابا شديدا, أو لأذبحنه, أو ليأتيني بدليل قوي يبرر به سبب عصيانه أمري ومخالفته تعليماتي.

فقال "آصف" وزير سليمان عليه السلام: إن هذه أول مخالفة تصدر من طير ضعيف, كان مثالا للطاعة والولاء, ولابد أن في الأمر سرا.

قال سليمان: أي سر يختفي وراء غياب الهدهد؟!.

قال آصف: أخشى أن قد اقتربنا من وادي الجان, واستعملت أبالستهم السحر والخداع فأضلتنا عن مكان الماء وأسرت الهدهد حتى لا يكتشف لنا ينابيعه.

وقد أخبرني أحد الشياطين أنه سمع في جوف الجبل عزيف الجن, وحاول أن يتفقد أثرهم فما عرف طريقهم, ولا مكا م, وأبدى خوفه من أن نكون قد وقعنا في أسر مارد جبار من شياطين الجن.

تبسم سليمان عليه السلام لهذا الخبر العجيب, وقال: الحمد لله الذي هدانا إليهم, وإن النصر لقريب.

كان أمر الماء يشغل سليمان, لأن جنوده يشعرون بالعطش وفي هذا الأمر خطر على حيا م, فخرج عليه السلام من خيمته وأمر الريح العاصف بحمل السحب الماطرة إليه. فهبت الرياح من الشمال والجنوب, وساقت أمامها السحب ونـزل المطر غزيرا من السماء, فملئت القدور والقرب والمواعين وشرب الجيش ماء عذبا, وحمدوا الله جميعا على رحمته, وجليل نعمته, وهذه معجزة من معجزات نبي الله سليمان عليه السلام.

نعود إلى الهدهد الذي ترك مكانه بين الطيور, بدون إذن من سليمان عليه السلام فإنه نظر إلى مواعين الماء فوجدها فارغة, فخاف أن يموت جيش سيده من العطش, فترك مكانه وأسرع إلى الأمام يجد في البحث عن الماء, فوجد طبقات الأرض كلها صخور صماء, ليس ا عين من عيون الماء, وصادفه في طريقه هدهد آخر مقبل من الجنوب, فتعارفا وتطوع هدهد الجنوب, وأرشده إلى ينبوع عظيم.

انطلق الهدهدان حتى أتيا واديا خصيبا, ثم وقفا يستريحان على شجرة في بستان كبير مملوء بالأشجار والورود والأزاهير وفي وسطه بحيرة واسعة, يخرج الماء إليها من عيون الأرض. فينساب في الجداول بين نبات الأرض وأشجارها.

فرح هدهد سليمان, واستأذن صديقه هدهد الجنوب أن يعود إلى سيده ليخبره بما رأى, ولكن هدهد الجنوب استوقفه وقال له: أنت لم تر إلا شيئا صغيرا, فتعال معي لتشاهد عزا وملكا كبيرا خلف هذا الوادي, حتى إذا عدت إلى سيدك أخبرته بكل ما رأيت, فيكون لخبرك أثر عظيم في نفسه.

قال هدهد سليمان: وماذا تريني بعد؟

قال هدهد الجنوب: انطلق معي لتشاهد بعينيك.

طار الهدهدان وتخطيا جبلا عاليا, ثم هبطا على واد أخضر به زرع نضير, وقصور فخمة, ثم اتجها نحو قصر بديع فوق ربوة عالية, فدهش هدهد الشمال بما رأى من مناظر العز والجاه, ومظاهر الملك والسلطان, فقال لصاحبه: عجبا ما رأيت مثل هذا إلا في ملك سليمان في الشمال.

قال هدهد الجنوب: وما ملك سليمان هذا بجانب ملك "بلقيس" في الجنوب, اهبط معي من هذه الفتحة لتشاهد هذه المملكة الرائعة وقومها وهم يعبدون الشمس.

هبط الهدهدان, ورأى هدهد سليمان القوم يسجدون للشمس من دون الله, فراغه ذلك, ثم ذهب به هدهد الجنوب إلى قصر "بلقيس" وأراه عرشها العظيم, ثم قال له: انظر إلى هذه اللؤلؤة الكبيرة, هل عند سيدك مثلها؟

قال هدهد سليمان: كيف وصلت إليها هذه اللؤلؤة؟

قال هدهد الجنوب: جاء ا عفريت من الجن منذ شهر.

قال هدهد سليمان: إذن هذه لؤلؤة سليمان التي خطفها عفريتكم من يد الجني الذي صادها والويل لكم من سليمان.

قال هدهد الجنوب: ليس الأمر كما تظن ف "بلقيس" تملك الجن كما تملك الإنس, وأخشى على ملكك أن يغتر بقوته, ويقدم على محاربتها, فيذوق ذل الأسر والهوان على يد جنودها.

ورغم أن هدهد الجنوب بالغ في القول عن علاقة الجن ببلقيس لأن هذا الأمر لم يعط إلا لسليمان عليه السلام, فقد سمع هدهد سليمان كل هذا, ورأى ما رأى, ثم عاد مسرعا إلى سليمان, فوجد سحبا كثيرة تسقط الأمطار والقوم يشربون.

وصل الهدهد, هدهد سليمان, إلى مقره, وتقدم في ذلة وخضوع إلى الملك سليمان فوجده ساخطا عليه, وخاف على نفسه سوء العاقبة.

قال سليمان: أين كنت أيها الهدهد؟ وما سبب مخالفتك أمري؛ وتركك مكانك بدون إذني؟!

قص الهدهد على سليمان قصته كلها.

ابتسم سليمان وقال: **سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين* اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم** ثم **تولّ عنهم فانظر ماذا يرجعون** [النمل ٢٧- ٢٨].

حمل الهدهد رسالة سليمان إلى بلقيس وطار ا إلى قصرها فوجدها جالسة على عرشها, وأمامها حاشيتها ووزراؤها فأسقط الخطاب في حجرها واختفى وراء ستار النافذة.

كانت بلقيس قد عقدت مجلس الشورى للنظر في الأخبار التي جاء ا الجن عن سليمان وجيوشه, فلما وقعت الرسالة في حجرها عجبت لذلك, ثم قرأ ا على الحاضرين, جاء في الرسالة: **إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم* ألا تعلو علي وأتوني مسلمين** [النمل ٣٠- ٣١].

فقالت لهم بلقيس: **أفتوني في أمري** .

قالوا: **نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين** .

قالت بلقيس: **إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة** ولقد سمعت بسليمان من قبل, ولا أرغب في حرب أخشى منها الهوان لقومي.

وإني مرسلة إلى سليمان دية, فإن كان من طلاب الدنيا قنع ا ورجع عنها, وإن رفضها فهو صاحب مبدأ, لا ينثني عنه, وعند ذلك نذهب إليه مسلمين قبل أن يأخذنا أسرى مقيدين.

ذهب رسول بلقيس إلى سليمان وقدم بين يديه صندوقا مملوءا بالذهب والأحجار الكريمة.

قال سليمان: من أين هذا؟

قال: هدية من ملكتنا "بلقيس" إلى الملك سليمان.

قال سليمان: **أتمدونن بمال فما آتان الله خير مما آتاكم بل أنتم ديتكم تفرحون** [النمل: ٣٦].

ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم ا ولنخرجهم منها أذلة وهم صاغرون [النمل: ٣٧].

عاد الرسول إلى بلقيس, وأخبرها بما سمع, فأمرت قومها أن يحملوا راية بيضاء, وخرجت م إلى سليمان عليه السلام في موكب عظيم, ولكن سليمان سيستبق وصول هذا الموكب بمعجزة تدهش لها بلقيس, ترى ما هذه المعجزة, وماذا ستكون؟

العرش ومعجزة الإتيان به

علم الهدهد من خلال طيرانه ورحلاته أن بلقيس خرجت, فعاد إلى سليمان وأخبره بخروجها, فأمر الجن أن يعدوا لها بنيانا تنـزل فيه, فبنوا صرحا من قوارير خضر, وجعلوا له طوابق من قوارير بيض, فصار كأنه الماء, وجعلوا تحت الطوابق صور دواب البحر من السمك وغيره, فأصبح الذي ينظر إلى أرضه الزجاجية يظن أ ا بحيرة بمائها وأسماكها.

ولما ظهر ركب " بلقيس" في الأفق البعيد, جمع سليمان أهل الرأي من الإنس والجان, وقال لهم: **أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين** .

فوقف عفريت من الجن وقال: **أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك** أي: قبل أن تنتهي من مجلسك.

قال سليمان: سوف لا ينتهي مجلسي قبل حضورها.

قال وزيره "آصف" وكان رجلا عنده علم من الله سبحانه وتعالى: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك .

رفع سليمان عليه السلام نظره إلى السماء, وسجد "آصف" ودعا ربه سبحانه وتعالى, فإذا العرش أمامهم, فلما نظر سليمان إلى الأرض, ورأى العرش سر سرورا كثيرا, وأمر بوضعه أمامه مقلوبا.

أقبلت "بلقيس" فرأت عرشها مقلوبا أمام سليمان, وعجبت كثيرا لأ ا تركته بقصرها في حراسة شديدة, ثم نظرت إلى قومها فوجد م جميعا في ذهول.

قال سليمان: أهكذا عرشك؟

قالت: كأنه هو, ولقد أتيتك بقومي مسلمين.

قال سليمان: الآن أنت وقومك, في أمان, وستظلين مليكة قومك تصرفين أمورهم, وتحكمينهم بما أمر الله.

طلبت "بلقيس" السماح لها بالعودة إلى قومها لتبشرهم بالدين الجديد, فعرض عليها سليمان أن تستريح من عناء السفر قبل العودة فقبلت دعوته, وخرجت لتغير ملابسها في خيمتها, وذهب سليمان إلى الصرح فجلس على كرسي وانتظر قدومها.

أقبلت "بلقيس" في زينتها إلى مدخل الصرح, ووجدت سليمان في ناية البهو يرحب بمقدمها, فلما نظرت إلى أرضه حسبتها حوضا مملوءا بالماء, وخشيت أن تبتل ملابسها, فكشفت عن ساقيها لتخوض الماء.

قال سليمان: **إنه صرح ممرد** من قوارير زجاجية.

فخجلت من جهلها, وأقرت لسليمان بالنبوة, ولربه بالعظمة والقوة,وقالت في حماسة ويقين:

رب, إني ظلمت نفسي بعبادة الشمس, وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين.

ورجعت إلى قومها مؤمنة, وصارت ترسل الجزية في كل عام إلى سليمان.

معجزة عند الموت

قضى سليمان سنواته الباقية من حياته يقود رعيته بالعدل, ويتقرب إلى ربه بالعبادة, وقد اختار لعبادته مكانا ببيت المقدس,لا يجرؤ أحد على الدنو منه ما دام هو قائم يصلي في المحراب.

فلما علم أنه حان حينه, وانتهى أجله, توكأ على عصاه, وخرج إلى المسجد الأقصى, فدخل المحراب, واتجه إلى الله مرتكزا على عصاه, فقبضه ملك الموت, وظل جثمانه واقفا تسنده العصا أياما, والناس والجن لا يدرون بموته, ولا يجرؤون على الاقتراب منه في محرابه, حتى تآكلت العصا, لقد أكلتها حشرة الأرض, فانكسرت العصا, ووقع الجثمان على الأرض فشاع الخبر, وشيعته بنو إسرائيل إلى مثواه, وعادوا من قبره يرددون: سبحانك اللهم! تؤتي الملك من تشاء, وتنــزع الملك ممن تشاء.

هكذا كانت معجزات سليمان عليه السلام فهو يكلم النمل والطير والحيوان, ويسخر الرياح والجن بأمر ربه, وعندما يموت يموت هكذا, أ ا معجزات عظيمة وملك لم يؤت لأحد من بعد سليمان عليه السلام.

يوسف

الطيور المخيفة

قال تعالى: **ودخل معه السجن فتيان, قال أحدهما إني أراني أعصر** خمرا,

وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه, نبئنا بتأويله, إنا نراك من المحسنين

في البدء كلمة

الأنبياء عباد الله, خصهم ربهم بمكانة عظيمة, ومنـزلة رفيعة, فزين لهم فعل الخيرات, لأ م كانوا من عباده المخلصين, وجعل الله لكل نبي معجزة أو معجزات لا تكون لبشر غيرهم, ومنهم يوسف عليه السلام الذي أصابه اضطهاد إخوانه وأشقائه فحاولوا التخلص منه, ولكن الله كان له خير حافظ والله أرحم الراحمين.

وقد اختص الله عز وجل يوسف بالرؤيا الصادقة التي تحدثت عن أحداث كثيرة قبل وقوعها, فكانت رؤياه وحلمه وهو نائم معجزة,وكان تفسيره للأحلام معجزة كبيرة تدل على ما اختصه ربه به من معجزات عظيمة ما زلنا نسمعها وتصيبنا بالدهشة فنسبح بحمد الله القادر على كل شيء لأنه سبحانه عز وجل ليس كمثله شيء.

يوسف في السجن

منذ أن خرج يوسف من البئر ومضى مع بعض الناس الذين باعوه لوزير من وزراء مصر اسمه العزيز ومنذ هذا اليوم ويوسف يعيش عيشة هانئة راضية يحبه أهل هذا البيت, فهو في دار العزيز أحد وجهاء مصر وامرأته "زليخة" بنت أخت الملك الريان بن الوليد ملك مصر.

نشأ يوسف نشأة عظيمة وأصبح شابا جميلا, بديع الجمال والبهاء مما جعل النساء ينظرن إلى جماله و ائه, وكان ممن نظر إليه زليخة امرأة العزيز, وحاولت أن تجعله خائنا لسيده العزيز ولكن يوسف نبي من سلالة الأنبياء, عصمه ربه وحماه من الفاحشة, ومن مكر النساء, فهو سيد النجباء, والسبعة الأتقياء الذين قال عنهم الرسول محمد خاتم الأنبياء:

"سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله:

إمام عادل

ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه

ورجل قلبه معلق بالمساجد إذا خرج منه حتى يعود إليه
ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه
ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقته يمينه
وشاب نشأ في عبادة الله
ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله.

رواه البخاري في صحيحه١٠/ ٦٦٠/٣٦, ومسلم والترمذي والنسائي ومالك وأحمد.

لما كان يوسف أحد هؤلاء السبعة الذين تحدث عنهم رسول الله فقد رفض خيانة سيده العزيز, وعصى أمر زوجته "زليخة" وقال لها منكرا ما تريد: **معاذ الله إنه ربي** يقصد زوجها صاحب المنــزل, ثم استكمل يوسف حديثه فقال: إنه أحسن إلي وأكرم مقامي عنده وفي فعلي هذا الذي تدعينني له ظلم, **إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون** .

حاولت امرأة العزيز أن تجعل من يوسف الطاهر الطيب, فاحشا خائنا ولكنها فشلت, وخرج يوسف من دارها هاربا مسرعا, ولما عاد صاحب الدار وهو زوجها اشتكت له مر الشكوى ووصفت يوسف بأنه خائن فاحش, زورا و بهتانا, وا تهمته بالباطل, ولكن الرجل لم يصدق هذا الا تهام وحقق مع يوسف, وثبتت براءته, ولكنها لم توقف كيدها ليوسف عليه السلام, وخاصة أن نساء المدينة تحدثوا عنها وعن يوسف فأصا بها غيظ شديد, وخاصة أ نهن نساء الأمراء والكبراء, فقد طعنوا فيها وعابوا عليها, وشنعوا بها.

علمت بمكرهن وسمعت به, فأرادت أن تثبت لهن عذرها وأ نهن لو شاهدن يوسف وما عليه من جمال لفعلوا مثل ما فعلت, ففكرت في حيلة تثبت من خلالها صدق ما فعلت, كي يعذرها النسوة, لأ نها متأكدة من أن ما عليه هذا النبي الكريم يجعل الفتنة في قلوب النساء, فأرسلت لهن دعوة للغداء جامعة في منــزلها, وأعدت لهن مجلسا مريحا جميلا, وضيافة رائعة, وأحضرت من جملة ما أحضرت من الطعام وأدواته سكاكين يقطعن بها فاكهة وطعاما, وآتت كل واحدة منهن سكينا, وهيأت يوسف عليه السلام وألبسته أحسن الثياب, وكان في ريعان شبابه مليئا بكل تقاسيم

الجمال, وأمرته أن يخرج عليهن وهو بكامل زينته وجماله فخرج عليهن وهو بدر في جماله, وروعة في ثيابه وشبابه.

فلما رأته النساء وهن في مجلس زليخا أعظمنه وأجللنه, وأخذ ن الهيبة والدهشة من فرط جماله وحسنه, وجعلت النسوة يقطعن أيديهن بالسكاكين ولا يشعرن بالجراح التي أصابتهن من يوسف وقد وصف القرآن الكريم هذا المشهد فجاءت الآيات تقول:

فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم .

وقالت زليخا للنساء: **فذلكن الذي** لمتنني **فيه** فعذرت النساء زليخا التي مدحت يوسف ووصفته بالطهارة والعفة, ولكن يوسف لم يستمع إلى حديثهن ودعو ن له إلى طاعة سيدته, وقد هددته زليخا بإدخاله السجن إن لم يكن لها من الطائعين, وقالت: **لئن** لم **يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين** .

استجار يوسف بربه ودعاه دعاء خالصا, بأن يخلصه من بين أيدي النساء, وقال في هذا الدعاء: **قال رب السجن أحب إلي** مما **يدعونني إليه وإلا تصرف** عني **كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين** [يوسف: ٣٣].

قال مناجيا ربه: يا رب إن تركتني لنفسي, فليس لي من نفسي إلا العجز والضعف, ولا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله, فأنا ضعيف إلا ما قويتني وعصمتني وحفظتني بحولك وقوتك.

عند ذلك استجاب الله عز وجل لدعاء نبيه يوسف عليه السلام فقد فضل السجن على المعصية, معصية الله عز وجل, ولقد اعتبر يوسف عليه السلام أن السجن رحمة من الله عز وجل, وطريق يسلكه إلى الطاعة ويعصم نفسه بدخول السجن من المعصية.

ودخل يوسف السجن رغم ثبوت براءته عند العزيز, إلا أن العزيز وامرأته بدا لهم من الرأي أن دخول يوسف السجن ولو لوقت قصير يقلل من كلام الناس حولهم, وحكي أن يوسف عليه السلام لما دعا ربه قائلا: **السجن أحب إلي** أوحى الله إليه:" يا يوسف! أنت حبست نفسك حيث قلت السجن أحب إليّ, ولو

قلت العافية أحب إليّ لعوفيت. القرطبي ج٩ الآيتان ٣٣-٣٤ ص ١٢١.

اقتاد الناس يوسف إلى السجن مظلوما, فحمل مقيدا على ظهر حمار, وطيف به وقد قال بعضهم: "هذا جزاء من يعصي سيدته" أما يوسف فكان يقول: هذا السجن أيسر وأهون من مقطعات النيران, وسرابيل القطران, وشراب الحميم في جهنم, والأكل من شجرة الزقوم في جهنم والعياذ بالله, فلما وصل يوسف السجن وجد قوما قد انقطع رجاؤهم, واشتد بلاؤهم, فيومهم عمل شاق, ومذلة وتعذيب فقدوا من خلاله كرامتهم وعز م, واكتوت ظهورهم بسياط السجانين وظلمهم, واختلط فيهم المظلوم بالظالم والجاني بالبريء.

رأى يوسف حالتهم هذه, فتقدم إليهم وقال لهم: اصبروا وأبشروا تؤجروا, فقالوا له: يا فتى! ما أحسن حديثك! لقد بورك لنا في جوارك, من أنت يا فتى؟ قال: أنا يوسف ابن صفي الله وحبيبه يعقوب, ابن نبي الله إسحاق, ابن خليل الله إبراهيم عليه السلام.

أصبح يوسف في السجن وقد رأى الناس على حال يرثى لها فمنهم الحزين ومنهم المريض والجريح, فكان يعزي فيه الحزين, فلا يتركه حتى يذهب عنه الحزن والبأس, وكان يعود المريض, فيخفف عنه آلامه, ويداوي الجريح حتى يشفى من جراحه, وكان يوسف عليه السلام يصلي الليل كله قائما خاشعا لله عز وجل الذي أنعم عليه ونجاه من فتنة النساء.

وكان يقف بين يدي ربه باكيا حتى تبكي معه جدر البيوت وسقفها والأبواب من شدة خشوعه وخوفه من الله عز وجل, حتى طهر به السجن, واستأنس به أهل السجن, فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع حتى يجلس في السجن مع يوسف!

وقد نشأت علاقة ود شديدة وحب صادق بين يوسف وقائد السجن وصاحبه فوسع عليه فيه, وأكمل له سبل الراحة, وقال له ذات يوم:

يا يوسف! لقد أحببتك حبا لم أحب شيئا مثل حبك!!

قال يوسف: أعوذ بالله من حبك.

قال قائد السجن: ولم تقول ذلك يا يوسف؟ وظن الرجل أن يوسف يرفض

منه هذا الشعور الطيب والود الخالص ولكن يوسف استدرك قائلا:" أحبني أبي ففعل بي إخوتي ما فعلوه".

يقصد أن إخوته ثارت غيرتهم عليه لما أحبه أبوه واستدرجوه إلى البئر وألقوه فيه, وقالوا لأبيهم: إن يوسف أكله الذئب وتبع ذلك بيعه للعزيز بعد إخراجه من البئر.

ثم قال يوسف: وأحبتني سيدتي فنـزل بي ما ترى.

تبسم صاحب السجن ولكن حديث يوسف عليه السلام لم ينقص الود بينهما فكانا يلتقيان دوما ويسمران, وأصبحت شخصية يوسف دواء يشفي جراح المساجين, ويهون كروبهم وهمومهم, فإذا أصبح أهل السجن بحثوا عن يوسف ليستبشروا به, وشاوروه في آمالهم وأحلامهم, وحكّموه في خصامهم, وقبلوا حكمه بروح طيبة ونفس عالية, وأصبح السجن ليوسف ومن معه روضة جميلة, واسعة اتساع الحرية, هنيئة هناء الطاعة والعبادة, وانصرفت مشيئة الله ألا يكون سجن يوسف سجنا بل رحمة وحرية إلى الطاعة, وذلك أرحم من سجن المعصية, فالذنب الذي يرتكبه الإنسان يسجنه طوال عمره فيه أما الحرية فهي في عفة النفس واللسان واحترامها, فليست الجدران وحدها هي السجن, وإنما السجن هو سجن النفس المذنبة الذليلة.

صاحبي السجن

قال تعالى: **ودخل معه السجن فتيان** [يوسف: ٣٦].

ظل يوسف في حبسه وسجنه راضي النفس قانعا بقضاء الله والذي هو خير له, ولما طالت أيام السجن أصبح ليوسف صحبة أصحاب, ومن أصحابه الذين كانوا يلازمونه فتيان أحدهما اسمه "مجلب" والآخر " نبوا" كان يوسف يودهما كما يود أصحابه في السجن ويحبهما كما يحب أهل السجن جميعا مما زاد في التصاقهما به, ودوام مجالسته والتحدث إليه في كل أمر يخطر ببالهما. لم يكن يعلم يوسف سبب سجنهما, ومع دورة الأيام والزمن علم السبب فقد كان الملك الوليد بن الريان ملك مصر طويل العمر والملك, وأمضى زمنا طويلا في ملكه مما جعل الناس يملون ملكه فكادوا له, وبدأ الكيد من جماعة من مصر فأرادوا المكر بالملك واغتياله فدسوا إليه

هذين الغلامين وأرسلوا لهما من يفاوضهما في الأمر, فقد كان "مجلب" صاحب الطعام وخباز الملك وطباخه الذي يقدم له الطعام كل يوم ويطعمه, أما "نبوا" فقد كان ساقيه يقدم له الشراب بأنواعه, ولا يأمن الوليد لغيرهما في تقديم الطعام والشراب له سواء أكان وحيدا أو مع حاشيته وضيوفه. جاءهما جماعة من مصر وعرضوا عليهما مالا كثيرا وبساتين ومزارع جميلة إذا هما دسا السم في طعام الوليد, وضمنا لهما السلامة من أي خطر قد يتعرضان له, طالت المفاوضات, وبعدها وافق "مجلب" سريعا وتردد "نبوا" كثيرا, وفي النهاية وافقا على طلب هؤلاء الناس وحصلا على بعض المال منهم.

جاء موعد غداء الملك في اليوم التالي, فدس مجلب السم في الطعام وعمل بما اتفق عليه مع المصريين المعارضين للملك الوليد بن الريان والراغبين في اغتياله ليخلو لهم حكم مصر, أما نبوا فقد حفظ عشرة سيده ورغب ألا يخون الأمانة, فلم يضع سما في شراب الملك.

حمل كل منهما ما يخصه من الطعام والشراب فتقدم مجلب بمائدة طعام الملك وحمل نبوا أواني الشرب ودخل على مليكه, وامتدت يد الوليد بن الريان للطعام فصرخ نبوا قائلا:" لا تأكل يا مولاي ففي الطعام سم وضعه مجلب"!! تراجع الملك ورفع يده فورا عن الطعام بعد أن أمسك به, ونظر إلى مجلب في دهشة, وتنقل بصره بين مجلب ونبوا, وقال موجها حديثه لنبوا وقد وقف مجلب يرتعد من شدة الخوف, قال: ماذا تقول يا نبوا؟!

قال نبوا: أقول يا مولاي إن الطعام الذي أمامك مسموم فقد دس مجلب السم فيه.

فقال الملك: وأنت ماذا فعلت يا نبوا؟ أوضعت السم في الشراب؟

فقال نبوا: حاشا لله يا مولاي, فأنت ولي نعمتي, ومليكي الذي أرتع في قصوره, وأسعد بجواره, وأكرم نفسي من أمواله, هل يعقل أن أخون كل هذا يا مولاي؟

فقال الملك وهو ينظر إلى مجلب نظرة قاسية:

إذن.. تناول الشراب واشربه يا نبوا!!

شرب نبوا كأس الملك وأتبعه بكأس آخر, ووقف هادئا سليما لم يصبه شيء من الأذى لأن الشراب كان خاليا من السم وطازجا.

اعتدل الملك في جلسته, ونادى مجلبا كي يقترب منه قليلا, وقال له: كل من هذا الطعام يا مجلب.

قال مجلب وهو يرتعش وقد تصبب عرقا: لا أستطيع أيها الملك لا أستطيع, اعفني من هذه المهمة.

صرخ الملك في مجلب قائلا:

أيها الخائن, أنت تعرف أن الطعام مسموم, أتخاف من الموت الآن, وقد أردت أن تقتلني, قل لي من وضع السم في هذا الطعام؟

تتأتأ مجلب وارتبك وقال في تردد وخوف: لا..لا أدري.

نادى الملك جميع حراسه, وقال: اقبضوا على هؤلاء وأحضروا لي حيوانا أو دابة تأكل من هذا الطعام.

أحضر الحراس حصانا كبير السن وجعلوه يأكل من الخبز المسموم والطعام. فجاؤوا به, ولما أكل صهل بصوت عال صهلة وسقط على الأرض ميتا, عندئذ تأكد الملك من صدق نبوا وقبض على مجلب ومعه نبوا وأجريت معهما التحقيقات التي أدانتهما إدانة شديدة, مجلب وضع الطعام مسموما أمام الملك ولم يحفظ الأمانة التي ائتمنه عليها الملك وهي حياته, فمن يأمن لإنسان أن يقدم له طعامه, فإنه يأمنه على حياته وعمره, ونبوا ا م أيضا بأنه كان على علم بالمؤامرة وتأخر في الإبلاغ عنها حتى اللحظات الأخيرة.

وسيق الاثنان إلى السجن ليقضيا عقوبة رادعة, بعد أن نجيا من حكم الإعدام, وهناك في السجن أصبحا مع يوسف عليه السلام في كل مكان يجلس فيه صباحا ومساء.

وذات يوم جلس الفتيان إلى جوار يوسف وقد أهمهما أمر وشغلهما, وساد فيهم صمت لوقت قصير قطعه نبوا بقوله:

ما علمك الذي تعلمه يا يوسف؟

فقال يوسف: إني أعبر الرؤيا وأفسرها تفسيرا كاملا بأمر الله.

عاد الجميع إلى صمتهم الأول ونظر يوسف في وجه نبوا ومجلب فوجدهما مكروبين مهمومين, كأن ما كربا أو أصابتهما صائبة أو مصيبة, عندئذ بادرهما يوسف عليه السلام بقوله: ما لي أراكما مكروبين؟ القرطبي ج ٩ ص ٣٦-٣٨.

قالا: إنا رأينا في المنام ما كرهنا أن نراه.

قال يوسف: وما هو؟ قصا علي ما رأيتما.

تردد الفتيان لحظة في الحديث ثم استهل مجلب الخباز حديثه قائلا:

أتنبئنا يا يوسف بتأويل وتفسير ما رأينا؟

قال يوسف: نعم لقد قلت لكما: إنني أستطيع أن أنبئكما به إن شاء الله تعالى..

قال مجلب على الفور:

رأيت كأنني اختبزت وصنعت خبزا في ثلاثة تنانير أو ثلاثة أفران لصناعة الخبز وجعلت الخبز في ثلاث سلال, فوضعته على رأسي فجاء الطير تأكل منه.

وقال نبوا ليوسف:

رأيت كأني أخذت ثلاثة عناقيد من عنب أبيض, فعصر ن في ثلاثة أوان, ثم صفيته فسقيت الملك كعادتي فيما مضى, صمت يوسف قليلا وقد اشرأبت أعناق صاحبيه ينتظران على شوق تفسير حلميهما العجيبين, ثم تغير لونه لما عرفه من تفسير الرؤيا, عندئذ أعاد نبوا رؤياه بصيغة أخرى فقال ليوسف: أيها العالم رأيت كأني في بستان فإذا أنا أقف تحت كرمة عنب عليه ثلاث عناقيد فجنيتها, وكان كأس الملك بيدي فعصر ا وسقيت الملك شربة. عرائس ا الس للثعلبي ص ١٠٨.

نظر إليه يوسف عليه السلام, عرف أنه يستعجل التفسير, ونظر بإشفاق إلى مجلب الذي لم يشأ أن يكرر سرد رؤياه عليه مثلما فعل نبوا.

كره يوسف عليه السلام أن يعبر ويفسر لهما ما سألاه عن الرؤيا لما علم في ذلك من المكروه الذي سيقع على أحدهما وهو مجلب, فقد كان تفسير رؤياه مشقة عليه لا يبشر بخير, لهذا السبب أعرض يوسف عليه السلام وامتنع عن تفسير الرؤيا وبدأ يتحدث في أمر آخر فيه إعراض عن الخوض في تفسير الرؤيا, وفيه دعوة لإسلام أهل السجن وهم كفار.

رتب يوسف عليه السلام أفكاره, وجعل همه الأول هو الدعوة لله عز وجل لأن ما عنده من علم هو من الله عز وجل لا يستطيع أن يدعي أو أن يقول: إن ما عندي من تفسير للرؤيا هو من علمي الذي جاء من أفكاري, وليجعل في قلوب هؤلاء الأصحاب الذين يعيشون معه في السجن شيئا من الإيمان والتقوى, تستقيم معه شروط صدق الرؤيا, فإيمان الإنسان وصدقه يجعل رؤياه صادقة, فلن تجد رؤيا صادقة لإنسان كاذب أو عاص لله عز وجل, الرؤيا الصادقة نعمة من الله, والمعصية تحرم الإنسان من هذه النعمة, فالمعاصي تزيل النعم وتقضي عليها, والطاعات تجلب الخير والبشر والسعادة للناس جميعا, لهذا اتجه يوسف اتجاها مغايرا في حديثه قبل أن يفسر الرؤيا.

بين يوسف لصاحبي السجن أن الله خصه بعلم عظيم, ومن هذا العلم قال يوسف: **لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما** .

يعني: لا يجيئكما غدا طعام من منـزلكما إلا أخبرتكما به الآن قبل أن يأتي.

فقالا له: هذا من فعل العرافين والكهنة.

فقال يوسف: ما أنا بكاهن, وإنما ذلك مما علمنيه ربي, إني لا أخبركما به تكهنا وتنجيما, بل هو بوحي من الله عز وجل. تفسير القرطبي ج٩ ص ١٢٧.

وبين لهم يوسف عليه السلام دينه ومذهبه, وقال لهما: إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون واتبعت دين وملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب وكلهم أنبياء مؤمنون موحدون لله عز وجل وما ينبغي لي ولا لآبائي أن نشرك بالله من شيء, وهذا الإيمان فضل من الله علينا أن عصمنا من الشر كله, وزين لنا فعل الخيرات للناس, ومن فضل الله علينا أن جعلنا أنبياء صالحين, وفضله سبحانه عز وجل على الناس وهم عباده الصالحين, ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله على ما أتاهم من نعمة وفضل تحيط م ولا يشعرون ا.

استمع الفتيان لحديث يوسف عليه السلام وقد تشوقا لتأويل الرؤيا, ولكن يوسف لم ينه دعوته ورسالته لهما بعد، بل مضى يقول:

يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار بأي صفة تحبون أن يكون لكم رب تعبدونه؟ أتحبون أن تعبدوا آلهة متفرقة في العدد والسن؟

إ ا أصنام تلك التي تعبدو ا لا تضر ولا تنفع, أهذه الأصنام خير لكم أم الله الواحد القهار الذي قهر كل شيء, إن الآلهة المتفرقة تتفرق في الإرادة, ولو كانوا كذلك لعلا إله على إله, ولتصارعت كل واحدة مع الأخرى.

إن ما تعبدونه من أصنام -يا صاحبي السجن- من دون الله عز وجل ليست من الألوهية في شيء, وما هي إلا أسماء سميتموها أنتم, لأ ا جماد لا يتكلم ولا يعقل.

تحدث يوسف عن الإيمان والعقيدة والربوبية والطاعة فهذه رسالته في الدنيا شأنه شأن أي نبي, يدعو الناس لعبادة الله الواحد القهار, ويدعوهم للتوحيد والطاعة, والإيمان بأن الربوبية لله, ولا يعبد الناس إلا الله من خلال هذا الدين القيم.

تفسير الرؤيا

قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام: **يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمرا, وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه, قضي الأمر الذي فيه تستفتيان** [يوسف: ٤١].

بعد أن دعاهما دعوة الإيمان, وبين لهما فطنته ودرايته, وميز لهما بين تلك الأصنام التي لا تنفع ولا تضر, وبين أن الله الواحد القهار الذي لا إله سواه ولا شريك له في الملك, وهو على كل شيء قدير. بعد كل هذا بدأ يوسف عليه السلام في تفسير الرؤيا فقال موجها حديثه للساقي: إنك ترد إلى عملك الذي كنت فيه وهو سقاية الملك بعد ثلاثة أيام.

وقال للآخر: أما أنت فتدعى بعد ثلاثة أيام فتصلب فتأكل الطير من رأسك.

نظر مجلب ونبوا في يوسف وتفحصا بعضهما بعضا من المفاجأة.

وارتعد نبوا خوفا وقال: والله ما رأيت شيئا وإن هذه الرؤيا كذبنا ا عليك لنعرف مدى فراستك في تفسير الأحلام.

وقال الثاني: ما رأينا شيئا إنما كنا نلعب ونجرب عملك هذا.

فقال يوسف عليه السلام في حزم شديد:

قضي الأمر الذي فيه تستفتيان .

أي: انتهى الأمر ولا جدال مرة أخرى.

وقال يوسف في سلام لنبوا وهو الساقي الذي ظن أنه سينجو من الموت ويعود إلى حالته الأولى مع الملك الوليد بن الريان, فيدخل قصره ويكون ساقيه مرة أخرى, قال له يوسف: **اذكرني عند ربك** أي تحدث عني عند سيدك, واذكر له ما رأيته من حالي, وما أنا عليه من تفسير الرؤيا, وأخبره أني محبوس بلا ذنب, وقد كان لهذا الطلب من يوسف عتاب شديد إذ استعان وهو في محنته ببشر ولم يستعن بالله عز وجل. وقد ذكر العلماء أن يوسف ظل في السجن بضع سنين وجاء ذلك في الآية الكريمة: **فلبث في السجن بضع سنين** .

وذكر المفسرون أن جبريل عليه السلام, دخل على يوسف عليه السلام في السجن, فعرفه يوسف, فقال جبريل: يا أخا المنذرين! ما لي أراك من الخاطئين؟! وقال جبريل أيضا: يا طاهر ابن الطاهرين! يقرئك السلام رب العالمين ويقول: أما استحييت اذ استغثت بالآدميين؟! وعزتي وجلالي! لألبثنك في السجن بضع سنين.

فقال يوسف: يا جبريل أهو عني راض؟

قال جبريل: نعم!

فقال يوسف: لا أبالي الساعة. تفسير القرطبي الجزء التاسع ص ١٢٨.

وروي أن جبريل عليه السلام جاءه فعاتبه عن الله تعالى في ذلك, وطول سجنه, وقال له: يا يوسف من خلصك من القتل من أيدي إخوتك؟!

قال الله تعالى.

فقال له: من أخرجك من البئر؟

قال يوسف: الله تعالى.

قال جبريل: فمن عصمك من الفاحشة؟

قال يوسف: الله تعالى.

قال جبريل: يا يوسف فمن صرف عنك كيد النساء؟

قال يوسف: الله تعالى.

فقال جبريل: فكيف وثقت بمخلوق وتركت ربك فلم تسأله؟! تفسير القرطبي ج٩ ص ١٢٩.

قال يوسف: " يا رب كلمة زلت مني".

وجعل يوسف عليه السلام يتوسل إلى ربه ويدعوه ويقول: أسألك يا إله إبراهيم وإسحق والشيخ يعقوب عليهم السلام أن ترحمني.

فقال له جبريل: فإن عقوبتك يا يوسف أن تظل في السجن بضع سنين.

وقد قال رسول الله ﷺ :" **رحم الله يوسف لولا** الكلمة التي قال: **واذكرني عند ربك** ما لبث في السجن بضع سنين".

لهذا ظل يوسف في السجن سبع سنين, وكان يمكن أن يخرج قبل هذا لولا كلمته للساقي بأن يذكره عند الملك, ليعلم ما وقع عليه من ظلم, وما أوتي من علم في تفسير الرؤيا وتعبيرها تعبيرا صحيحا بفضل الله وإرادته عز وجل.

ظل يوسف ينتظر الفرج, فرج الله عز وجل كي يخرج من السجن بعد هذه التجربة الكبيرة, وقد كان السجن له في البداية رحمة وتفضيلا فضله يوسف على كيد النساء عندما اختار قائلا:

رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه .

رؤيا الملك وخروج يوسف من السجن

انصرفت مشيئة الله أن يخرج يوسف من السجن, ودنا فرج الله على يوسف, فقد رأى الملك الوليد بن الريان رؤياه التي تسببت في خروج يوسف من السجن, فنـزل جبريل فسلم على يوسف وبشره بالفرج, وأن إرادة الله قد انصرفت كي يخرج من السجن.

وقال جبريل: إن الله مخرجك من سجنك, وممكن لك في الأرض, يذل لك ملوكها, ويطيعك جبابر ا, ومعطيك الكلمة العليا على إخوتك وذلك بسبب رؤيا رآها الملك.

والرؤيا تقول: إن الملك الأكبر الريان بن الوليد رأى في نومه كأنه خرج من ر يابس سبع بقرات سمان, كبيرات الحجم, يكاد اللحم يسقط من جوانب كل واحدة من كثرة السمنة, وهذه البقرات السبع تطاردهن سبع عجاف هزيلات ضعيفات لا يظهر منهن سوى الهيكل العظمي, وظلت تطاردهن حتى أمسكت كل

بقرة من البقرات الضعاف الهزيلات ببقرة من السمان في آذا ا وأكلتها فلم تبق منها إلا القرنين, ورأى الملك سبع سنبلات قمح خضراء قد أقبل عليهن سبع سنبلات يابسات فأكلتهن حتى أتين عليهن فلم يبق منهن شيء وهن يابسات, وكذلك البقرات السبع كن عجافا ضعافا هزيلات حتى بعد أن أكلن البقرات السمان.

استيقظ الملك الريان من نومه فزعا خائفا فقد هالته الرؤيا وأخافته, فكيف يرى الإنسان بقرة ضعيفة هزيلة تأكل بقرة سمينة ضخمة مكتنـزة باللحم, ترك الملك فراشه على الفور وارتدى ملابسه مسرعا وغادر غرفة نومه إلى ديوانه ومجلسه, حتى رآه وزراؤه على هذه الحالة وحاشيته, ولما أخذ مجلسه نظر إلى الحضور في قلق وبدأ يقص رؤياه على الحاضرين فقال:

إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات, يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون [يوسف: ٤٣].

كان مجلسه جامعا, فقد أرسل إلى الناس وأهل العلم منهم والعرافة والكهان والنجامة والسحرة, وأشراف قومه. فلما توجه إليهم بالأمر وطلب أن يفسروا رؤياه وقال: **يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون** .

أجابوا جميعا إجابة واحدة قالوا فيها: إ ا مجرد أحلام خاطئة وهي أشياء مختلطة عليك أيها الملك وأنت نائم, وما نحن بتفسير الأحلام بعالمين, أي لا نعرف تفسير الأحلام لأ ا مجرد أشياء وأحداث مختلطة يتخيلها النائم في نومه.

قطع كل هذه الأصوات صوت نبوا ساقي الملك الذي خرج من السجن منذ فترة وجيزة وقال في صوت واثق حازم بعد أن تذكر حاجة يوسف التي نسيها سنوات عديدة عندما قال له يوسف: **اذكرني عند ربك** أي: عند ملكك.

قال: أنا أنبئكم بتأويل هذه الرؤيا وتفسيرها, وأعرف من يفسرها لك أيها الملك بدقة. فوافق الملك على طلب الساقي.

فقال الساقي: أرسلني إلى السجن بعيدا عن المدينة, فبعثوه فأتى بيوسف فقال له: أيها الصديق الصادق في تفسير وتأويل الرؤيا أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف, وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون.

فقال يوسف عليه السلام: تزرعون سبع سنين, فالسبع بقرات سبع سنين تزرعون فيهن فيأتي المحصول عاليا, وتكون هذه السنوات السبع الأولى سنوات خير, وعليكم بترك ما يزيد عن حاجتكم في سنبله حتى لا يفسد عند تخزينه فترة زمنية طويلة, لأن السبع سنوات التالية لها ستكون شديدة لا زرع ولا محصول فيها. فتأكلون ما تم تخزينه من السبع الأولى, فإذا حبستم بذور القمح في سنابلها ستجدونه سليما, تصنعون منه طعامكم ولا تحدث بينكم مجاعة أو هلاك. وأضاف يوسف لرؤيا الملك شيئا من عنده يدل على ما أتاه الله من علم للغيب يتجاوز حتى رؤيا الملك التي فسرها تفسيرا صادقا تؤكده الأيام والسنون.

أضاف يوسف قائلا: ثم **يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون** .

يغاث فيه الناس بالمطر والخير الكثير الوافر حتى أ م في هذا العام يعصرون العنب خمرا والسمسم دهنا, والزيتون زيتا, وتحلب الألبان لكثر ا في ضروع الماشية, ويدل ذلك على كثرة النبات وعلى كثرة ووفرة الغيث, ونجاة الناس مما كانوا فيه من حاجة.

و ذا العام الذي أضافه يوسف عليه السلام لرؤيا الملك الذي تحدث فيه عن سبع وسبع أي أربعة عشر عاما أضاف يوسف عليه السلام عامه إظهارا لفضله, وإعلاما لمكانته العلمية ومعرفته لعلم الغيب الذي خصه به ربه كما خص عيسى بن مريم أيضا.

عاد الساقي إلى الملك الريان, وقص عليه تأويل يوسف لرؤياه والسنة التي أضافها لرؤياه مما يدل على صدق ما فسر يوسف وأنه واقع بأمر الله لا محالة من ذلك. مما جعل الملك يشعر بمكانة هذا الرجل الصالح والنبي الطاهر يوسف الصديق عليه السلام.

خروج من السجن وبراءة عظيمة

عرف الملك أن الذي قاله يوسف لا بد وأنه واقع لا محالة, فقال لساقيه نبوا وحرسه وأصحاب السجن القائمين عليه:

ائتوني به اذهبوا وأحضروه فورا.

خرج نبوا مسرعا من المدينة قاصدا السجن وقد عرف أنه تأخر على يوسف ولم يذكره إلا بعد بضع سنين. ولما وصل السجن دخل إلى يوسف مهللا فرحا سعيدا بخروجه من السجن ولكن يوسف عليه السلام فاجأ صاحبه وقال: لن أذهب معك الآن واشترط لخروجه شرطا من الساقي أن يبلغه للملك, فقال يوسف:

ارجع إلى ربك فسئله ما بال النسوة التي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم [يوسف: ٥٠].

رفض يوسف عليه السلام الخروج حتى تصح براءته عند الملك مما قذف به وا م به, ودخل من أجله السجن وهو بريء منه.

رفض يوسف عليه السلام أن يخرج من السجن بعطف الملك, ويرميه الناس بعدها ويقولون: ذا الذي راود امرأة مولاه. فأراد يوسف أن يبين براءته, ويحقق منـزلته ومكانته من العفة والطهارة والخير.

فلهذا قال لنبوا ساقي الملك: ارجع إلى الملك وقل له واسأله: **ما بال النسوة التي قطعن أيديهن, إن ربي بكيدهن عليم** .

فرجع رسول الملك نبوا من عند يوسف حاملا رسالته هذه, فلما سمع الملك كلام يوسف, دعا النسوة اللاتي قطعن أيديهن ومعهن امرأة العزيز, وقال لهن: ما شأنكن, وذلك أن كل واحدة منكن كلمت يوسف في حق نفسها, فأجبن جميعا إجابة واحدة وقلن: حاشا لله ما علمنا على يوسف من سوء فهو شاب طاهر عفيف النفس حسن الخلق.

و ضت امرأة العزيز من وسط النسوة وقالت: **الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه** وإن يوسف صادق ولم يكذب, فلما سمع يوسف هذا الكلام وهذه البراءة من امرأة العزيز قال:ليعلم سيدي العزيز أني لم أخنه بالغيب كما قيل عني وا مني الناس.

فلما تبين للملك عذر يوسف عليه السلام وبراءته, عرف أمانته وكفايته وديانته وعلمه وعقله, وقال: **ائتوني به أستخلصه لنفسي** فلما جاء نبوا الساقي ورسول الملك إلى يوسف قال له: أجب الملك الآن.

خرج يوسف من السجن ودعا لأهل السجن بدعاء مشهور قال فيه:

"اللهم عطف قلوب الأخيار, ولا تعم عنهم الأخبار" فهم أعلم الناس بالأخبار إلى اليوم في كل بلدة.

ولما خرج من السجن كتب على بابه:

"هذا قبر الأحياء, وبيت الأحزان, وتجربة الأصدقاء, وشماتة الأعداء" العرائس للثعلبي ص ١١١.

ثم اغتسل يوسف وتنظف وتطهر من درن السجن, ولبس ثيابا جديدة رائعة, وقصد إلى قصر الملك الريان, فلما وقف على باب الملك قال: حسبي ربي من دنياي وحسبي ربي من خلقه عز جاهه وجل ثناؤه ولا إله غيره.

فلما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بك من شره وشر غيره.

فلما نظر إليه الملك سلم عليه يوسف بالعربية, فقال له الملك: ما هذا اللسان؟ وما هذه اللغة؟

قال يوسف: لسان عمي إسماعيل , ثم دعا له بالعبرانية.

فقال له الملك: ما هذا اللسان؟

قال يوسف: هذا لسان أبي يعقوب.

أعجب الملك بفصاحة يوسف ولغاته كما أعجب بأخلاقه وعفته وكان يوسف قد بلغ الثلاثين عاما, وأجلسه إلى جواره وقال: إني أحب أن أسمع رؤياي منك مشافهة.

فقال يوسف: نعم أيها الملك," لقد رأيت سبع بقرات سمان شهب حسان غير عجاف كشف لك عنهن ر النيل, فطلعن عليك من شاطئه, ينـزل اللبن من ضروعهن, فبينما أنت كذلك تنظر إليهن وقد أعجبك حسنهن إذ نضب النيل, وغار ماؤه, وأصبح قليلا, وظهر قاعه, فخرج من طينه ووحله, سبع بقرات عجاف بطو ن لا تظهر, ليس لهن ضروع من شدة الضعف, ولهن أنياب وأسنان مخيفة, وأضراس وأكف كأكف الكلاب, وخراطيم كخراطيم السباع, فاختلطن بالبقرات السمان وهجمن عليهن وافترسنهن افتراس السباع, وأكلن لحمهن, ومزقن جلودهن

وحطمن عظامهن, فبينما أنت تنظر وتتعجب كيف غلبنهن وهن مهازيل ضعاف ثم لم يظهر فيهن سمنة مما أكلن إذا بسبع سنبلات خضر وسبع أخر سود يابسات في منبت واحد جذورهن في التراب والماء, وبينما تقول في نفسك ما هذا؟ هؤلاء خضر مثمرات وهؤلاء سود يابسات في المنبت الواحد وأصولهن في الماء إذ هبت فردت أوراق السنبلات السود اليابسات على الخضر المثمرات فأشعلت فيهن النار فأحرقتهن وصرن سوادا متغيرات فهذا آخر ما رأيت من الرؤيا, ثم انتبهت مذعورا" العرائس للثعلبي ١١١-١١٢.

فقال له الملك: فما ترى في رؤياي أيها الصديق؟

فقال يوسف: أرى أيها الملك أن تجمع الطعام وتزرع زرعا كثيرا في هذه السنين الخصبة وتبني الأهرام والخزائن وتجعل القمح فيها بسنبله وقصبه ليكون أبقى ولا يفسد وقصبة القمح تصبح علفا للدواب. وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم الخمر فيكفيك ما جمعته من طعام لأهل مصر ومن حولها. ثم يأتيك الناس من كل مكان ليأخذوا مما كنـزت لهم من هذا الطعام, فيجتمع عندك من الكنوز ما لا يجتمع لأحد من قبلك.

تبسم الريان ونظر ليوسف نظرة إكبار وإجلال وقال له: ومن لي ـذا ومن يجمعه ويبيعه لي ويكفيني الشغل فيه؟

فقال يوسف: **اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم** أي: أعلم بسني الـاعة وكاتب حاسب لهذا كله.

فقال الملك: ومن أحق منك؟ وولاه خزائن الأرض وقال له: **إنك اليوم لدينا مكين أمين** .

وأصبح يوسف من يومها مكينا أمينا, بعد أن خصه الله بمعجزات كثيرة لا تحصى ولا تعد, ولعل أشهرها تأويله للرؤيا, رؤيا صاحبي السجن ورؤيا الملك الوليد.

أيوب

المغتسل البارد

قال تعالى: **واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب* اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب** [ص:٤١، ٤٢].

١. المغتسل البارد

ذكر المؤرخون روايات كثيرة عن أيوب, وذكر المفسرون كذلك.. وأيوب هو نبي الله من نسل إبراهيم عليه السلام, وقد تزوج من ذرية يوسف بن يعقوب فتاة اسمها رحمة كانت مثله صلاحا وتقوى, جازت زوجها في عبادته لله عز وجل, وفي حمده وشكره له , وفي تقربه إليه.

وقد اشتهر أيوب بين الناس بالصبر, وقصته مشهورة, ولنبدأ مع أيوب الغني, فقد كان رجلا غنيا, ذا مال كثير, بسط الله له الرزق, وأفسح له طريق الثراء, حتى كان يملك قرية كاملة في دمشق تسمى "البثنية" وهي قرية تقع بين دمشق وأذرعات, ويملك ما فيها من مزارع خضراء منبسطة فسيحة, وله فيها بساتين مزهرة, وله ا منشآت وديار.

كانت الأبقار والشياه الحلوب, ترتع في مزارعه, وتنيخ في مرابضه الإبل الخفاف, والنياق الولود, وتسرح بأرضه الخيل والبغال والحمير.

ولقد أفاض الله برزقه على عبده الصالح أيوب ففوق ما رزقه من نعمة المال, رزقه نعمة أخرى جزيلة محبوبة, تلك نعمة الأولاد وكم البنات والبنين.

فقد كمل له بذلك ما تمناه كل امرئ لنفسه من متع الدنيا ورفاهية الحياة, ولذاذة العيش, ونضرة النعيم.

فهل كان أيوب بما أعطاه الله من نعم الدنيا و جة الحياة منعما مرفها, ينعم بجاه المال ويهنأ بخلف من البنين والبنات, ونسي كل ما عداه؟ والحق يقال عكس ذلك, فلم يكن أيوب كذلك, فلم يبخل على نفسه وعياله, وكان لا يحب كنـز المال.

كان أيوب ذا مال, ولكن كانت أمواله لمن حوله قبل أن تكون لنفسه, وكان منها زكاة وهبات وعطايا كان برا بكل من حوله! يرعى غلمانه وخدمه قبل أن يرعى أهله, فلكل رجل من أتباعه زوجة ودار ومتاع, ولكل غلام مدخر من المال.

وكان لا يطعم طعاما وهو يعلم بمكان جائع يشتهي الطعام!

وكان لسانه لا يكف عن ذكر الله والحمد والتسبيح لربه ولا يفتر جنانه عن التفكير في الله عز وجل.

وتحدث الناس عن أيوب, ولهجت ألسنتهم بالدعاء له والثناء عليه, وعمرت قلوبهم بحبه والإخلاص له! وكذلك أهل السماء من الملائكة ذكروا أيوب ذكرا حسنا.

كل هذا أغاظ إبليس, كثرة ذكر أيوب والثناء عليه, وإبليس أقسم أن يغوي البشر أجمعين, وبسبب ذلك طرده ربه من الجنة جزاء عصيانه, فقال كلمته المعروفة: رب, بما أغويتني وطردتني بسبب آدم لأزينن لذريته في الأرض, ولأغوينهم أجمعين.

واستطرد إبليس قائلاً: إلا عبادك المخلصين.

وكان أيوب عليه السلام من عباده المخلصين.

وكانت محنة أيوب وقصة مرضه المشهورة هي محنته, ولعل أشهر ما ذكر عن هذه المحنة كانت هذه القصة التي جاء فيها:

تحدث الملائكة,ملائكة الأرض فيما بينهم عن الخلق وعبادتهم, قال قائل منهم:

ما على الأرض اليوم خير من أيوب, هو أعظم المؤمنين إيمانا, وأكثرهم عبادة لله, وشكرا لنعمته ودعوة له.

وسمع الشيطان ما يقال... فساءه ذلك, وطار إلى أيوب محاولا إغواءه, ولكن أيوب بقي, قلبه هو الصفاء لله والحب لله.

وقد كان أيوب عليه السلام محصنا بإيمانه ضد وسوسة الشيطان, فما استطاع إبليس أن يغريه بشيء مما يغري به الأغنياء! وما قدر على أن يدفع به إلى ما كان يدفع إليه أمثاله من الأثرياء!!

حاول إبليس عن طريق شياطين البشر أن يحرض أيوب على ارتكاب المعاصي, فأتاه بشرذمة من الناس يزينون له اللهو والمجون والمتعة المحرمة, ويدعونه إلى ترك التقشف, وإلى التهاون في العبادة لينعم نفسه بمباهج الدنيا, ويمتعها بما أوتي من نعم وجاه ومال.

ولكن قلب أيوب كان تقيا نقيا, فلم يستجب لما زين له؛ وكانت نفسه مؤمنة ورعة, فلم تسمع ما دعيت إليه.

كانت متعة أيوب عليه السلام تكمن في أشياء كثيرة, كانت متعته في أن يكفل أيتاما مات عنهم عائلهم, وكانت بهجته في أن يساعد بماله أرملة ذهب عنها رجلها, أو فقيرا أضر به فقره, أو عاجزا أقعده عجزه, فيشعر بالسعادة لسعادتهم ويهنأ لهنائهم, ويشكر الله على أن هيأ له كل هذه السعادة وكل هذا الهناء.

وطال الأمد بإبليس دون أن يستطيع الوصول إلى غايته من استمالة أيوب ببلاء لم يكن منتظرا, سر له إبليس وفرح فعاود مع أيوب نشاطه من جديد, ونعود إلى أشهر رواية عن أيوب ومحنته فنقول:

حين يئس الشيطان من إغواء أيوب, قال لله تعالى:

يا رب إن عبدك أيوب الذي يعبدك ويقدسك لا يعبدك حبا, وإنما يعبدك لأغراض.

يعبدك ثمنا لما منحته من مال وبنين, وما أعطيته من ثروة وعقار, وهو يطمع أن تحفظ عليه ماله وثراءه وأولاده, وكأن النعم العديدة التي منحتها له هي السر في عبادته, إنه يخاف أن يمسها الفناء أو تزول.. وعلى ذلك فعبادته مشوبة بالرغبة والرهبة, يشيع فيها الخوف والطمع.. وليست عبادة خالصة ولا حبا خالصا.

وقد ذكرت الرواية أن الله تعالى قال لإبليس:

إن أيوب عبد مؤمن خالص الإيمان.. وليكون أيوب قبسا من الإيمان ومثالاً عاليا في الصبر.. قد أبحتك ماله وعقاره.. افعل ما تريد, ثم انظر إلى ما تنتهي.

وهكذا انطلقت الشياطين فأتت على أرض أيوب وأملاكه وزروعه ونعمه ودمرها جميعا.. وانحدر أيوب من قمة الثراء إلى حضيض الفقر فجأة.. وانتظر الشيطان أيوب.. وقال أيوب عليه السلام عن المال:

عارية لله استردها.. ووديعة كانت عندنا فأخذها, نعمنا بها دهرا, فالحمد لله على ما أنعم, وسلبنا إياها اليوم, فله الحمد معطيا وسالبا, راضيا وساخطا, نافعا وضارا, وهو الملك يؤتي الملك من يشاء وينــزع الملك ممن يشاء, ويضر من يشاء, ويذل من يشاء, ثم خر أيوب عليه السلام ساجدا وترك إبليس وسط دهشته المخزية.

وعاد الشيطان يقول لله تعالى:

يا رب.. إذا كان أيوب لم يقابل النعمة إلا بالحمد, والمصيبة إلا بالصبر, فليس

ذلك إلا اعتدادا بما لديه من أولاد.. إنه يطمع أن يشتد م ظهره ويسترد م ثروته.

وتستطرد الرواية فتقول: إن الله أباح للشيطان أولاد أيوب.. فزلزل عليهم البيت الذي يسكنون فيه فقتلهم جميعا.

وهنا قال أيوب داعيا ربه:

الله أعطى.. والله أخذ.. فله الحمد معطيا وسالبا, ساخطا وراضيا, نافعا وضارا.

ثم خر أيوب عليه السلام ساجدا وترك إبليس وسط دهشته المخزية.

وعاد إبليس يدعو الله, إن أيوب لم يزل صابرا لأنه معافى في بدنه, ولو أنك سلطتني يا رب على بدنه.. فسوف يكف عن صبره.

وتقول الرواية: إن الله أباح جسد أيوب للشيطان يتصرف فيه كيف يشاء.. فضرب الشيطان جسد أيوب من رأسه حتى قدميه, فمرض أيوب مرضا جلديا راح لحمه يتساقط ويتقيح.. حتى هجره الأهل والأصحاب.. ولم يعد معه إلا زوجته..

ومرت الأيام, وتتابعت الشهور, وأيوب تزداد حالته سوءا,حتى لم يعد يستطيع أحد أن يقترب منه لعفن قروحه, ونتن رائحتها, فبرم الناس به, ونفروا منه, وانقطعوا عن زيارته, وتذمر أهله من جيرته وظلت زوجته هي الوحيدة التي تخدمه, وتقضي له حاجاته.

ومرت السنون وأهل أيوب لا يستطيعون على جيرته صبرا, ولا يحتملون له قربا, وجهروا باستيائهم, وأظهروا تذمرهم بالأقوال والأفعال, فلم تجد رحمة بدا من أن تعرش لزوجها عريشا في ظاهر المدينة وتنقله إليه.

وانتقل أيوب عليه السلام الذي كان يملك الضياع, ويسكن القصور إلى عريش من القش على قارعة الطريق, ورغم ذلك لم يتركه الناس لحاله, بل كانوا إذا مروا عليه أظهروا تذمرهم, وأبدوا تأففهم. وقالوا: لو كان رب هذا له حاجة فيه لما فعل به ذلك.

وهكذا ظل أيوب تمر عليه السنة تلو السنة وهو جسد ملقى في عريشه لا يصدر عنه حركة إلا حركة لسانه في فمه بذكر الله, ولا يسمع منه إلا صوت يردد اسم الله.

كانت رحمة زوجة أيوب تقوم بخدمة الناس لتكسب لها ولأيوب من طعامهما, وما يقوم بأودهما. ثم تعود إليه في اية اليوم بما تيسر لها الحصول عليه من طعام تطعمه وتسقيه, وتقضي الليل بجانبه؛ فإذا أصبح الصباح عاودت ما فعلته بالأمس.

ولكن هذه الحالة لم تدم لاشمئزاز الناس الذين كانت تقوم بخدمتهم, لعلمهم أ ا تقوم على خدمة أيوب المبتلى, وعلى غسل جروحه وتضميد قروحه, فأظهروا لها الامتعاض من خدمتها لهم, ثم طردوها من خدمتهم.

فأصبحت "رحمة" بلا عمل وسدت منافذ الكسب في وجه رحمة!

وفكرت رحمة وهداها تفكيرها إلى أن تذهب مع الصباح إلى سوق في ظاهر المدينة, ويدها قابضة على حزمة ملفوف ا شيء يبدو أ ا تحرص عليه, وتعول من ورائه على خير كثير.

وبلغت رحمة السوق, واتجهت إلى الجانب الذي تعرض فيه حاجات النساء من زينة وعطر وملبس, وفتحت لفافتها بيد مرتعشة, وجلست مع البائعات, وكانت بضاعتها ضفيرة من الخيوط الذهبية الطويلة الناعمة, كانت بالأمس نصف شعرها, فباعتها إلى أحد النساء وأخذت ثمنها.

وابتاعت رحمة بثمن شعرها طعاما وشرابا, وعادت إلى زوجها تطعمه وتسقيه, فقد كانت برة وفية بزوجها.

وبعد أن نفد ثمن شعرها ما بقي لها شيء تبيعه.

ولكن أيوب كان على صلابته وقوته, ويئس الشيطان فكر في رحمة فذهب إليها وملأ قلبها باليأس حتى ذهبت إلى أيوب تقول له:

حتى متى يعذبك الله, أين المال والعيال والصديق والرفيق, أين شبابك الذاهب وعزك القديم؟

وأجاب أيوب امرأته: لقد سول لك الشيطان أمرا.. أتراك تبكين على غرفات وولد مات؟

قالت: لماذا لا تدعو الله أن يزيح بلواك ويشفيك ويكشف حزنك؟

قال أيوب: كم مكثنا في الرخاء؟!

قالت رحمة: ثمانين سنة.

قال أيوب: كم لبثنا في البلاء والمرض؟

قالت سبع سنين.

قال: أستحي أن أطلب من الله رفع بلائي, وما قضيت فيه مدة رخائي.

لقد بدأ إيمانك يضعف يا رحمة, وضاق بقضاء الله قلبك.. لئن برئت وعادت إليّ القوة لأضربنك مائة عصا.. وحرام بعد اليوم أن آكل طعاما من يديك أو أشرب شرابا أو أكلفك أمرا.. فاذهبي عني.

وذهبت عنه زوجته وبقي أيوب جسدا صابرا وحيدا, يحتمل ما لا تحتمله الجبال.. وأخيرا فزع أيوب إلى الله داعيا متحننا لا متبرما, ودعا الله أن يشفيه.

٢. المعجزة

ماذا قال أيوب في دعائه يا ترى؟ لقد قال القرآن الكريم: إن أيوب نادى ربه فقال:

أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين [الأنبياء: ٨٣].

وجاءت الاستجابة سريعة من الله عز وجل, ونـزل وحي الله على أيوب:

اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب [ص: ٤٢].

وضرب أيوب الأرض برجله الضعيفة كما أمره الله, فانفجرت عيون من ماء عذب زلال بارد وصاف, فاغتسل أيوب بماء إحدى هذه العيون التي فجرها له الله سبحانه عز وجل, فإذا بجلده الدامي المتقرح يصبح سليما نظيفا جميلا, وشرب أيوب من ماء عين أخرى, فإذا به سليم معافى, قد سرت في جسمه القوة, ودب النشاط..!!

وكانت إحدى معجزات الله القادر على كل شيء الذي يقول للشيء كن فيكون.

وجلس أيوب وقد استرد صحته, وعافيته, ورونقه وجماله, في حلة قشيبة من عند الله, فشكر الله على ما ابتلاه, وعلى ما أنعم به عليه.

وكان قد أقسم أن يضرب امرأته مائة ضربة بالعصا عندما يشفى, وها هو قد شفي, وكان الله سبحانه وتعالى يعرف أنه لا يقصد ضرب امرأته, ولكي لا يرجع

عن يمينه أو يكذب فيها أمره الله أن يجمع حزمة من أعواد الريحان عددها مائة, ويضرب ا امرأته ضربة واحدة, وبذلك يكون بر في قسمه ولم يكذب.

رحم الله أيوب العبد الصابر.

وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث, إنا وجدناه صابرا, نعم العبد إنه أواب [ص: ٤٤].

عيسى

الطفل ينطق مرتين

قال تعالى: **فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا** [مريم: ٢٤].

قال تعالى: **فأشارت إليه قالوا كيف نكلّم من كان في المهد صبيا** [مريم: ٢٩].

معجزة الحمل والميلاد

تأخرت مريم ابنة عمران عن صاحبا ا يوما, فلما ذهبت تملأ جر ا من الينبوع وجدت نفسها وحيدة, وأحست وحشة ورهبة, واضطرب جسمها فجأة, فشعرت بالخوف, وأقبلت على الماء مسرعة تردد أدعية الصلاة, وإذا شاب قوي, وسيم الطلعة, جميل الهيئة, ينظر إليها كأنما خرج من الأرض.

خافت مريم, وأصا ا الذعر, وتوقعت شرا ينـزل ا فقالت: **إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا** [مريم: ١٨].

ذلك الشاب الجميل كان جبريل عليه السلام, فلما رأى جبريل عليه السلام انـزعاجها قال لها:

إنما أنا رسول ربك إليك لأهب لك غلاما زكيا [مريم: ١٩].

احتارت مريم في أمره, وخافت أن يكون بشرا أراد ا سوءا, وأرادت الهرب, فهبط عليها إلهام من الله عز وجل, وإذا هي واقفة بثبات واطمئنان, ثم رأت صفا من الملائكة عن يمينها, وصفا عن شمالها, فهدأت نفسها, وذهب خوفها.

قالت الملائكة: **يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين** [آل عمران: ٤٥].

قالت مريم متوجهة إلى الله عز وجل:

رب أنى يكون لي **ولد** ولم **يمسسني بشر** [آل عمران: ٤٧].

قال جبريل عليه السلام:

كذلك الله يخلق **ما يشاء, إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون** .

تلقت مريم هذا النبأ العظيم بخوف وفرح, إن الملائكة تبشرها بولد يكون نورا وهدى للناس, ورسولا إلى بني إسرائيل, يا له من شرف عظيم.

رفعت مريم رضوان الله عليها رأسها أمام جبريل عليه السلام وقالت: هأنذا أمة الله. ليكن ما يريد الله.

تقدم جبريل عليه السلام, ونفخ في جيبها, ثم اختفى عنها مع الملائكة بعد أن وهبها وديعة القدوس الأعلى.

أحيطت مريم العذراء بسر هائل, لم تعهده امرأة سواها من قبل فالجنين يتحرك في بطنها, وأمرها صائر إلى الفضيحة, وهي العذراء الصالحة التي عاشت عمرها طاهرة نقية.

لم تطق مريم البقاء بحالتها هذه في الناصرة, فأسرعت بالعودة إلى جبال حبرون, لتكشف سرها إلى مثلها, تثق فيها, وتطمئن إليها, وتلاقت مريم مع خالتها "أليصابات" فألقت إليها بسرها الرهيب و"أليصابات" خالة مريم وامرأة زكريا عليه السلام.

كانت أليصابات زوجة زكريا قد حملت هي أيضا, بعد أن استجاب الله لدعاء زوجها, فروت كل منهما قصتها وتحدثتا بغرابة حملهما, وكانت "أليصابات" العجوز قد حملت بيحيى عليه السلام, ومكثت مريم وخالتها أليصابات معا ثلاثة أشهر في هذا البيت الهادئ على سفح الجبل وقد سمعت مريم وأليصابات وهما نائمتان على سرير واحد نداء سماويا ألهمهما أن الطفل عيسى ويحيى سيشتركان معا في إتمام القصد الإلهي, ونـزل هذا الخبر على قلبيهما بردا وسلاما.

وعادت العذراء المباركة إلى الناصرة, وهي الفتاة الباسمة المشرقة, فقد أصبحت تعيش في عالم جديد أكثر اتصالا بالله, تفكر طويلا بفرح ممزوج بالخوف.

انتفخ بطنها, وبدأت تفطن إلى الريبة التي تخامر قلوب المحيطين ا, فكانت تفكر في ذلك طويلا, وأخيرا استقر عزمها على أن تكشف سرها إلى ابن عمها

يوسف النجار, وكان أشد الناس برا ا وحرصا عليها, فأرسلت له وألقت إليه بسرها الذي كان حملا ثقيلا عليها.

وقع هذا الخبر على يوسف, وقوع الصاعقة, فشك في أمرها, وهو أعلم الناس بعفتها وطهار ا, وعاد إلى منـزله, وأوى إلى فراشه شارد الفكر مضطرب الفؤاد, فطار النوم من عينيه, وعصر الحزن قلبه.

وفي هدوء الليل هبط الوحي الإلهي على ذلك الرجل المعذب والقلب الجريح, وأنبأه الحقيقة العظمى, فقام من نومه, وقد آمن بحقيقة مريم العذراء, وأسرع إليها في منـزل عمتها ليعتذر لها عن ريبته وشكه فيها, ثم عرض عليها أن يضمها في بيته ليستر أمرها, ويحظى بشرف رعايتها كما يرعى الزوج زوجته.

أذعنت مريم لإلحاح عمتها فقبلت هذا العرض وذهبت إلى بيت يوسف, فأتمّت فيه مدة الحمل.

لما صارت في الشهر التاسع, ورأى يوسف سوء حالتها, أشفق عليها, وبذل المستحيل ليخفي أمرها, ويمنع سوء القالة عنها, فقرر السفر ا لتضع مولودها, بعيدة عن الناصرة وأهلها.

الطريق إلى بيت لحم

أمر القيصر, وهو ملك بلاد الشام في ذلك الوقت, أمر بحصر عدد السكان, وكتابة أسمائهم في سجلات, وهدد كل من يتخلف عن تدوين اسمه, وأسماء عائلته بالعقاب الشديد.

فسافر الناس من الشمال والجنوب إلى القدس, لتدوين أسمائهم, فكنت ترى الطريق مزدحمة بالمسافرين.

مالت الشمس إلى الغرب, وإذا وقعت العين على ركب المسافرين, الذين جاؤوا من بلاد الجليل في الشمال وقد بدا عليهم أثر التعب, وأضناهم السفر الطويل تجد من بين هؤلاء المسافرين فتاة قروية هي مريم العذراء على دابة وقد أمسك بمقودها رجل هو يوسف النجار الذي كان يبدي اهتماما عظيما ا.

جاءا معا إلى القدس, ليقيدا اسميهما في سجلات المحاكم, ولعلهما أرادا

الاختفاء عن قومها خشية الفضيحة, وقت الولادة.

اقترب الركب المبارك من "بيت لحم" وهي مدينة فلسطينية, وشعرت مريم بمقدمات الوضع, فمال يوسف النجار ا إلى بيت لحم, وأنـزلها بالقرب من كهف كبير, وقد استعمله الرعاة من قديم الزمان مربطا للماشية والأغنام, فجلست مريم بجوار جذع نخلة, وذهب ابن عمها إلى القدس, ليستأجر لها مكانا خاليا, وما كان هناك مكان يصلح لراحة حبلى في شهرها الأخير, لكثرة الوافدين على المدينة في هذا الوقت.

فما كان منه إلا أن أخذها إلى مكان خال بجوار نخلة يمر من تحتها جدول صغير من الماء.

الميلاد والمعجزة

كانت مريم العذراء وحيدة هناك بجوار النخلة, إ ا نخلة معمرة, وأمامها جدول صغير من الماء العذب يسري ماؤه, فقاست مريم حرارة الوحدة وقت الولادة, وأجاءها المخاض إلى جذع النخلة, فوضعت ابنها البكر, وقامت إلى الجدول وغسلته وقمطته, ثم اتجهت به إلى الكهف, وفي هذا المكان الهادئ نام المسيح نومته الأولى, ودخل إلى العالم ـذه الصورة المتواضعة كما يدخل أي مولود عادي من عامة الناس, وقد استقبلته السماء بمظاهر الترحيب والبشر, فشع نور على مهد هذا الوليد المبارك, وكانت أمه بعد هذا الـهود الشاق قد استسلمت لضعف ألمّ ا, فرأت مظاهر الحفاوة والتكريم لهذا المولود, وسمعت ترتيل الملائكة الذين جاؤوا يحفون بالمولود الجديد, يسبحون ويهللون ويهتفون بالتحية لمولده, وشاهدت هذا النور الذي انبثق من السماء إلى الأرض, يعلن لملايين البشر فجر الخلاص من الظلم والاستبداد, وظلام الجهل والضلال.

أفاقت مريم من ضعفها, وعاد إليها نشاطها, فإذا طفلها ينظر إليها نظرة العطف والتساؤل, وإذا قلبها مفعم بالذكريات الأليمة, والصور البشعة, وإذا هي ـب للتفكير في ساعة لقاء أهلها وذويها.

كيف ترد على التهم التي ستنهال عليها؟! ظلت تفكّر في ذلك كثيرا, فانتا ا

موجة من الضيق, ونكست رأسها تحاول إبعاد هذه الوساوس عنها. قالت: **يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا** يا إلهي؛ أنت عليم بحالي فألهمني الرشاد, وخلصني مما أقاسيه.

كانت مريم حقا في حيرة شديدة, لا تستطيع البقاء بمولودها في هذا المكان بدون طعام, ولا تستطيع أن تعود به إلى ذويها في الناصرة, ولا إلى أقربائها في بيت لحم, فيرموها بالسوء, ويقذفوها بالتهم أشكالا وألوانا.

أظلمت الدنيا في عينها, وساءت الحياة أمامها, وبينما هي في غمرة من ذلك سمعت صوتا يناديها:

يا مريم, لاتحزني!! قد جعل ربك تحتك ماء سريا وهزي إليك بجزع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلي من الرطب, واشربي من الماء, وتوكلي بعد ذلك على الله فهو نعم المولى, ونعم النصير.

سمعت مريم هذا النداء السماوي يتردد على أذ ا, فكان بردا وسلاما على قلبها, أعاد إليها الأمن والثقة, وأذهب عنها الخوف والاضطراب فقامت مريم إلى الجدول وشربت, وهزت بجذع النخلة وجمعت ما وقع منها من رطب, ثم أقبلت على الطفل وأشرق وجهها بمحياه, فانـزاح عنها الكابوس الثقيل, وكانت قد سمعت حديث الناس حول ظهور النجم الأكبر, وتساؤلهم عن آيات ظهور المسيح المنتظر الذي بشرت به التوراة.

وبينما هي كذلك جاء يوسف النجار إليها في لهفة وحسرة, فوجدها في أتم صحة, تغسل الخرق, وتنشرها على أشعة الشمس, وقد حماها الله من كل سوء, فلما نظر إليها يستفسر عن حالها أشارت إلى المولود, فأسرع يوسف إليه, ووقف برهة يتأمل ذلك الوجه المشرق الجميل, ونحن نتصور ما يجول في رأس هذا الرجل المؤمن من الأفكار, بعدما رأى من آيات الله, وما سمع من حديث القوم, فنعرف السر فيما فعله بعد ذلك, حينما وهب كل وقته,وبذل كل جهده لرعاية هذا الوليد الخارق لناموس الحياة وأمه السيدة العذراء.

ونتصوره أيضا يعود إلى مريم, وقد نكّس رأسه هيبة وإجلالا ليسألها عملا يؤديه, أو خدمة يقدمها.

حقا!؟ إن يوسف النجار كان رجلا صالحا تقيا نبيلا, كشف الله عن بصيرته, وألهمه الحقيقة والصواب.

ونحن نتصور مريم تقضي مدة النفاس في هذا المكان الخلائي الهادئ, فنجدها هانئة به, وقد راضت نفسها على الإقامة فيه, وكان يوسف النجار يذرع الأرض كل يوم ويقطع طريقها بين الكهف الذي ولد فيه المسيح وبين القدس, حيث يقضي حوائجها, ويشتري لها الخبز والطعام, فإذا عاد من المدينة وجد تمرا كثيرا, جاءت به هذه النخلة التي شب عمرها, واخضرت أوراقها, بعد أن أصا ا الكبر ونخرها السوس.

انتهت مدة نفاس مريم العذراء, وحان موعد الرحيل إلى المدينة, فعاود مريم القلق, وانتا ا الوسواس من جديد.

كان يوسف يحزم الأمتعة استعدادا للرحيل, ومريم غارقة في همومها ودعائها تطلب العون من الله, فسمعت هاتفا يهتف ا:

يا مريم؛ صومي اليوم عن الكلام, فلا تكلمي أحدا من الناس, والله يتولاك برعايته.

كان الهاتف ذا الأمر هو جبريل عليه السلام, فصدعت للأمر, ونذرت الصوم قالت:

إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا [مريم: ٢٦].

ولما فرغ يوسف النجار من حزم الأمتعة, حملها على دابته ثم نظر إلى مريم, ودعاها للركوب, فركبت دون أن تحرك شفتيها بكلمة واحدة.

اتجهت مريم بالطفل إلى جبال حبرون, وجاءت به إلى قومها تحمله, قالوا:

يا مريم؛ لقد جئت شيئا فريا, وأمرا منكرا!؟

سكتت مريم ولم تقل شيئا للدفاع عن نفسها, فأيقنوا أ ا ارتكبت خطيئة, وقالوا:

يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا [مريم: ٢٨].

تكلمي يا مريم ودافعي عن نفسك. كيف جئت ذا الغلام؟!

كانت مريم صائمة لا تستطيع الكلام, فلما ألحوا عليها وكثر كلامهم وسؤالهم لها, اتخذت قرارا صامتا أصا م بالدهشة الشديدة!!

كانت مريم صائمة عن الكلام, لا تستطيع الكلام, فلما ألحوا عليها وكثر سؤالهم لها: أشارت إلى الطفل ليكلموه, إنه أمر عجيب, كيف تطلب مريم شيئا خارقا لم نعتد عليه, إ ا تطلب معجزة, تريد أن يتكلم هذا الطفل الملفوف في قطعة من القماش.

قالوا في دهشة واستغراب: **كيف نكلم من كان** في **المهد صبيا** .

كيف نكلم هذا الطفل الذي يكفينا سماع صوت بكائه بصعوبة شديدة من ضعفه وطفولته المبكرة.

لقد ولد منذ أيام قليلة, فهل يعقل إنسان هذا الذي تريده مريم, إ ا تريد المستحيل.

ولكن مريم كانت بحاجة إلى معجزة كي يصدقها الناس, إذ كيف يصدق الناس أن طفلا أنجب بغير أب, وفي هذا الأمر ا ام للعرض والشرف, حتى أ م قالوا إن أمها كانت طاهرة شريفة وأبوها لم يكن يوما من الأيام سيء الخلق حتى تأتي هي ذا الفعل المشين.

انصرفت مشيئة الله أن يكون الرد معجزة, لأن الإقناع في مثل هذه المواقف يحتاج إلى معجزات ومعجزات, والمعجزة والشيء الخارق هنا أن يعتدل الطفل في فراشه ويعرف الناس بنفسه ويدافع عن أمه وما أثير حولها من عبارات الشك والطعن في شرفها وعرضها.

تكلم عيسى المسيح عليه السلام, بعد أن قالوا: **كيف نكلم من كان** في **المهد صبيا** .

قال عيسى وهو ملفوف في رباط الأطفال وملفوف بخرق الفراش.. قال:

إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا* وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا* وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا* والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا* ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون [مريم: ٣٠- ٣٤].

وكان حديثه في المهد معجزة عظيمة.

معجزات النبي محمد ﷺ

انشقاق القمر

قال تعالى: **اقتربت الساعة وانشق القمر* وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر* وكذبوا واتبعوا أهواءهم, وكل أمر مستقر** [القمر: ١- ٣].

كان على رسول الله ﷺ, وعلى الأنبياء جميعا, أن يتحملوا تبعات رسالا م, ومن تبعات هذه الرسالات ومسؤوليا ا الشاقة هو جدل الكفار وطرحهم أسئلة تحتاج إلى إعجاز من الله سبحانه عز وجل, وكم أعطى الله عز وجل لأنبيائه من المعجزات والآيات, ومنهم موسى عليه السلام, فقد شق له البحر, وجعل عصاه ثعبانا ضخما يبطل سحر السحرة, ويزعج فرعون ومن معه, وجعل له الجبل يطير في الهواء.. وصالح الذي أتاه الناقة.. وغير ذلك.. وهنا نجد أن القرآن قد أورد كل هذه المعجزات في قصصه.

ومما روي أن أهل مكة شأ م شأن غيرهم من الأمم سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية أو معجزة, فأراهم عليه الصلاة والسلام القمر شقين!!

قال رجل اسمه مطعم من أهل مكة: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين أو جزئين جزء على هذا الجبل, وجزء على هذا الجبل.

ترى ماذا قال الكفار عن هذه المعجزة العظيمة؟ أجعلتهم يؤمنون بما جاء به محمد ﷺ, أم يصرون على كفرهم؟ لم يصروا على كفرهم فقط بل إ م ا موا رسول الله ﷺ وقالوا حجتهم الواهية, قالوا: إن محمدا قد سحرنا!! ظنوا أن هذا سحر, ورفضت عقولهم الإيمان فنـزل قول الله عز وجل: **اقتربت الساعة وانشق القمر** .

الدعاء ونـزول المطر

كانت مكة بيئة صحراوية لا ماء فيها ولا أ ار وتعتمد اعتمادا كبيرا على المطر, وكذلك كانت المدينة إلا أن المدينة كان ا بعض الآبار لكنها لم تكن تكفي إلا لشرب الناس فقط, ومن هذه الآبار "بئر حاء" الذي اشتراه أبو طلحة الأنصاري وأعطاه هدية للمسلمين, وذلك عندما نـزلت الآية الكريمة التي تقول: **لن تنالوا**

البر حتى تنفقوا مما تحبون .

ومرت بالمدينة أيام أصاب المسلمين قحط شديد, بسبب قلة المطر, فدخل رجل المسجد على رسول الله ﷺ وهو قائم على المنبر يخطب في الناس, فظل الرجل يمشي حتى جاء في مواجهة الرسول ﷺ, وقال للرسول: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل, فادع لنا الله يغيثنا.

لقد طلب الرجل من رسول الله ﷺ الغوث بالدعاء إلى أن ينـزل الله المطر عليهم.

رفع رسول الله ﷺ يديه وقال:

"اللهم اسقنا, اللهم اسقنا, اللهم اسقنا". رواه البخاري.

كان أنس بن مالك في المسجد, مسجد رسول الله ﷺ في المدينة, فقال أنس: (والله ما في السماء من سحاب ولا قزعة ولا شيء, وما بيننا جبل سلع, وهو جبل داخل المدينة, فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس, فلما توسطت السماء انتشرت, ثم أمطرت, والله ما رأينا الشمس ستة أيام) ومرت الأيام الستة وفي يوم الجمعة التالي دخل رجل آخر من الباب نفسه الذي دخل منه الرجل في الجمعة السابقة, وكان رسول الله ﷺ يخطب في الناس فقال الرجل للرسول:

يا رسول الله هلكت الأموال, وانقطعت السبل ادع الله أن يمسكها.

أي أن الأمطار, من شد ا, قطعت الطرق, وبدأت تؤذي الماشية والزرع, فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال:" اللهم حوالينا ولا علينا, اللهم على الآكام والجبال, ومنابت الشجر".

والآكام التي يقصدها رسول الله ﷺ في الحديث هي التلال الصغيرة المرتفعة. وما أن انتهى رسول الله ﷺ من هذا الدعاء المبارك حتى انقطع المطر وخرج الناس يمشون في الشمس.

وكانت هذه معجزة نـزول المطر بدعاء رسول الله ﷺ.

الماء ينبع من أصابع رسول الله ﷺ

ومن معجزات الرسول ﷺ الكثيرة الذي يدل على صدق نبوته ورسالته,

فالإنسان يعرف دائما ويعقل أن الماء له منابع منها الآبار والأ ار, وفي هذه المعجزة يروي أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ يقول: إن الماء كان ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ فقد قال أنس رضي الله عنه: (رأيت رسول الله ﷺ, وقد حانت صلاة العصر, والتمس الناس الماء للوضوء, فلم يجدوه, وكان عددهم قرابة ثلاثمائة رجل من أصحاب رسول الله ﷺ, فأتي رسول الله بماء للوضوء في إناء, فوضع رسول الله ﷺ يده في ذلك الإناء, وأمر الناس أن يتوضؤوا).

يقول أنس: (فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه, فتوضأ الناس حتى توضؤوا من عند آخرهم) فسأل رجل أنسا راوي القصة فقال: كم كنتم يا أنس؟

قال أنس زهاء ثلاثمائة رجل.

هذه معجزة ظاهرة, لا يستطيع بشر أن يأتي ا, وقد اختص ا رسول الله ﷺ وهي معجزة تدل على صدق نبوة النبي ﷺ, إذ شهدها الناس في مكان عام وبعدد كبير بلغ الثلاثمئة رجل تقريبا.

بئر الحديبية وفيضان الماء

خرج رسول الله ﷺ قاصدا مكة لزيارة بيت الله الحرام, وكان ذلك في السنة السادسة من الهجرة, وكان رسول الله لا يبغي حربا ولا قتالا ولكنه دعا المسلمين للنصرة والنجدة ودعا من حوله من قبائل الأعراب خشية أن تعترضه قريش بحرب, أو يصدوه عن البيت , فتثاقل عنه الأعراب وقبائلهم, فخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار, ومن لحق به من العرب ليس معهم من السلاح إلا السيوف في أغمادها وساق معه الهدي, وهو الماشية التي أراد إهداءها لمكة من النعم وأحرم بنية العمرة وهي الطواف والسعي بين الصفا والمروة فقط.

والفرق بين الحج والعمرة أن العمرة تجوز للإنسان في السنة كلها, بينما الحج له وقت معروف من السنة, مع زيادة بعض الأعمال.

وسار رسول الله ﷺ حتى نـزل بأقصى الحديبية, وهي مكان أو موضع بينه وبين مكة مسافة قريبة, سميت مرحلة واحدة من السير.

ولما علمت قريش اعترضت على دخوله ﷺ مكة ومنعته من ذلك وجاءت

الأخبار تقول: إن كفار قريش قتلوا الرجال الذين أرسلهم رسول الله ﷺ للاستئذان في دخول مكة ومن بين هؤلاء عثمان بن عفان, فبايع المسلمون الرسول ﷺ, عندما نادى المنادي قائلا: أيها الناس, البيعة البيعة! فثاروا إلى رسول الله, وهو تحت الشجرة فبايعوه على القتال حتى النصر, ولذلك فقد أطلق عليهم أهل بيعة الرضوان وأنـزل الله فيهم قوله تعالى: **لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك** تحت **الشجرة فعلم ما** في **قلوبهم فأنـزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا** [الفتح: ١٨].

وفي هذا اليوم العظيم يوم الحديبية, حدثت معجزة عظيمة من معجزات النبي ﷺ, فقد كان بالحديبية بئر ماء استطاع أصحاب أهل بيعة الرضوان وكان عددهم ألفا وأربعمائة رجل, استطاعوا أن ينـزحوا الماء من البئر حتى لم يبق فيها ما يملأ كأس ماء واحدة, ولذلك فقد خاف الناس العطش من قلة الماء, فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ, فجاء عليه الصلاة والسلام, وجلس على حافة البئر, فطلب قليلا من الماء فجيء به إلى الرسول ﷺ فتمضمض منه, ومج ما تمضمض به في البئر وأصحابه ينظرون.

وما هي إلا لحظات حتى بدأ البئر يضخ الماء فيعلو ويعلو فأخذ الناس يسقون الأبل والماشية ويشربون هم ويملؤون أوانيهم بالماء, وأدوات حمل الماء عندهم, ونحن نعرف أن عددهم كان ألفًا وأربعمائة رجل, وهم من الصالحين ومن الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه عندما أطاعوا رسوله الكريم وبايعوه على التضحية بأرواحهم في سبيل دينهم ودعوة محمد ﷺ.

وكانت هذه معجزة وآية نبوية صادقة تدل على مكانة رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه عند ربه؛ لأنه رسول الله حقا وصدقا..

انقياد الشجر له عليه الصلاة والسلام

جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري صحابي مشهور يعرفه المسلمون جيدا, كان صادقا وفيا لدينه ولرسوله ﷺ وها نحن نسمع هذه المعجزة التي رواها جابر بن عبد الله في صحيح البخاري ومسند أحمد, ترى ماذا قال جابر ابن عبد الله رضي الله عنه؟

قال: سرنا مع النبي ﷺ حتى نـزلنا واديا واسعا رحبا, فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته, فسرت خلفه, واتبعته بإداوة فيها ماء, أو إناء فيه ماء, فنظر عليه الصلاة والسلام فلم ير شيئا يستتر به وإذا شجرتان بشاطئ الوادي, فانطلق عليه الصلاة والسلام إلى أحدهما فأخذ ببعض أغصا ا وقال:"**انقادي علي بإذن الله**" فانقادت معه كالبعير المخشوش (أي الملجم بعود في عظم الأنف لينقاد به البعير) الذي يصانع قائده حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بعضا من أغصا ا وقال:" **انقادي علي بإذن الله**" فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده حتى إذا كان بالمنتصف فيما بينهما لاءم بينهما, وجمع بينهما أي جمعهما, وقال عليه الصلاة والسلام:"التئما علي باذن الله" فالتأمتا.

قال جابر: فخرجت أعدو بشدة مخافة أن يحس بقربي فيبعد, فجلست أحدث نفسي فحانت مني التفاتة, فإذا أنا برسول الله ﷺ مقبل وإذا الشجرتان افترقتا, وقامت كل واحدة منهما على ساق...

هذه هي إحدى معجزات النبي الخارقة للعادة التي لا تكون إلا لنبي من الأنبياء عليهم السلام. فالشجرة استجابت وأطاعت أمر رسول الله, إنه أمر خارق للعادة.

حنين الجذع لرسول الله ﷺ

كان رسول الله ﷺ قد اعتاد حين يخطب في المسلمين أن يخطب على جذع نخلة.. وذات يوم جاءت امرأة من الأنصار وكان لها غلام يعمل نجارا.

فقالت يا رسول الله: إن لي غلاما نجارا أفآمره أن يتخذ لك منبرا تخطب عليه؟

قال: بلى.

فصنع له الغلام منبرا, فلما كان يوم الجمعة وقف رسول الله يخطب على المنبر الجديد المصنوع من الخشب فسمع عليه الصلاة والسلام جذع النخلة يئن كما يئن الصبي, فقال النبي ﷺ:" **إن هذا بكى لما فقد من الذكر**".

وجاءت رواية أخرى لهذه القصة في صحيح البخاري تقول: فصاحت النخلة (جذع النخلة) صياح الصبي ثم نـزل ﷺ فضمه إليه يئن أنين الصبي الذي يسكن.

قال ﷺ:" **كانت تبكي (النخلة) على ما كانت تسمع من الذكر عندها**".

إذن فحنين الجذع شوقا إلى سماع الذكر وتألما لفراق الحبيب الذي كان يخطب إليه واقفا عليه وهو جماد لا روح له ولا عقل في ظاهر الأمر.

هذه معجزة بكل المقاييس تخالف ما اتفق عليه أن الجماد لا يتحرك ولا يشعر, وفي الحقيقة فإ ا كائنات تسبح بحمد الله عز وجل, وهي من الكائنات التي لا نسمع تسبيحها. بل سمعها الأنبياء بمعجزة وآية من الله عز وجل.

وإذا كان الرسول ﷺ قد جاء بمعجزة كهذه لا يقدر عليها بشر مثله, ولم تؤت لأحد من البشر الذين هو منهم, فإن ذلك دليل على صدق وعظم نبوته عليه الصلاة والسلام.

سلام الشجر وتسبيح الحصى في يديه

انحصرت الخلافة بعد رسول الله ﷺ في أبي بكر الصديق ﷺ, والفاروق عمر ﷺ وعثمان ذي النورين ﷺ.

وفي هذه القصة المعجزة التي رواها الحافظ أبي بكر البيهقي رواه أحمد رضي الله تعالى عنهما عن سويد بن يزيد السلمي قال: سمعت أبا ذر الغفاري ﷺ يقول: لا أذكر عثمان إلا بخير بعد شيء رأيته, وبين ذلك الخبر الذي رآه فقال:

كنت رجلا أتبع خلوات رسول الله ﷺ, فرأيته يوما جالسا وحده فاغتنمت خلوته فجئت حتى جلست إليه, فجاء أبو بكر فسلم عليه ثم جلس عن يمين رسول الله, فجاء عمر وجلس عن يمين أبي بكر, ثم جاء عثمان فجلس عن يمين عمر, وبين يدي رسول الله ﷺ سبع حصيات فأخذهن في كفه فسبحن حتى سمعت لهن حنينا كحنين جذع النخل, ثم وضعهن فخرسن أي سكتن, ثم أخذهن فوضعهن في كف أبي بكر فسبحن حتى سمعت لهن حنينا كحنين النخل, ثم وضعهن فخرسن, ثم تناولهن فوضعهن في يد عمر فسبحن حتى سمعت لهن حنينا كحنين جذع النخل, ثم وضعهن فخرسن, ثم تناولهن فوضعهن في يد عثمان فسبحن حتى سمعت لهن حنينا كحنين النخل, ثم وضعهن فخرسن, فقال النبي ﷺ:" **هذه خلافة النبوة**".

فهذه معجزة عظيمة من معجزات النبي ﷺ ذات شقين أولهما: إن الحصى يسبح في أيدي الخلفاء الراشدين. والثاني: إن الخلافة فعلا انحصرت في أبي بكر

الصديق وعمر بن الخطاب وذي النورين عثمان ووصلت إلى علي ﷺ.

شكوى البعير للرسول ﷺ

كان الأنصار في المدينة يستخرجون الماء من البئر بواسطة الإبل فانظر إلى هذه القصة التي يرويها أنس بن مالك ﷺ فقال:

كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يستخرجون الماء من البئر عليه, إنه استصعب عليهم فمنعهم من استخدامه أي منعهم من استخدامه في هذا العمل.

فجاء الأنصار إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إنه كان لنا جمل نستخرج عليه الماء من البئر, وإنه استصعب علينا وعصانا ومنعنا أن نكلفه ـذا العمل وقد عطش الزرع والنخيل.

فقال رسول الله ﷺ لأصحابه:"**قوموا**" فقاموا فدخل البستان الذي فيه البعير أو المكان المحاط بالجدران الذي يأوي إليه البعير في وقت راحته, وكان الجمل في ناحية, فمشى النبي ﷺ نحوه, فقال الأنصار: إنه صار مثل الذي به داء الكلب, أي أنه مسعور, وإنا نخاف صولته عليك يا رسول الله.

فقال عليه الصلاة والسلام:"**ليس علي منه بأس**" أي إني لا أخاف منه, فلما نظر الجمل إلى رسول الله ﷺ, أقبل نحوه حتى خر ساجدا بين يديه, فأخذ رسول الله بناصيته أذل ما كانت قط حتى أدخله في العمل.

فقال له أصحابه: يا رسول الله هذه ـيمة لا تعقل, تسجد لك ونحن أحق أن نسجد لك فقال ﷺ:" **لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها**".

وجاءت قصة أخرى في صحيح مسلم أن النبي ﷺ دخل يوما مع بعض أصحابه حائطا من حيطان الأنصار, فإذا جمل قد أتاه فجرجر وذرفت عيناه, فمسح رسول الله ﷺ سراته وذفراه فسكن وهدأ.

فقال ﷺ:" **من صاحب الجمل**؟"

فجاء فتى من الأنصار قال: هو لي يا رسول الله.

فقال له عليه الصلاة والسلام:" **أما تتقي الله** في **هذه البهيمة** التي **ملّكها الله**

لك؟ إنه شكا إليّ أنك تجيعه وتدئبه".

أي: إنك تواصل عليه العمل ليل نهار دون انقطاع.

هكذا كانت معجزة رسول الله ﷺ, إنها آية من آيات النبوة ومعجزة من عظيم معجزاته التي تثبت كل يوم وفي كل زمان أن رسالة محمد حق وأنه رسول الله صدقا وحقا.

الصخرة والفتح العظيم

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: عرضت لنا ونحن نقوم بحفر الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول, فاشتكينا ذلك إلى رسول الله ﷺ فجاء وأخذ المعول من سلمان الفارسي رضي الله عنه, وقال: **بسم الله** ثم ضربها فنثر ثلثها. وخرج نور أضاء بين لابتي المدينة. فقال:" **الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام, والله إني لأبصر قصورها الحمر من مكاني الساعة**".

ثم ضرب الثانية فقطع ثلثا آخر. فبرقت برقة من جهة فارس أضاءت ما بين لابتيها فقال:" **الله أكبر.. أعطيت مفاتيح فارس, والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض من مكاني هذا, أي: مدائن كسرى, وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليهم فأبشروا بالنصر**".

ثم ضرب الثالثة, وقال:" **بسم الله" قطعت بقية الصخرة وخرج نور من جهة اليمن أضاء ما بين لابتي المدينة حتى كأنه مصباح في جوف ليل مظلم فقال:" الله أكبر.. أعطيت مفاتيح اليمن, والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة**".

أعطيت مفاتيح الشام

تحدث الرسول ﷺ عن معجزات ستحدث بعد سنوات طويلة من وفاته ﷺ, ولأنه كان آخر رسول, وخاتم الأنبياء فإن معجزاته تتجدد مع الزمن.

ماذا حدث بعد أن قال هذا رسول الله ﷺ؟ هذا ما سنعرفه بعد أن نحدد تاريخ حديثه هذا عن فتح الشام, فقد قال كلمته هذه في السنة الخامسة للهجرة. في هذا الزمن بالتحديد كانت القوة في العالم يملكها فريقان هما: الفرس والروم, والروم في الغرب والفرس في الشرق, وكان الروم يحتلون بلاد الشام وما فوقها, أما الفرس

فمكا م في إيران وأجزاء من العراق, وقد وقع بينهما معارك كبرى, تمنى المسلمون أن ينتصر فيها الروم على الفرس لأن الفرس كانوا وثنيين يعبدون الشمس والأصنام والنار وغير ذلك, أما الروم فكانوا أهل كتاب فهم نصارى يدينون بدين المسيحية.

وجاءت الأنباء على غير ما يهوى المسلمون, فقد غلب الفرس الروم وحزن المسلمون حزنا شديدا ونـزل القرآن الكريم بمعجزة تنبأت بانتصار الروم بعد بضع سنين, وأخبرهم في الوقت نفسه بخبر هزيمة الروم فقال عز وجل:

الم* غلبت الروم* في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون [الروم: ١- ٣].

من الذي يستطيع أن يتنبأ بنتيجة حرب ستقع بعد تسع سنوات؟ وما الذي كان يضمن أنه خلال هذه السنوات التسع لن يحدث صلح بين الروم والفرس, فلا تقع بينهما حرب, أو تقع الحرب مرة أخرى ويهزم الروم أيضا؟ والتاريخ يقول لنا: إن الروم قد هزمت مرتين, ولكن الله تعالى هو عالم بالغيب, فبعد تسع سنين غلب الروم الفرس ألد أعدائهم وأقوى قوة على وجه الأرض معهم.

ولكي يفتح المسلمون الشام عليهم أن يهزموا الروم, ولذلك فقد أيد الله المسلمين بنصره يوم اليرموك بعد عشرات السنين من قول رسول الله ﷺ:" **أعطيت مفاتيح الشام**", وبعد سنوات بعيدة من وفاته وخروجه من الدنيا, ترى ماذا حدث يوم اليرموك؟

تجهيز الجيوش للشام

بعد الانتهاء من حروب الردة, وتسيير خالد بن الوليد من اليمامة إلى العراق في سنة ١٣ للهجرة, جهز الصديق الجيوش إلى الشام, فبعث عمرو بن العاص إلى فلسطين, وسير يزيد بن أبي سفيان إلى الشام, وأبا عبيدة بن الجراح, وشرحبيل بن حسنة, آمرا إياهم أن يتجهوا إلى الشام عن طريق تبوك البلقاء حتى بلاد الشام. الكامل في التاريخ ج٢ ص ٢٧٦.

وكان عدد كل لواء من هذه الألوية الأربعة ثلاثة آلاف, ثم توالت النجدات فيما بعد وجعل أبو بكر الصديق لكل منهم ولاية يتولاها, فصار عمرو بن العاص

واليا على فلسطين, ويزيد واليا على دمشق, وأبا عبيدة بن الجراح واليا على حمص, وشرحبيل بن حسنة واليا على الأردن.

بلغ هذا الأمر هرقل ملك الروم, وأراد إن يحارب الأمراء كل واحد على حدة حتى يهزمهم واحدا واحدا ولكن عمرو تنبه لذلك.

لقد وجد أمامه جيشا روميا يبلغ التسعين ألفا من الجنود, فأرسل أبا عبيدة بن الجراح وإخوانه الأمراء إلى أبي بكر أمير المؤمنين في المدينة, فقال أبو بكر كلمته المشهورة عن خالد: (والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد).

فأرسل أبو بكر رسالة إلى خالد بن الوليد وقال له: (سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك) ففعل خالد ذلك سريعا وعبر الجبال بجيش المسلمين ليصل المدد مبكرا لإخوانه في الشام ولما وصل خالد إلى الشام, فرح المسلمون به, وزاد جدهم ويقينهم بالنصر, واشتد غضب الروم بمجيئه, حتى اهتز ملكهم هرقل وقال عندما علم بمجيء خالد: ألم أقل لكم لا تقاتلوهم لا طاقة بكم على هؤلاء.

غضب أصحاب هرقل وقالوا له: قاتل ولا تخف الناس, واقض الذي عليك.

وأصبح الجو مهيئا للقتال, وقال قادة جيش الروم لملكهم هرقل: لقد أتتك العرب وجمعت لك جموعا عظيمة, وهم يزعمون أن نبيهم محمدا, أخبرهم أ م سينتصرون على أهل هذه البلاد, ولقد جاؤوك بأبنائهم ونسائهم تصديقا لمقالة نبيهم.

وبث الله فيهم الرعب حتى إ م أشاعوا أن خالدا في يده سيف منـزل من السماء, أعطاه له رسول الله, فلا يقاتل به قوما إلا انتصر عليهم.

واستعد الطرفان للمعركة: الروم في حيرة وارتباك ورعب مما يسمعون, والمسلمون على يقين وثقة من نصر الله لهم لأ م يتذكرون ما قاله الرسول ﷺ:" **أعطيت مفاتيح الشام**".

بلغ عدد جيش الروم مائتين وأربعين ألف مقاتل, منهم ثمانون ألفا مقيدين بالسلاسل كي لا يفروا أثناء المعركة, والمسلمون: سبعة وعشرون ألفا وجاء خالد بتسعة آلاف ليبلغوا ستة وثلاثين ألفا تقريبا.

ووقف خالد بن الوليد بين الجنود يقول لهم: (إن هذا يوم من أيام الله, لا

ينبغي فيه الفخر ولا البغي, أخلصوا جهادكم, وأريدوا الله بعملكم, فإن هذا يوم له ما بعده).

وأرسل هرقل جاسوسا من رجاله يستطلع أحوال المسلمين فعاد إليه قائلا: هم بالليل رهبان, وبالنهار فرسان, ولو سرق ابن ملكهم لقطعوا يده, ولو زنى لرجم, لإقامة الحق فيهم.

فقال القائد: لئن كنت صادقا, لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها, ولوددت أن حظي من الله أن يخلي بيننا وبينهم, فلا ينصرني عليهم, ولا ينصرهم علي.

وقسم خالد جيشه كتائب سميت كراديس, كل كردوس مجموعة ضخمة من الرجال والخيل, لكي يحارب الروم على شكل موجات هائلة لا تنتهي.

وقسم خالد بن الوليد الكراديس إلى ثلاثة أقسام هي:

القلب: وكان قائده أبو عبيدة بن الجراح وعدده ثمانية عشر كردوسا وعلى كل كردوس أمير.

الميمنة: وكان قائدها عمرو بن العاص ومعه أحد عشر كردوسا وعلى كل كردوس قائد أو أمير.

الميسرة: وكان قائدها يزيد بن أبي سفيان ومعه تسعة كراديس وعلى كل كردوس أمير.

وأمر خالد المقداد بن عمرو أن يقرأ على المسلمين سورة الأنفال لأن ا آيات الجهاد, فبدأ يقرأ ويمر بين صفوف المسلمين المتراصة الصامتة والتي تستمع إلى قول الله تعالى بإيمان شديد.

وقد شهد اليرموك ألفا من أصحاب رسول الله ﷺ فيهم نحو مائة من أهل بدر, وكان أبو سفيان يسير فيقف على الكراديس, فيقول: الله.. الله.. إنكم زادة العرب وأنصار الإسلام, وإ م زادة الروم وأنصار الشرك والكفر, اللهم إن هذا يوم من أيامك, اللهم أنـزل نصرك على عبادك.

وبينما كان خالد يرتب ويفتش بين الجنود سمع رجلا من المسلمين يقول: ما أكثر الروم وأقل المسلمين.

فقال خالد على الفور: (بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين, إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال).

هكذا بث فيهم خالد روح القتال والجهاد وجعل الخوف والقلق يتسرب إلى قلوب أعدائه من الروم.

ونشب القتال بين المسلمين والروم, والتحم الناس, وتطارد الفرسان, وبينما هم على ذلك إذ قدم البريد من المدينة المنورة, فسألوه الخبر فلم يخبرهم إلا بخير, وأخبرهم عن مدد قادم ولكن البريد جاء بخبر وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في يوم الإثنين ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣ هجرية وتأمير أبي عبيدة قائدا على جيش المسلمين, فأبلغ الأمر خالدا, وأخبره بوفاة أبي بكر, وأخبره بأن الجند لم تخبر بعد, فقال خالد (أحسنت فقف) وأخذ الكتاب وجعله مخفيا حتى لا يشعر به الجنود, فيصيبهم قلق.

كان القتال عنيفا, وظل على هذه الحال حتى تضعضع الروم وسارع خالد بقلب الجيش, حتى كان بين خيلهم وجنودهم وكان جنود الروم لا يدرون ما العمل, فمكان القتال واسع للمطاردة, ضيق في الهروب, وهربت خيلهم في الصحراء, وتفرقت في البلاد, بينما قضى خالد وجنوده على جنودهم الذين هربوا وتراجعوا إلى خنادقهم, ولكن خالد لم يتركهم فاقتحم عليهم خنادقهم, وبايع عكرمة بن أبي جهل على الموت مع أربعمائة فارس منهم ضرار بن الأزور وقاتلوا وقتل منهم رجال فاستشهدوا وجرح آخرون, وانتهت المعركة بالنصر والاستشهاد لثلاثة آلاف من المسلمين منهم عكرمة وابنه وغيرهم.

وفتحت الشام, وتحققت المعجزة النبوية الشريفة التي جاءت على لسانه -عليه الصلاة والسلام:" **أوتيت مفاتيح الشام**" وأبصر المسلمون قصورها الحمر كما أبصرها الرسول عند الصخرة, أما مفاتيح فارس فلنذهب إليها.

مفاتيح فارس

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس, والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض من مكاني هذا, وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليهم فأبشروا**

بالنصر".

أطلقت هذه المعجزة على لسان رسول الله ﷺ في السنة الخامسة من الهجرة, وتحققت في سنة ستة عشر للهجرة, أي بعد إحدى عشرة سنة من قوله عليه الصلاة والسلام, ولكن كيف حدثت المعجزة العظيمة وهي دخول جيش المسلمين عاصمة أكبر قوة في العالم وقتها مع الروم الذين هزموا في اليرموك بالشام, إ ا المدائن عاصمة كسرى ملك الفرس, وما كان أحد يظن أن يعبر المسلمون أ ارا لكي يفتحوا المدائن, ولكن عقيدة المسلمين كانت متأكدة من ذلك لقول رسول الله ﷺ:" **إن أمتي ظاهرة عليهم**" وبشرهم بالنصر قائلا:" **فأبشروا بالنصر**".

وبدأت إرهاصات تحقيق هذه المعجزة بعد فتح سعد بن أبي وقاص بلدا يقال لها رسير بالقرب من بغداد, وبعد أن دخل سعد بن أبي وقاص رسير طلب السفن ليعبر بالناس إلى المدائن, فلم يقدر على شيء, ووجدهم قد ضموا السفن, فأقام ببهرسير أياما, حتى جاءه رجال من كفار الفرس, فدلوه على مخاضة يعبر من خلالها النهر ولكنه أبى وتردد في ذلك.

ورأى سعد بن أبي وقاص رؤيا أن خيول المسلمين اقتحمتها, فعبرت, فعزم على العبور لتأويل رؤياه, وجمع الناس وخطب فيهم فقال لهم بعد أن حمد الله وأثنى عليه: إن عدوكم قد اعتصم منكم في البحر, فلا تخلصون إليه, وهم يصلون إليكم إذا شاؤوا, فيناوشونكم في سفنهم, وليس وراءكم شيء تخافون منه, وقد رأيت من الرأي أن تبادروا جهاد العدو بنيتكم قبل أن تحصركم الدنيا, إلا أني قد عزمت على قطع وعبور هذا البحر إليهم.

فقالوا جميعا: نعبر معك فافعل ما شئت.

فدعا الناس للعبور ثم قال:

من يبدأ منكم ويحمي لنا الشاطئ لكي لا يمنعونا من العبور؟

فخف إليه وأسرع عاصم بن عمرو وهو بطل من أبطال المسلمين وجاء وراءه ستمائة رجل من أهل النجدات, فجعل عليهم عاصم أميرا, فسار م حتى وقف على شاطئ دجلة.

وعندئذ قال سعد: من يجيء معي لنمنع الشاطئ ونحميه من عدوكم ونحميكم

حتى تعبروا؟

فخف إليه أسرع ستين بطلا, فتقدمهم سعد إلى حافة النهر وهو يقول باسما لمن تردد حوله: أتخافون؟! ثم تلا قول الله عز وجل: **وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا** [آل عمران: ١٤٥].

ثم رفع سعد بن أبي وقاص فرسه فاقتحم النهر, واقتحم إخوانه معه.

فلما رآهم الفرس وما صنعوا, جهزوا للخيل التي تقدمت خيلا مثلها, واقتحموا عليهم دجلة, ثم اقتربوا من عاصم بعدما اقترب من شاطئهم؛ فقال عاصم لأصحابه: الرماح الرماح! اشرعوها, واضربوهم من عيو م, فطعن المسلمون الفرس في أعينهم, فمن لم يقتل منهم أصيب في عينيه, وتزلزلت م خيولهم, حتى فرت عن الشاطئ. وصعد الستون على الشاطئ الآخر شاطئ الفرس وتلاحق خلفهم بقية الستمائة من كتيبة عاصم بن عمرو.

ولما رأى سعد بن أبي وقاص أن عاصما على الشاطئ قد حماها ومنع الناس من أذى الفرس أذن للناس في اقتحام النهر وقال: قولوا: نستعين بالله ونتوكل عليه؛ حسبنا الله ونعم الوكيل, ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وتلاحق معظم الجند, وركبوا الموج, وقد هاج النهر وماج والناس يتحدثون وهم عائمون على الخيل لا يكترثون ولا يهتمون بشيء, كما يتحدثون ويتسامرون في مسيرهم على الأرض وكان سعد بن أبي وقاص وراءهم يسايره في الماء سلمان الفارسي, فعامت م الخيل, وسعد يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل! والله لينصرن وليه, وليظهرن دينه, وليهزمن عدوه.

هذه الكلمات التي قالها الرسول في بشراه المعجزة بأنه أعطي مفاتيح فارس.

ومضى سعد يقول وهو في الماء: وليهزمن الله عدوه, إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات.

فقال له سلمان الفارسي: ذللت لهم والله البحور كما ذلل لهم البر, أما والذي نفس سلمان بيده ليخرجن منه أفواجا كما دخلوه أفواجا.

وملأ فرسان المسلمين ر دجلة خيلا ورجالا حتى ما يرى الماء من الشاطئ أحد, ثم خرجوا من الماء, والخيل تنفض أعرافها صاهلة بالنصر, فلما رأى الفرس

ذلك انطلقوا لا ينظرون خلفهم فرارا من المسلمين, وظل المسلمون يطاردو م حتى وصلوا إلى القصر الأبيض في المدائن, وهو قصر ملكهم, وقد وجدوا فيه قوما وجنودا قد تحصنوا يريدون القتال فعرض عليهم المسلمون ثلاثة حلول, يختارون منها أيها شاؤوا قالوا: وما هي؟ فقال لهم المسلمون:

١. الإسلام, فإن أسلمتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا.

٢. الجزية.

٣. وإن أبيتم فالحرب والقتال.

فقالوا: لا حاجة لنا في الأولى ولا في الآخرة ولكن الوسطى وهي الجزية.

ودخل سعد بن أبي وقاص المدائن, عاصمة كسرى والفرس وآخر معاقلهم, وانتهى به الأمر إلى إيوان كسرى ونظر سعد لضخامته وما فيه من فرش ومجوهرات, وأقبل ينظر في محتويات الإيوان والقصر وهو يقرأ قول الله تعالى:

كم تركوا من جنات وعيون* وزروع ومقام كريم* ونعمة كانوا فيها فاكهين* كذلك وأورثناها قوما آخرين [الدخان: ٢٥- ٢٨].

وصلى سعد في القصر صلاة الصبح ثماني ركعات, لم يفصل بينهن, واتخذ الإيوان مسجدا وجعله مصلى للمسلمين, وكان فيه تماثيل من الجص, ولم يلقها المسلمون, وتركوها على حالها, وأتم الصلاة في المدائن, إذ نوى سعد الإقامة ا, وكانت أول جمعة له فيها في صفر سنة ست عشرة.

وتحقق قول رسول الله ﷺ ومعجزته التي قال فيها:" **الله أكبر.. أعطيت مفاتيح فارس والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض من مكاني هذا**", وتحققت المعجزة.

أما صنعاء..

أعطيت مفاتيح اليمن

قال رسول الله ﷺ:" الله أكبر.. أعطيت مفاتيح اليمن والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا".

رأى الرسول -عليه الصلاة والسلام- في ضربته الثالثة أبواب صنعاء من

الخندق في المدينة, وكانت معجزة تحققت في سنة ١١ هجرية بعد ست سنوات من قول الرسول.

ولكن كيف تحققت المعجزة؟ هذا ما سنراه في يوم صنعاء.

كانت صنعاء عاصمة اليمن, يحكمها رجل يقال له قيس بن عبد يغوث ويحتلها الفرس.

وكان "باذان" أميرا من قبل الفرس على اليمن, ولكنه لما أسلم أسلمت اليمن فأقره الرسول ﷺ على إمارة اليمن حتى مات, فلما مات رسول الله ﷺ جعل ابنه شهرا واليا على صنعاء, وجعل معاذ بن جبل معلما ينتقل من كل ولاية من هذه الولايات بعد أن جعل لكل واحدة منها واليا.

وحدث قبل وفاة النبي ﷺ أن قام رجل من قبيلة عنس بن قحطان, اسمه الأسود العنسي, وكان كاهنا, فتنبأ, وقال: إنني أنا نبي, وتابعه قوم من أعراب اليمن, فقوي واشتد بهم ساعده, واقتحم بهم بلاد نجران في الجزيرة العربية, وأصبحت نجران تحت قيادته, ودخل في جماعته قبيلة من كهلان تسمى مذحج, وكثر ماله, واشتد أمره, ثم قصد صنعاء في اليمن, فقاتل أميرها شهرا كاملا فقتله, وهزم قوما من العجم كانوا فيها يسمون الأبناء, ثم تزوج بامرأة شهر بن باذان, وجعل أمره يشتهر بين الناس شهرة عظيمة, وصار لا يصل إلى قوم إلا انضموا إليه خوفا منه على أنفسهم وأولادهم.

وكتب آمر الولايات للرسول ﷺ بشأن الأسود العنسي وما يصنع بالناس هناك, فأرسل عليه الصلاة والسلام كتابا إلى من بصنعاء, يأمرهم فيه بالقيام على دينهم, والتمسك به, والنهوض إلى الحرب, ومواجهة الأسود العنسي بكل الطرق كي يتخلصوا من شروره.

عمل القوم بأمر رسول الله, ولكنهم وجدوا أن الأمر صعب عليهم, لأن الأسود العنسي قوي ولديه جنود يبطشون بالناس.

وبينما هم على هذه الحال علموا أن الأسود العنسي قد تغير على قائد جيشه وهو قيس بن عبد يغوث, وأضمر له الشر, ولكن قيسا دافع عن نفسه أمامه وقال له: أنت أعظم من نفسي وأجل عندي من أن أحدث نفسي بك, فعفا عنه وقال له:

قبلت توبتك.

انتهز الأبناء من أتباع المسلمين الفرصة ودعوا قيسا للفتك به فلبى ووافق, وذهبوا إلى زوجته التي تزوجها بعد قتل زوجها شهر بن باذان, فتعاونت معهم وقالت: والله ما خلق الله شخصا أبغض إليّ منه, ما يقوم لله على حق ويظلم الناس, فإذا عزمتم فأعلموني الخبر.

ولما جاء كتاب رسول الله ﷺ إليهم, ووصل كتابه إلى أهل نجران, فتجمعوا وأرادوا قتال الأسود العنسي, ولكنهم فوجئوا بقتله في قصره بمساعدة زوجته, وما أن طلع الفجرحتى أعلنوا أمرهم, وفر أصحابه, وجعلوا يترددون بين صنعاء ونجران, وذهب الخبر إلى المدينة, وقد توفي رسول الله, ورغم أن قيس بن عبد يغوث رئيس جند الأسود العنسي ساهم في قتله, إلا أنه عاد إلى الارتداد عن الإسلام, وجمع جنود الأسود العنسي الهاربين, وأراد أن يقتل رؤساء الأبناء المسلمين, ولكنه لم يستطع, وسيطر على صنعاء, وطرد منهم أتباع المسلمين من العجم.

وانضمت إليه عوام القبائل من منطقة حمير, واطمأن بصنعاء كما كان الأسود العنسي مطمئنا ا.

ولكن الأبناء من العجم المسلمين, استنهضوا أنفسهم, والقبائل التي بقيت على الإسلام, وخرج فيروز على رأسهم, فحارب قيسا عند صنعاء وأجلاه عنها, وخرج هاربا في جنده حتى وصل إلى المكان الذي قتل فيه الأسود العنسي, وجاء جيش المسلمين من المدينة بقيادة المهاجر بن أمية, وخلفه عكرمة بن أبي جهل بجيشه أيضا وهزم الله المرتدين, وأسر قيسا وعمرو بن معديكرب وأخذهما المسلمون إلى المدينة فتابا وعفا عنهما أبو بكر وعادا إلى قومهما مؤمنين, وأعطى الله مفاتيح اليمن للمسلمين وتحققت المعجزة التي نبأ ا رسول الله ﷺ.

معجزات الطعام والشراب

قدح اللبن وأبوهريرة

كان أبو هريرة صاحب رسول الله ﷺ وكان من أهل الصفّة وهم فقراء ليس

لهم مال ولا أهل ولاجاه, ويحكي أبو هريرة هذه المعجزة فيقول: والله أني كنت أشعر بالجوع الشديد, وكنت أضع الحجر على بطني من الجوع, ولقد قعدت يوما على طريقهم الذي يخرجون منه فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله عز وجل, وما سألته إلا ليطلب مني أن أتبعه إلى داره فيطعمني, فلم يفعل أبو بكر, فمر عمر ﷺ فسألته عن آية من كتاب الله تعالى وما سألته إلا ليطلب مني أن أتبعه إلى داره فيطعمني, فلم يفعل, ومر الرسول عليه الصلاة والسلام, فعرف ما في وجهي, وتبين له ما في نفسي فقال:"**يا أبا هريرة**" قلت: لبيك يا رسول الله فقال:" **الحق**" فلحقت به وعند داره استأذنت فأذن فوجدت لبنا في قدح, فقال الرسول ﷺ: **من أين لكم هذا اللبن**؟"

فقالوا: أهداه لنا فلان أو آل فلان, قال الرسول ينادي أبا هريرة: "**أبا هر**".

قلت: لبيك يا رسول الله.

قال:"**انطلق إلى أهل الصفة فادعهم** لي".

فقال أبو هريرة: وأهل الصفة هم أضياف الإسلام لم يأووا إلى أهل, ولا مال, فإذا جاءت هدية إلى رسول الله ﷺ أخذ منها وبعث إليهم منها, وأحزنني ذلك وكنت أرجو أن أشرب من اللبن على الفور شربة أتقوى ا بقية يومي وليلتي, وقلت: أنا الرسول المرسل إليهم من الرسول ﷺ فإذا جاء القوم كنت أنا الذي أعطيهم, وقلت: ما يبقى من هذا اللبن بعد أن يشربوا معظمه إن لم يكن كله؟

هكذا كان الجوع يتملك من أبي هريرة حتى أنه خشي أن لا يجد من قدح اللبن هذا ما يكفيه شربة واحدة إذ سيشاركه فيه أهل الصفة وهوعدد لا بأس به.

قال أبو هريرة: ولم يكن أمامي شيء غير طاعة الله ورسوله, فانطلقت إلى أهل الصفّة فدعو م فأقبلوا واستأذنوا فأخذوا مجالسهم من البيت, بيت رسول الله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ:"**يا أبا هريرة خذ قدح اللبن فأعطهم**" فأخذت القدح فجعلت أعطيهم فيأخذ الرجل القدح فيشرب حتى يروى, ثم يرد القدح بعد أن يروى حتى وصلت إلى آخرهم, ثم توجهت إلى رسول الله ﷺ ودفعت إليه فأخذ قدح اللبن بيده وقد بقي قليل من فضلة ثم رفع رسول الله ﷺ رأسه ونظر إلى أبي

هريرة وابتسم, وقال: "**أبا هريرة**".

فقال أبوهريرة: لبيك يا رسول الله.

قال عليه الصلاة والسلام: "**بقيت أنا وأنت**".

فقال أبو هريرة: صدقت يا رسول الله.

قال عليه الصلاة والسلام:"**فاقعد واشرب**".

جلس أبو هريرة وأمسك بقدح اللبن, فشرب, وكلما رفع أبو هريرة القدح عن فمه قال له رسول الله ﷺ:"اشرب" فيشرب أبو هريرة وكلما رفع القدح أعاده له رسول الله ﷺ قائلا:" **اشرب**" وظل يقول له:" **اشرب اشرب**" حتى ارتوى أبو هريرة رضي الله عنه تماما وذهب عن نفسه الجوع الذي أصابه بألم شديد في أمعائه وقال له رسول الله ﷺ:" **اشرب يا أبا هريرة" فقال أبو هريرة: لا والذي بعثك بالحق ما أجد له فيّ مسلكا, قال:" ناولوني القدح**".

فأعطى أبو هريرة القدح لرسول الله ﷺ, وهي آية النبوة المحمدية, إذ أن قدحا من اللبن لا يكاد يروي رجلا أو غلاما صغيرا, أصبح في يد رسول الله ﷺ يروي جماعة من الناس كلهم أصا م الجوع.

إ ا معجزة من معجزاته ﷺ, ثم يأتي الأدب النبوي فينتظر صلواته وسلامه عليه أن يشرب الجميع فيشرب هو من القدح.

إناء السمن يمتلئ بعد فراغه

كان أنس بن مالك خادما مطيعا لرسول الله ﷺ وكانت أمه أم سليم رضوان الله عليها صحابية قريبة من بيت رسول الله ﷺ تأخذ منه الطعام إن كان في وفرة وإن توفر لها ترسل هذا الطعام إلى بيت رسول الله.

ويحكي أنس بن مالك قصة بل هي معجزة حسية رآها بنفسه فقال: كانت لأمي أم سليم شاة فظلت تحلبها وتجمع منها السمن حتى جمعت من سمنها عكة أو إناء فملأت الإناء ثم بعثت به ربيبة لها أو خادمة فقالت: يا ربيبة اذهبي إلى رسول الله ﷺ ذا الإناء أو هذه العكة يأكل منها, فانطلقت ا ربيبة حتى أتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله هذه العكة أو هذا الإناء مليء بالسمن بعثت ا إليك أم

سليم.

فقال عليه الصلاة والسلام: "**افرغوا لها عكتها**" أي أفرغوا هذا الإناء, فأفرغت العكة من السمن, وأعيدت إلى ربيبة فارغة فانطلقت بها عائدة إلى دار أم سليم ولم تكن أم سليم في دارها, فعلقت ربيبة الإناء أو العكة في وتد في الحائط ولما جاءت أم سليم وجدت العكة أو الإناء قد امتلأت إلى آخرها وبدأت تقطر بالسمن الذي فاض منها فقالت أم سليم: يا ربيبة أليس أمرتك أن تنطلقي بها إلى رسول الله؟ ألم أقل لك اذهبي بها إلى رسول الله ﷺ؟

قالت ربيبة: بلى فعلت وإن لم تصدقيني فسلي رسول الله ﷺ.

استغربت أم سليم الأمر, واصطحبت ربيبة معها وانطلقت إلى رسول الله ﷺ حيث يجلس, ولما بلغت رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله، إني بعثت مع ربيبة عكة مملوءة بالسمن فهل جاءت بها؟

فقال رسول الله ﷺ على الفور:" **قد فعلت قد جاءت**".

قالت أم سليم: والذي بعثك بالحق, ودين الحق إنها ممتلئة بالسمن والسمن يقطر منها.

فقال أنس بن مالك صاحب الرواية: فقال رسول الله ﷺ:" **يا أم سليم أتعجبين إن كان الله أطعمك كما أطعمت نبيه, كلي وأطعمي**".

عادت أم سليم إلى دارها, فقسمت الإناء حتى لا يقطر سمنا وتركت فيه ما أكل منه دارها شهرا أو شهرين.

وهذه معجزة أخرى من المعجزات المحمدية, لأنها لم تحدث للبشر كما حدثت لرسول الله ﷺ. الإناء يمتلئ سمنا بعد إفراغه ويبارك الله فيه.

الطعام القليل يشبع الكثير من الناس

كان أبو طلحة الأنصاري من أكثر الصحابة حظا في إسلامه, فتزوج مسلمة سبقته في الإسلام, ودعته للزواج منها وكان مهر أم سليم من أغلى المهور لو علم الناس قيمته, إذ أنه تقدم للزواج من أم سليم ولم يدخل الإسلام بعد, فقالت أم سليم: مهري إسلامك, أي دخولك في الإسلام. وأسلم أبو طلحة ودخل الإسلام

وحسن إسلامه وتزوج أم سليم وأحسن معاشر ا ومعاملتها فعاشا في هناء في ظل ازدهار دعوة الحق في المدينة, ويروي أنس بن مالك ﵁ قصة جميلة هي بحق معجزة من معجزات النبي ﷺ.

قال أنس: قال أبو طلحة لأم سليم: لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفا أعرف فيه الجوع, فهل عندك شيء؟

لقد أحس أبو طلحة أن الرسول ﷺ جائع وعرف ذلك من صوته.

قالت أم سليم: نعم. وبدأت تعد أقراصا من خبز الشعير ثم لفت الخبز ساخنا في خمار لها, ثم أعطت أم سليم الخبز لأنس خادم النبي ﷺ وأرسلته به إلى النبي عليه الصلاة والسلام.

ذهب أنس بن مالك إلى رسول الله ﷺ في المسجد ومعه الناس, فلما دخل أنس قال رسول الله ﷺ:

أرسلك أبو طلحة؟

فقال أنس: نعم يا رسول الله.

فقال عليه الصلاة والسلام لمن معه من الناس:" **قوموا**" وانطلق رسول الله مع أصحابه إلى دار أبي طلحة الأنصاري, فلما رآهم أبو طلحة قال:

يا أم سليم قد جاء رسول الله ﷺ والناس وليس عندنا ما نطعمهم فقالت: الله ورسوله أعلم, فلما أقبل رسول الله ﷺ قال:" **هلم يا أم سليم ما عندك**؟" فأتت بذلك الخبز, فأمر رسول الله ﷺ أن يفتت الخبز, ففتت أم سليم الخبز في عكة ووضعت عليه السمن ثم قال رسول الله ﷺ ما شاء أن يقول ثم قال:

"**ائذن لعشرة" أي عشرة رجال.**

فأذن لعشرة من الرجال فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا.

ثم قال:" **ائذن لعشرة**".

فأذن لعشرة من الرجال فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا.

ثم قال:" **ائذن لعشرة**".

فأذن لعشرة من الرجال فأكلوا حتى شبعوا, وظل على هذه الحال حتى أكل القوم جميعا, وكانوا سبعين أو ثمانين رجلا.

أليست هذه معجزة عظيمة من معجزات النبي ﷺ؟

بلى وربي إ ا معجزة عظيمة بحق, فمن عدد قليل من الخبز يطعم ثمانون رجلا ويشبع كل واحد منهم شبعا كاملا, هكذا كانت معجزات النبي ﷺ واحدة تلو الأخرى.

كثرة الطعام

تكررت وتعددت معجزات تكثير الطعام والشراب, فبلغت عشرات المرات, في ظروف مختلفة ومواقف مختلفة, ومناسبات عديدة لكل مناسبة وقتها وظروفها. ومما روى أبو هريرة عن شيء من هذه المعجزات, ما حدث في تبوك, وغزوة تبوك كلنا يعرف أ ا كانت مشقة وعسرة, فقد خرج الرسول ﷺ والمسلمون في جو شديد الحر, ومشوا في طريق وعر بين الجبال والصخور, حتى إنه صلوات الله وسلامه عليه كان لا يجد ما يكفي من الإبل ما يحمل عليه رجاله وجنوده, ورغم تبرع عثمان بن عفان وأهل الخير والكرم من المسلمين إلا أن ذخيرة الجيش الإسلامي وزاده من الطعام كانت قليلة لأبعد حد يتخيله الإنسان.

فقد قال أبو هريرة: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة غزاها (وهي غزوة تبوك) فنفذ زاد المسلمين واحتاجوا إلى الطعام, ولم يكن أمامهم سوى الإبل والجمال التي يركبوها, فاستأذنوا رسول الله ﷺ في نحر الإبل وذبحها ليأكلوا منها, فأذن لهم ﷺ, لما وجدهم في حاجة شديدة إلى الطعام.

وقد بلغ هذا الخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاعترض على هذا الأمر لما فيه من أذى للمسلمين ولعلمه بوعورة الطريق وبعده عن المدينة مما يجعل العودة شاقة بل مستحيلة وتعرض المسلمين وحيا م للخطر لو قطعوا هذه المسافة مشيا على الأقدام بعد قتال وجهاد ضد الكفار في تبوك.

فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إبلهم التي تحملهم وتبلغهم عدوهم ينحرو ا؟

أي أن هذا الأمر يحتاج إلى إعادة النظر, ووضع عمر رضي الله عنه حلا أمام رسول الله ﷺ وقال: ادع الله على بقايا الطعام, ادع الله عز وجل فيها بالبركة.

فقال رسول الله ﷺ:" **أجل يا عمر**" ودعا ببقايا الطعام فجاء الناس بما بقي معهم فجمعت ثم دعا رسول الله ﷺ ربه أن يبارك فيها ودعاهم بأوعيتهم فملأوها بزاد وطعام كثير فقال رسول الله ﷺ:" **أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أني عبد الله ورسوله ومن لقي الله عز وجل ا غير شاك دخل الجنة**".

نعجة أم معبد

خرج رسول الله ﷺ مهاجرا من مكة إلى المدينة, بعدما أذن الله سبحانه وتعالى له بالهجرة, فلما قال الرسول لأبي بكر ﷺ في داره:" **إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة**" قال أبو بكر (الصحبة يا رسول الله) فقال عليه الصلاة والسلام:" **الصحبة**" خرج الرسول من خوخة في بيت ظهر أبي بكر إلى أن وصلا غار حراء وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما ارا ثم يأتيهما مساء بما كان في ذلك اليوم من الخبر, كما أمر أبو بكر عامر بن فهيرة مولى أبي بكر وراعي غنمه أن يرعى غنمه ارا ثم يريحها عليهما مساء, ليسقيهما من لبنها, وإذا جاءهما عبد الله أو أخته أسماء بطعام اتبع عامر بن فهيرة أثرهما بالغنم حتى يختفي أثرهما ولا يتبعهما أحد فيعرف مكان الرسول وأبي بكر الصديق في الغار, غار حراء.

وأقام الرسول ﷺ مع أبي بكر ثلاثة أيام, وطلبهما المشركون طوال الثلاثة الأيام, ولما مضت ثلاثة أيام, وسكن الناس عنهما, ويئسوا من العثور عليهما, أتاهما عبد الله بن أريقط الذي استأجراه بالراحلتين, فقدم أبو بكر لرسول الله ﷺ أفضلهما, وقال: (اركب فداك أبي وأمي), ومضى الصديقان الرسول ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه في طريقهما المبارك إلى المدينة.

وفي الطريق مروا بخيمة أم معبد, وهي عاتكة بنت خالد من قبيلة خزاعة. مر الرسول ﷺ على خيمتها ومعه أبو بكر, وكانت امرأة تجلس في خيمتها, تختبئ في قبة الخيمة, ثم تسقي وتطعم المارة, فسألها الرسول وصاحبه لحما وتمرا يشترونه منها, فلم يجدا عندها شيئا, وكان الرسول وصاحبه يشعران بجوع شديد فنظر الرسول ﷺ فوجد شاة بالقرب من الخيمة, فقال عليه الصلاة والسلام:" **ما هذه الشاة يا أم معبد**؟" قالت: شاة أو نعجة خلفها الجهد والمرض عن الغنم, فقال:" **هل ا لبن؟**"

قالت: هي أضعف من أن تدر لبنا.

قال عليه الصلاة والسلام:" **أتأذنين** لي **أن أحلبها**؟".

قالت متعجبة: بأبي أنت وأمي**!** إن رأيت ا حلبا فاحلبها.

فدعا ا رسول الله ﷺ فمسح بيده على ضرعها, فسمى الله تعالى, ودعا لها في شأ ا, فامتلأ ضرعها ودرت واجترت, وطلب الرسول ﷺ بإناء يشرب فيه هو وأصحابه, فحلب فيه حتى امتلأ عن آخره, فشرب الجميع حتى أم معبد, وشرب الرسول وأصحابه من اللبن حتى رووا, ثم استراحوا وشربوا لبنا أيضا, ثم حلب الرسول في الإناء مرة أخرى حتى ملأه عن آخره, وتركه مليئا باللبن عندها, وقبل أن يغادر المكان عليه السلام, بايعها على الإسلام.

هكذا كانت شاة أم معبد الضعيفة ا لهدة معجزة لأ ا سقت كل هذا الجمع بعد أن مسح عليه الصلاة والسلام على ضرعها ودعا ربه فسقى أصحابه وشرب هو وترك عندها لبنا.

ولما جاء زوجها يسوق أغناما عجافا ضعيفة, رأى عندها لبنا فتعجب وقال: من أين لك هذا يا أم معبد, والشاة عازب حيال, ولا حلوب في البيت؟

قالت: لا والله, إلا أنه مر بنا رجل مبارك, من حاله كذا وكذا.

فقال زوجها: صفيه يا أم معبد, فوصفته له وصفا دقيقا في كلام طويل.

قال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش, الذي ذكر لنا من أمره في مكة.

سدرة المنتهى

قال تعالى: ثم **دنا فتدلى* فكان قاب قوسين أو أدنى* فأوحى إلى عبده ما أوحى* ما كذب الفؤاد ما رأى* أفتمارونه على ما يرى* ولقد رءاه نـزلة أخرى* عند سدرة المنتهى* عندها جنة المأوى* إذ يغشى السدرة ما يغشى* ما زاغ البصر وما طغى* لقد رأى من آيات ربه الكبرى** [النجم: ٨- ١٨].

السدرة

السدرة هي شجرة نبق عظيمة هائلة, لم تكن على الأرض ولكنها كانت في

السماء, بعد السماء السابعة, وهي أكبر من أي شجرة ضخمة رأيتها في الدنيا ملايين المرات, والسدرة شجرة ينتهي إليها كل ما يصعد على الأرض من أعمال الناس والأرواح, ثم يقبض أو يؤخذ من عندها, وينتهي إليها كل ما يهبط من أعلى فيؤخذ منها.

بعد أن عرفنا السدرة, وعرفنا أن الرسول ﷺ قد رأى في رحلة الإسراء ما رأى في السماء السابعة, بعد هذا كله صعد به جبريل إلى ما بعد السماء السابعة, صعد به إلى معجزة عظيمة, اتجه إلى سدرة المنتهى, وقبل أن يصل رسول الله ﷺ إلى السدرة رأى نهرا صافيا جميلا نصبت عليه خيام مرصعة باللؤلؤ والياقوت وعلى حافتيه طيور جميلة خضراء عليها نضرة النعيم, فقال عليه الصلاة والسلام:

"**يا جبريل إن هذا الطير لناعم**".

قال جبريل: يا محمد إن الذي يأكل هذا الطير أنعم منه.

ثم قال جبريل: يا محمد؛ أتدري أي نهر هذا؟

فقال عليه الصلاة والسلام: "**لا**".

قال جبريل: هذا نهر الكوثر الذي أعطاك الله إياه.

ثم رأى رسول الله ﷺ نهرا آخر يسمى نهر الرحمة فاغتسل فيه, فغفر الله له ما تقدم من ذنبه, وما تأخر ثم رفع رسول الله ﷺ إلى الجنة, ورأى الرسول ﷺ بها أنهارا من ماء صاف جميل, وأنهارا من لبن لم يتغير طعمه, وأنهارا من عسل مصفى.

وقال عليه الصلاة والسلام:" **إن الله تعالى أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**".

وخرج النبي عليه الصلاة والسلام من الجنة, فلقيه ملك, فرحب به كما رحبت به الملائكة من قبل, ولكنه كان عابسا لم يبتسم له كما ابتسمت الملائكة, فعجب عليه الصلاة والسلام وقال:

" **يا جبريل من هذا الملك, الذي قال لي مثلما قالت الملائكة, ولم يضحك, ولم أر منه من البشر مثل الذي رأيت منهم**".

فقال جبريل: هذا مالك خازن النار.. أما إنه لو ضحك إلى أحد من قبلك, أو كان ضاحكا إلى أحد من بعدك لضحك إليك, ولكنه لا يضحك.

فقال عليه الصلاة والسلام لجبريل:" **ألا تأمره أن يريني النار**؟"

فقال جبريل: بلى.

ثم نادى جبريل مالكا فقال له: أر محمدا النار.

فكشف مالك عن النار غطاءها ففارت.. وارتفعت, حتى ظن الرسول أ ا ستأتي على كل ما يرى, فيها غضب الله ونقمته, لو وضعت فيها الحديد والحجارة لأكلتها.

فقال عليه الصلاة والسلام:"**يا جبريل مره ليردها إلى مكا ا**" فأمر جبريل عليه السلام مالكا أن يردها.

فقال مالك للنار: أخبي؛ فرجعت النار إلى مكا ا الذي خرجت منه, ورد عليها غطاءها.

ومالك: هو رئيس الملائكة القائمين على النار والعذاب يوم القيامة وقد ذكر اسمه في القرآن لقوله تعالى:

ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك, قال إنكم ماكثون [الزخرف: ٧٧].

وقد مرت برسول الله ﷺ رائحة طيبة فقال لجبريل:

"**ما هذه الرائحة**".

قال جبريل: هذه رائحة ماشطة بنت فرعون وأولادها!! كان من أخبارها في الدنيا أن سقط من يدها المشط الذي تمشط به شعر بنت فرعون فمالت على المشط وأخذته وقالت: باسم الله..

فقالت بنت فرعون: من الله هذا؟ أهو أبي فرعون؟

قالت الماشطة: لا.. إنه ربي, وربك, ورب أبيك.

قالت بنت فرعون: أولك رب غير أبي فرعون؟!

قالت الماشطة: نعم, ربي, وربك ورب أبيك.. الله عز وجل.

وبلغ الخبر فرعون, فدعاها, فقال لها: أو لك رب غيري؟!

قالت: نعم.. ربي وربك الله عز وجل, فغضب فرعون, وأمر بنار عظيمة, فأوقدت, فألقى فيها أولادها ما عدا طفلا رضيعا, فأمرها فرعون, أن تقذف بنفسها في النار, فتقاعست قليلا من أجل ولدها الرضيع, فناداها الرضيع قائلا: يا أمه! قعي

ولا تقاعسي فإنك على الحق, أي: ادخلي ولا تخافي.. فانطلقت الماشطة الأم إلى النار فأحرقتها, وتلك الرائحة الطيبة رائحتها في الآخرة.

ووصل الرسول ﷺ سدرة المنتهى, فإذا به يرى مفاجأة, فقد رأى جبريل على حقيقته, رأى السدرة وقد ملأها من نور الله الخلاق عز وجل ما يحير العقل ويدهشه من العجب والجمال..

وسمع من جبريل عليه السلام مفاجأة, قال له جبريل:

يا محمد, في مثل هذا المقام يترك الصاحب إلى صاحبه؛ الخليل إلى خليله, والحبيب إلى حبيبه.

قال جبريل: إلى هنا ينتهي عروجي, لا أستطيع التقدم ولو تقدمت بعد ذلك قيد شعرة لاحترقت, فتقدم أنت إلى خليلك وحبيبك, فما منا إلا له مقام معلوم.

ووجد الرسول ﷺ نفسه يسمو في عالم النور القدسي حتى صار من الله الخلاق عز وجل كما جاء في القرآن الكريم قريبا جدا, قال عز وجل:

ثم **دنا فتدلى* فكان قاب قوسين أو أدنى** .

ولما اقترب الرسول ﷺ من الله عز وجل فكلمه الله عند ذلك فقال له: "**سل**"..

فقال محمد ﷺ:" **إنك اتخذت إبراهيم خليلا, وكلمت موسى تكليما, وأعطيت داود ملكا عظيما, وألنت له الحديد وسخرت له الجبال. وأعطيت سليمان ملكا, وسخرت له الجن والإنس والشياطين, وسخرت له الرياح, وجعلت له ملكا لا ينبغي لأحد من بعده.**

علمت عيسى التوراة والإنجيل, وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص, ويحيى الموتى بإذنك, وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم, فلم يكن للشيطان عليهما سبيل".

فقال له الرب عز وجل:" **وقد اتخذتك خليلا, وأرسلتك للناس كافة وبشيرا ونذيرا, وشرحت لك صدرك, ووضعت عنك وزرك الذي أنقض ظهرك.. وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس وأعطيتك سبعا من المثاني لم يعطها نبي قبلك, وأعطيتك ر الكوثر, وأعطيتك ثمانية أسهم هي: الإسلام, والهجرة,**

والجهاد, والصلاة, والصدقة, وصوم رمضان, والأمر بالمعروف, والنهي عن المنكر, وجعلتك فاتحا, وخاتما للمرسلين".

فقال رسول الله ﷺ:" **فضلني ربي بست: أعطاني فواتح الكلام وخواتيمه وجوامع الحديث, وأرسلني إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا, وقذف في قلوب أعدائي الرعب من مسيرة شهر, وأحلت لي الغنائم, ولم تحل لأحد قبلي, وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا**".

ومن خلال هذه المعجزة العظيمة الصعود إلى السماء والوصول إلى سدرة المنتهى, فرض الله سبحانه حينئذ على محمد ﷺ وعلى أمته خمسين صلاة في اليوم والليلة, ولما أوحى الله إلى عبده ما أوحى رجع فلقيه موسى عليه السلام حيث هو في السماء السادسة فقال: بم أمرت يا محمد؟

قال عليه الصلاة والسلام:" **بخمسين صلاة**".

قال موسى: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف؛ فقد لقيت من بني إسرائيل شدة.

فرجع رسول الله ﷺ إلى ربه عز وجل وسأله التخفيف فوضع عنه عشرا, أي خفف الخمسين إلى أربعين ثم رجع رسول الله ﷺ فقال: بكم أمرت؟

قال عليه الصلاة والسلام:" **بأربعين صلاة**".

قال موسى: فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فقد لقيت من بني إسرائيل شدة, وتعلا, فرجع الرسول ﷺ إلى ربه عز وجل فسأله التخفيف, فخفف عنه عشرا, فرجع إلى موسى, وظل يرجع الرسول ﷺ ويسأله التخفيف حتى أصبحت خمس صلوات في اليوم والليلة... فقال له موسى: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف, فقد لقيت من بني إسرائيل شدة..

فقال الرسول ﷺ:" **قد رجعت إلى ربي حتى استحييت, فما أنا براجع إليه**".

وكان الرسول ﷺ: "**قد رجع إلى ربه فخفف إلى الثلاثين والعشرين والعشر صلوات في اليوم والليلة حتى وصل إلى خمس صلوات في اليوم والليلة, وما إن قال:" استحييت, فما أنا براجع إليه**" حتى سمع عليه الصلاة والسلام مناديا يقول: أما إنك كما صبرت نفسك على خمس صلوات فإ ن يجزين عنك خمسين صلاة,

فإن كل حسنة بعشرة أمثالها, فرضي محمد ﷺ كل الرضا.

العودة إلى مكة

عاد الرسول ﷺ من فوق السماء السابعة فعاد حتى هبط إلى السماء الدنيا, فنظر إلى أسفل منه, فرأى وهجا ودخانا وسمع أصواتا, فقال عليه الصلاة والسلام:" **من هؤلاء يا جبريل؟**"

قال جبريل: هذه الشياطين تحوم على قلوب بني آدم كي لا يتفكروا في ملكوت السموات والأرض, ولولا ذلك لرأوا العجائب..

وظلّ الرسول ﷺ يهبط إلى الأرض حتى بلغ بيت المقدس, فوجد الأنبياء مجتمعين فيه ينتظرون الصلاة فحياهم عليه الصلاة والسلام فحيوه, ولما حانت الصلاة قام النبيون لأدائها, فجاء جبريل, أخذ بيد النبي ﷺ إلى موقف الإمام, وأشار إليه أن يصلي م فصلى م... والغالب أ ا كانت صلاة الصبح, وفي إمامته عليه الصلاة والسلام للأنبياء تشريف له عليه الصلاة والسلام وإعلاء لقدره على سائر الأنبياء.

ثم ركب الرسول عليه الصلاة والسلام البراق بعد أن خرج من بيت المقدس, فركب البراق وعاد إلى مكة والناس نيام فلما أصبح الصبح, وصحت مكة, وعلت الشمس, شمس الضحى, أخبر عليه الصلاة والسلام الناس بما حدث معه, وأول من رآه أبو جهل, وكان كثيرا ما يستهزئ بالنبي ﷺ, فجاءه أبو جهل وقال له مستهزئا: أراك معنا في تفكير عميق, فهل حدث لك شيء جديد؟

قال رسول ﷺ:"**نعم**".

قال أبو جهل: وما هو؟

فقال عليه الصلاة والسلام:" **إنني أسري بي الليلة**" أي: انتقلت وسافرت.

قال أبو جهل: إلى أين؟!

فقال عليه الصلاة والسلام:" **إلى بيت المقدس**".

ففتح أبو جهل فمه من الدهشة وقال: ثم عدت إلينا؟!

فقال عليه الصلاة والسلام في ثقة واطمئنان: "**نعم**"

كان أبو جهل يسخر من الرسول ﷺ, ويقول: هذا يزعم أنه يكلم من

السماء.. وكان هو وجماعته قد أكثروا من ترديد هذا الكلام حتى نسوه لفترة فلما سمع أبو جهل أن الرسول قد سافر ليلا من مكة إلى بيت المقدس, والعكس في الليلة نفسها مع أ م يسافرون لها في شهر, أراد أبو جهل أن يستغل هذه المعجزة التي لم يصدقها للسخرية من محمد, والإساءة له أمام الناس, كي ينصرفوا عنه إذ أنه يقول ما لا تقبله العقول..

ظن أبو جهل أنه بإمكانه أن يكذب الرسول ﷺ لأنه يقول أشياء لا يقبلها عقله هو, وأراد أن يجمع الناس لأنه يتوقع أن يتراجع محمد ﷺ عما قاله والذي لا يصدقه, ولما خاف أن ينكر محمد ﷺ ما قاله أمام الناس قال له: أرأيت يا محمد إن أنا دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتني به؟ أتقول لهم ما قلت لي؟

فقال رسول الله ﷺ:" **نعم**".

فنادى أبو جهل بأعلى صوته: يا معشر كعب بن لؤي.

فجاء الناس إليه, فقال أبو جهل للرسول ﷺ: حدث قومك بما حدثتني به.

فقال رسول الله ﷺ:" **إني أسري** بي **الليلة**".

فقالوا: إلى أين؟

فقال عليه الصلاة والسلام:" إلى بيت المقدس".

فقالوا: ثم أصبحت الآن بيننا بعد كل هذا السفر؟!!

قال عليه الصلاة والسلام:" **نعم**".

وهنا هاج القوم, وصاروا يضربون كفا على كف, ويضع بعضهم يده على رأسه عجبا لكذب محمد ﷺ كما يظن ويدعي.

وصاروا يكذبون رسول الله ﷺ, حتى قال له رجل منهم اسمه المطعم بن عدي: والله يا محمد لقد كان أمرك فيما مضى أمرا هينا, أما اليوم فقد أمعنت في الكذب بما لا تصدقه العقول.. إننا نركب الإبل إلى بيت المقدس فنظل شهرا في الذهاب وشهرا في العودة ثم تزعم أنك سافرت هذا السفر في ليلة واحدة؟ واللات والعزى لا أصدقك, وما كان هذا الذي تقوله يحدث أبدا..!!

وقال بعضهم في استهزاء: وماذا رأيت في بيت المقدس؟

فقال عليه الصلاة والسلام:" **قابلت عددا من الأنبياء منهم إبراهيم وموسى**

وعيسى عليهم الصلاة والسلام وصلّيت م وكلمتهم".

وكذب الكفار الرسول ﷺ وسخروا منه, وقالوا: لو أن أبا بكر سمع صاحبه محمدا يقول ما يقول اليوم لكذبه, ولانصرف عنه, وكف عن مناصرته وتأييده؛ وإذا انصرف عنه, وكف عن مناصرته, انصرف الكثيرون معه عن محمد, فيهون شأنه ويضعف أمره, فجرى أحدهم يبحث عن أبي بكر في كل مكان حتى وجده في أحد مجالس قريش, فقال له هل سمعت ما يقول صاحبك يا أبا بكر؟

فقال أبو بكر: وما ذاك الذي يقول صاحبي؟

قال الرجل: يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس, ثم أصبح بيننا!!

فقال أبو بكر: أوقد قال ذلك؟

قال الرجل: نعم واللات والعزى لقد قال ذلك.

قال أبو بكر: لئن كان قد قال ذلك فوالله لقد صدق.

فقال الرجل في عجب ودهشة: أتصدقه أنه ذهب إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح.

قال أبو بكر: نعم إني أصدقه حتى لو قال أبعد من ذلك. أصدقه أن الخبر يأتيه من السماء في ساعة من ليل أو ار. أفلا أصدقه فيما هو أقل من ذلك عجبا؟!!!

وقام أبو بكر والرجل وبعض من كانوا معه, وذهبوا إلى حيث يجلس رسول الله ﷺ ويتحدث عن الإسراء, فلما وصلوا إلى هناك سمعوا المطعم بن عدي يقول: يا محمد: إن كنت ذهبت الليلة إلى بيت المقدس ودخلته وصليت فيه, فلا بد أنك شاهدته, وعرفت معالمه: من أبواب وجدران وغيرها, فصفه لنا..

ثم أضاف المطعم بن عدي قائلا:

إننا نعرف أنك لم تذهب قبل هذه الليلة إلى بيت المقدس, فإذا وصفته لنا الآن كان ذلك دليلا قاطعا على أنك زرته الليلة!!!.

وهنا أحس رسول الله ﷺ في حيرة شديدة تعتريه, وأن كربا أو غما لا مثيل له يستولي عليه.. إنه لم يذهب إلى بيت المقدس قبل هذه الليلة وحين ذهب إليها في إسرائه كان في شغل بما أنعم الله عليه من إيمان وآيات كبرى. لم يهتم بتأمل الحوائط والنوافذ والأبواب وغير ذلك من الأشياء البسيطة, كيف يعي لذلك ومعه البراق,

وهو معجزة وعجب عجاب, وكان معه جبريل وهو رسول رب العالمين إليه, والوقت غير مناسب لأن ينشغل الرسول ﷺ أو ينشغل ضميره بالمباني وغيرها من هذه الأشياء. فقد رأى من آيات ربه ما رأى, انشغل بكل هذه الآيات, وعاد من السماء السابعة إلى الأولى, وهبط من الأولى إلى أرض بيت المقدس، كل هذه المعجزات الكبرى لم تجعله يلتفت إلى شيء من هذا القبيل حوله.

والأهم من ذلك أنه عليه الصلاة والسلام قد عجز ولم يجد ما يجيب به على سؤالهم.

ولما رأى هؤلاء الكفار أنه عليه الصلاة والسلام سكت ولم يجب, استعدوا للسخرية والتكذيب, وكان أبو بكر الصديق قد ذهب إلى بيت المقدس كثيرا وله دراية به.. وكان إلى جانب ذلك لا يشك في صدق رسول الله ﷺ, وإنه عليه الصلاة والسلام قد زار حقا في تلك الليلة بيت المقدس, ولا جدال في ذلك.

فلما رأى أبو بكر توقف رسول الله ﷺ عن الإجابة, ورأى القوم يوشكون أن يرفعوا أصوا م بالسخرية والاستهزاء والتكذيب, قال أبو بكر للرسول ﷺ: صفه لي يا رسول الله, فإني قد جئته وزرته عدة مرات.

وقد رغب أبو بكر من هذا أن يقطع ألسنتهم ويمنعهم من السخرية, وأن يأتي بالدليل على صدق إسرائه.

وعند ذلك حدثت المعجزة, وأراد الله أن ينصر نبيه ﷺ, فرفع بيت المقدس وجعله في بصر رسول الله ﷺ وبصيرته, فظهر له بيت المقدس واضحا وجليا, فقال عليه الصلاة والسلام: "**باب منه مكانه كذا**", فصاح أبو بكر فرحا وقال: صدقت يا رسول الله أشهد أنك أنت رسول الله.. واستمر رسول الله ﷺ يقول:" **وباب منه في موضع كذا..**" فيعود أبو بكر ويقول في حماسة وفرح: صدقت يا رسول الله, أشهد أنك رسول الله, وظل أبو بكر يقول ذلك في كل فقرة, ولذلك فقد سمي أبو بكر من هذا اليوم باسم الصديق رضوان الله عليه.

سكت أبو جهل والكفار وعلموا أن رسول الله لم ولن يهزم أمامهم, ولكنهم عادوا إلى التضليل والكذب وقال أحدهم: يا قوم؛ وألم يخبركم الوليد بن المغيرة, فإن ما سمعناه اليوم من محمد إن هو إلا السحر بعينه.

وأسرع بعضهم يغير مجرى الحديث فقال: يا محمد؛ إن كنت ذهبت الليلة إلى بيت المقدس حقا فإن لنا عيرا ذهبت بتجارتنا إلى بلاد الشام, فهل تستطيع أن تخبرنا أين مكا ا الآن من الطريق؟

لقد وصفت لنا بيت المقدس, ولعلك تعرف مكان قافلتنا الآن فأين هي الآن من مكة؟

فأخبرهم رسول الله ﷺ أنه مر ـذه القافلة بوادي كذا وهو متوجه إلى الشام, فخافوا من منظر البراق وجماله, لأن البراق كان سيره صوت مخيف, فأزعج القوم, وجعل جمالهم تنفر و ـرب هنا وهناك, فهرب منهم بعير فدلهم الرسول ﷺ على مكانه.

فلما عادت القافلة, وحكى لها الكفار ما قاله الرسول ﷺ عنهم, صدقوه, وصدقوا ما قاله عليه الصلاة والسلام.

وقال رجل آخر للرسول ﷺ: إن لنا قافلة أخرى ذهبت إلى الشام فدلنا على مكا ا في الطريق.

فقال عليه الصلاة والسلام:" **مررت ـذه الإبل وأنا قادم** في **مكان كذا وكذا, وفيها** جمل **عليه غرارتان: غرارة سوداء وغرارة بيضاء, فلما حاذيتهم نفرت العير, أي أن الإبل خافت وذعرت من حس البراق, وصرع** بعير **وانكسر**".

فلما عادوا إلى مكة أخبروا بصدق ما قاله الرسول ﷺ.

ورغم ذلك قالوا: هذا هو السحر.

وعاد أحدهم يقول لرسول الله ﷺ: وإن لنا إبلا, فأخبرنا بمكا ا ومتى تجيء؟

فقال عليه الصلاة والسلام:" تأتيكم هذه العير يوم كذا يقدمها جمل أورق عليه غطاء من الصوف الأحمر وغرارتان."

فلما كان وصول القافلة خرجت قريش لتنظر هل يصدق موعد رسول الله ﷺ أو لا يصدق, وكاد النهار ينتهي وأوشكت الشمس على المغيب, فقال أحد الكفار ساخرا: ها هو ذا اليوم ينتهي, ولم تقدم القافلة, ولم تجئ, اليوم بطل سحر محمد..

وما كاد الرجل يتم كلمته حتى صاح أحد المؤمنين المسلمين:

الله أكبر هذه طلائع القافلة قد ظهرت.

وقدمت القافلة, وفي مقدمتها جمل أورق عليه غطاء من الصوف الأحمر وغرارتان كما وصفه رسول الله ﷺ.

ولكن الكفار وقريشا مع كل هذه المعجزات ظلوا على ضلالهم وسخريتهم وتكذيبهم.

وبقيت في أذهاننا معجزات رسول الله ﷺ حية لا ننساها أبدا.

البراق العجيب

قال تعالى: **سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا, إنه هو السميع البصير** [الإسراء: ١].

البداية:

كان الرسول ﷺ في بداية دعوته, فلم يمض وقت طويل على بدء دعوته المباركة حتى عزه ربه بمعجزات أثارت في كفار مكة الدهشة والعجب, وكان لها أثر واضح بين الذين آمنوا برسول الله ﷺ وبين الذين لم يؤمنوا به. هذه المعجزة هي معجزة الإسراء والمعراج والذي كان البراق من أعاجيبها.

وقبل أن نتحدث عن البراق نسأل أنفسنا عن الإسراء والمعراج ما هو الإسراء؟ وما هو المعراج؟

الإسراء هو انتقال الرسول ﷺ ليلا من مكة إلى بيت المقدس, ثم عودته إلى مكة في الليلة نفسها. في حين أن هذه المسافة يقطعها الناس في شهر ذهابا وشهر في العودة.

أما المعراج وهو صعوده عليه الصلاة والسلام من بيت المقدس إلى السموات العلا إلى سدرة المنتهى حيث أوحى الله إليه ما أوحى, ثم هبوطه إلى بيت المقدس في ليلة الإسراء نفسها.

كان لهذه المعجزة الكبرى -معجزة الإسراء والمعراج- حكايات عجيبة ومواقف طريفة سنسمعها واحدة تلو الأخرى: فبينما كان الرسول ﷺ نائما بجوار الكعبة ذات ليلة أتاه جبريل بدابة بيضاء جميلة أكبر من الحمار وأقل من الحصان إ ا

البراق العجيب.

وقد كان البراق دابة يركبها الأنبياء قبل رسول الله ﷺ, فلما أراد النبي ﷺ ركو ا نفرت وهاجت؛ فصاح جبريل (مه يا براق! يحملك على هذا! فوالله ما ركبك قط أكرم على الله منه).

فاستحيا البراق وهدأت ثورته وسكن مكانه.

وركب رسول الله ﷺ البراق فكان سيره غاية في السرعة والانسياب فلا اضطراب ولا قلقلة في سيره, مما أشعر الرسول ﷺ بالراحة والاطمئنان, فكأنه مستقر على فراش ساكن وسرير ناعم.

وقد ذكر أنه كان من سرعته ما يثير العجب حتى أنه يضع حافره في كل خطوة عند منتهى البصر, وكان دائما مستوي السير فلا يعلو ولا يهبط حتى إذا قابلته عقبة مرتفعة, قصرت رجلاه الأماميتان وطالت الخلفيتان.. وإذا قابله واد منخفض طالت رجلاه الأماميتان وقصرت رجلتاه الخلفيتان..!!.. وهكذا توفرت للرحلة معجزات ما بعدها معجزات.

أما جبريل عليه السلام فكان يسير بجناحيه إلى جانب البراق مؤنسا ورفيقا للرسول ﷺ, كانت وجهتهما بيت المقدس حيث يوجد المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله.

مشهد في الطريق

وفي الطريق تعددت المشاهد وفي هذا المشهد تظهر امرأة جميلة متبرجة بكل أنواع الزينة, حاسرة على ذراعيها تنادي: يا محمد انظرني أسألك, فلم يلتفت إليها ﷺ, ثم سار عليه الصلاة والسلام ما شاء الله له أن يسير, فقال جبريل للرسول: أما سمعت شيئا في الطريق؟

فقال عليه الصلاة والسلام:" **بينما أنا أسير إذا بامرأة حاسرة على ذراعيها عليها من كل زينة خلقها الله تقول: يا محمد انظرني أسألك! فلم أجبها, ولم أقم عليها..**".

قال جبريل: تلك الدنيا, أما أنك لو أجبتها, لو أقمت عليها لاختارت أمتك

الدنيا على الآخرة, وأما الشيء الذي ناداك من جانب الطريق فهو إبليس.

ثم قدم جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ إناءين في أحدهما خمر, وفي الآخر لبن, وقال له:

اختر ما شئت, فاختار رسول الله إناء اللبن فشربه, وأعرض عن الخمر, ولم تكن الخمر قد حرمت في الإسلام حينئذ, فلما اختار الرسول اللبن قال له جبريل: هديت إلى الفطرة, ولو شربت الخمر لغويت وغويت أمتك.

فقال الرسول ﷺ:" **الله أكبر الله أكبر**".

وقد قصد جبريل عليه السلام بهذا أن الخمر كانت في أصلها عصيرا طيبا أو نقيعا نافعا للبدن؛ ثم تحولت عن هذا الأصل الطيب النافع في اللون والطعم والريح وتحول كل هذا من شيء طيب نافع مفيد للجسم والبدن إلى عصير خبيث يذهب بالعقل, ويدمر الجسم, ويفسد الإرادة, ويتلف البدن, والأدهى من ذلك كله أنه يوقع العداوة والبغضاء بين الناس..

فلو أن الرسول قد شرب الخمر لكان ذلك قبولا منه لشيء صار خبيثًا, ورفضا لكل ما هو طيب نافع, وتفضيلا للخبيث على الطيب, وهذا لا يقبله منطق رسول الله ودعوته وخلقه الكريم, فهو لا يهوى الخبائث, بل يدعو للطيب والطاهر وبذلك يثبت عليه الصلاة والسلام على الأصل النافع الطيب..

واللبن الذي اختاره ﷺ شراب أصيل لم يتغير لونه ولم يتحول إلى شراب خبيث يذهب العقول كالخمر, فهو نافع للصحة والبدن, فلما شربه ﷺ آثر الصالح على الفاسد وهذه سنة الله التي فطر الله الناس عليها, وهي سنن دائمة الوجود باقية بقاء الناس لما فيها من نفع للناس أجمعين, ولذا فقد قال له جبريل عليه السلام: هديت إلى الفطرة, فما فعله رسول الله ﷺ من شربه للبن هو منهج يسير على سنة الله في خلقه, الذين يعيشون الآن على وجه المعمورة والذين خلوا من قبل.

نــزل رسول الله ﷺ عند بيت المقدس, وصلى بالأنبياء إماما, وربط البراق بحلقة باب المسجد.

مشاهد المعراج

المشهد الأول

قدم لرسول الله ﷺ معراج جميل والمعراج "سلم" لم تر الخلائق مثله, فصعد الرسول ﷺ ومعه جبريل عليه السلام فوق المعراج حتى بلغا السماء الأولى, وهي سماء الدنيا, وطلب جبريل من ملائكة هذه السماء أن يفتحوا له أبوا ا, فناداه مناد: من أنت؟ فقال: أنا جبريل. قال المنادي: ومن معك؟ قال جبريل عليه السلام: معي محمد. قال: أوقد بعث محمد؟ قال جبريل عليه السلام: نعم.

وفتح له, فتحت لهما السماء والدنيا, ونظر رسول الله ﷺ فإذا رجل تام الخلقة عن يمينه أسودة (أرواح), وعن يساره أسودة. فإذا نظر إلى التي عن يمينه تبسم, وقال: روح طيبة اجعلوها في عليين فيفتح باب ويخرج منه ريح طيبة, فتدخل فيه, واذا نظر إلى التي على يساره حزن وقطّب جبينه وقال: روح خبيثة اجعلوها في سجين, فيفتح باب ويخرج منه ريح خبيثة, فتدخل فيه.

سأل رسول الله ﷺ عن هذا الشخص التام الخلق وعن هذه الأسودة, وعن هذين البابين فقال جبريل عليه السلام

أما الشخص التام الخلقة فهو أبوك آدم.

وأما هذه الأسودة عن يمينه وعن يساره فهي أرواح بنيه؛ أهل يمينه هم أهل الجنة, وأهل شماله هم أهل النار, فإذا نظر إلى أهل الجنة تبسم واذا نظر إلى أهل النار حزن وابتأس.

وأما البابان فالباب الذي إلى اليمين باب الجنة, والباب الذي إلى اليسار باب جهنم.

رحب آدم عليه السلام بمحمد ﷺ وقال: مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح.

فرد رسول الله ﷺ التحية بأحسن منها. ومضى إلى مشهد آخر من مشاهد المعراج. التي تعد درسا من دروس الدعوة العظيمة وقدوة حميدة للناس أجمعين.

المشهد الثاني

نظر الرسول ﷺ فرأى موائد كثيرة, عليها لحم مشرح جيد ولا يقر ا أحد, وموائد أخرى عليها لحم نتن كريه الرائحة وحول هذا اللحم النتنة أناس يتنافسون

على الأكل منها ويتركون اللحم المشرح الجيد, فقال رسول الله ﷺ:" ومن هؤلاء يا جبريل"؟

قال جبريل عليه السلام: هذا حال ناس من أمتك يتركون الحلال الطيب فلا يطعمونه, ويأتون الحرام الخبيث فيأكلونه!!.

المشهد الثالث

ثم مضى رسول الله ﷺ, فوجد ناسا شفاههم كمشافر الإبل, فيأتي من يفتح أفواههم, فيلقي فيها قطعا من اللحم الخبيث, فيضجون منها إلى الله لأ ا تصير نارا في أمعائهم فلا يجيرهم أحد حتى تخرج من أسفلهم فقال عليه الصلاة والسلام:" من هؤلاء يا جبريل"؟

قال جبريل عليه السلام: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى بالباطل ظلما, إنما يأكلون في بطو م نارا وسيصلون سعيرا.

المشهد الرابع

رأى الرسول ﷺ طريقًا ممتدا إلى النار يمر فيه آل فرعون, فيعرضون على النار غدوا وعشيا, وأثناء مرورهم يجدون على الطريق أقواما بطو م منتفخة مثل البيوت, كلما ض أحدهم سقط يقول: اللهم أخر يوم القيامة, اللهم لا تقم الساعة فيطؤهم آل فرعون عليه بأقدامهم, فقال عليه الصلاة والسلام: "من هؤلاء يا جبريل"؟.

قال جبريل عليه السلام: هؤلاء هم الذين يتعاملون بالربا من أمتك.

ولا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس .

المشهد الخامس

مضى الرسول ﷺ فرأى أقواما يقطع اللحم من جنو م ثم يقال لكل منهم:

كل من هذا اللحم كما كنت تأكل لحم أخيك ميتا.

فقال الرسول ﷺ:" من هؤلاء يل جبريل"؟

قال جبريل: هؤلاء هم الذين يغتابون الناس من أمتك, كان كل منهم يأكل لحم أخيه ميتا.

المشهد السادس

ومضى رسول الله ﷺ فوجد أقواما تضرب رؤوسهم بالصخر كلما ضربت تحطمت, وكلما تحطمت عادت كما كانت فترضخ من جديد بالصخر فتتحطم.. وهكذا, فقال عليه الصلاة والسلام:" من هؤلاء يا جبريل"؟

قال جبريل عليه السلام: هؤلاء من أمتك هم الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة.

المشهد السابع

ومضى رسول الله ﷺ فوجد أقواما يسترون عورا م من الأمام والخلف برقاع وهم يسرحون كما تسرح الإبل. يأكلون الضريع والزقزم ورضف جهنم وحجار ا؛ فقال عليه الصلاة والسلام:" من هؤلاء يا جبريل"؟

قال جبريل عليه السلام: هؤلاء هم الذين لا يؤدون صدقات أموالهم, وما ظلمهم الله تعالى شيئا, وما الله بظلام للعبيد.

المشهد الثامن

في هذا المشهد يأتي رسول الله ﷺ على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها هو يزيد عليها, وذلك دليل على كثرة الذنوب التي ارتكبها والمعاصي التي اقترفها, ومع ذلك فهو يزيد منها ويثقل على نفسه بالذنوب فلما رآه رسول الله ﷺ قال:"ما هذا يا جبريل"؟

قال جبريل عليه السلام: هذا الرجل من أمتك تكون عليه أمانات الناس, لايقدر على أدائها وهو يزيد عليها أمانات أخرى, وقد دعا الإسلام إلى رد الأمانات.

المشهد التاسع

في هذا المشهد الذي لو تخيلناه لكان مرعبا بحق, ولكنه يعبر بصدق عن دور اللسان في حياة المؤمن, فقد مر رسول الله ﷺ على أقوام تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد, كلما قرضت عادت كما كانت لا يفر عنهم من ذلك شيء وهذا جزاء من يتكلم بالشر, ويخوض فيه بين الناس فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك قال لجبريل:" ما هذا يا جبريل"؟

قال جبريل: هؤلاء خطباء الفتنة.

المشهد العاشر

هذا المشهد يثير في نفوسنا الراحة ويبعث فيها الاطمئنان والسكينة, فقد مر الرسول ﷺ على أقوام يحصدون في يوم؛ كلما حصدوا عاد كما كان. وكثرة الحصاد والمحصول على هذا الوجه رمز لجزاء الله سبحانه الذي لا يتناهى, فلما رآهم رسول الله ﷺ على ذلك سأل جبريل عليه السلام:" ما هذا يا جبريل"؟

قال جبريل: هؤلاء هم المجاهدون في سبيل الله, تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف.

ولذلك يشبه الله العمل الصالح في الآية: **كمثل حبة أنبتت سبع سنابل** في **كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف** لمن **يشاء** .

المشهد الحادي عشر

هذا مشهد من مشاهد الجنة التي وعد بها المتقون والصالحون, فقد أتى رسول الله ﷺ على واد فسيح, فهبت عليه منه ريح باردة طيبة, ورائحة مسك أزكى من مسك الأرض, وسمع من جهته صوتا, فقال عليه الصلاة والسلام:" يا جبريل.. ما هذا الريح الطيبة الباردة؟ وما هذا المسك؟. وما هذا الصوت؟".

قال جبريل عليه السلام: هذا صوت الجنة تقول: رب ائتني بما وعدتني, فقد كثرت غرفي, واستبرقي, وحريري, وسندسي, ولؤلؤي, ومرجاني وفضتي, وذهبي, وأكوابي, وصحافي, وأباريقي, وكؤوسي, وعسلي ومائي, وخمري, ولبني, فائتني بما وعدتني.

فقال عز وجل: لك كل مسلم ومسلمة, ومؤمن ومؤمنة, ومن آمن بي وبرسلي, وعمل صالحا, ولم يشرك بي شيئا.. ولم يتخذ من دوني أندادا.. ومن خشيني فهو آمن, ومن سألني أعطيته, ومن أقرضني جزيته, ومن توكل علي كفيته, أني أنا الله لا اله إلا أنا لا أخلف الميعاد وقد أفلح المؤمنون, وتبارك الله أحسن الخالقين.

قالت الجنة: قد رضيت..

المشهد الثاني عشر

هذا المشهد عن جهنم أعاذنا الله من شرها, ومنعنا من لهيبها, وجنبنا غيظها وفورا ا, فقد جاء رسول الله ﷺ على واد فسيح, فسمع صوتا منكرا, ووجد ريحا خبيثة فقال:" ما هذه الريح يا جبريل؟ وما هذا الصوت؟".

قال جبريل: هذا صوت جهنم تقول: يا رب ائتني بما وعدتني فقد كثرت سلاسلي, وأغلالي, وسعيري, وحميمي, وضريعي, وغساقي, وعذابي, وقد بعد قراري, واشتد حري, فائتني بما وعدتني.

فقال لها رب العزة: لك كل مشرك ومشركة, وكافر وكافرة, وكل خبيث وخبيثة, وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب.

قالت النار قد رضيت.

أعاذنا الله من شرها, وجنبنا المعاصي وحبب إلينا الطاعات حتى نكون من أهل الجنة بعيدا عن النار وعذا ا.

هذه مشاهد السماء الأولى, ترى ماذا في السماء الثانية, هذا ما سنعرفه في الصفحات التالية.

من السماء الثانية إلى السابعة

صعد جبريل إلى السماء الثانية وقد صحبه رسول الله ﷺ, فاستفتح كما فعل في السماء الأولى.. فقال خازن السماء الثانية:

من هذا الذي معك يا جبريل؟

فقال جبريل عليه السلام: هذا محمد رسول الله ﷺ.

قال: أوقد بعث؟

قال جبريل عليه السلام: نعم.

فقال: حياه الله من أخ, ومن خليفة, فنعم الأخ ونعم الخليفة, ونعم الميء جاء.

دخل النبي ﷺ فإذا بشابين, فسأل جبريل عليه السلام:" من الشابان يا جبريل؟".

قال جبريل عليه السلام: هذان عيسى بن مريم, ويحيى بن زكريا عليهما

السلام, وكل منها ابن خالة الآخر, فلما رأيا النبي ﷺ قالا: مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح, فحياهما عليه السلام, ثم صعد جبريل إلى السماء الثالثة برسول الله ﷺ فاستفتح, فقالوا: من هذا؟ قال جبريل: أنا جبريل, فقالوا: من معك؟ قال جبريل: محمد رسول الله. قالوا: أوقد أرسل إليه؟ قال جبريل عليه السلام: نعم. قالوا: حياه الله من أخ وخليفة, فنعم الأخ, ونعم الخليفة, ونعم المجيء جاء.

دخل رسول الله ﷺ فإذا هو برجل قد فضل على الناس في الحسن والجمال, فقال عليه الصلاة والسلام:" من هذا يا جبريل الذي فضل على الناس في الحسن؟".

قال جبريل عليه السلام: هذا أخوك يوسف عليه السلام.

فحياه الرسول ﷺ فلما رآه يوسف عليه السلام قال: مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح.

ثم صعد به جبريل إلى السماء الرابعة فاستفتح, ففتح له ولقي تحية وترحيبا كعادته فإذا هو برجل عليه علامات الوقار والجلال, ورفعة الشأن فقال عليه الصلاة والسلام:" من هذا يا جبريل؟".

قال جبريل عليه السلام: هذا إدريس نبي الله عليه السلام رفعه الله مكانا عليا فلما رآه إدريس عليه السلام قال: مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح, فرد عليه الصلاة والسلام التحية.

ثم صعد النبي ﷺ إلى السماء الخامسة فاستفتح ففتح له, ولقي من التحية ما اعتاد عليه في السموات السابقة, فدخل النبي ﷺ فإذا هو برجل جالس وحوله قوم يقص عليهم من أمر الله ما شاء الله؛ فقال: "من هذا يا جبريل؟".

فقال جبريل عليه السلام: هذا المحبب إلى قومه هارون بن عمران, وهؤلاء بنو إسرائيل, فلما رأى هارون محمدا عليه الصلاة والسلام قال: مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح, فحياه الرسول عليه السلام.

ثم صعد به جبريل إلى السماء السادسة فاستفتح, ففتحت السماء له, ورحب به عليه السلام ولما دخل عليه السلام فإذا برجل جالس فمر به فبكى الرجل, فقال الرسول عليه السلام:" يا جبريل من هذا؟".

قال جبريل عليه السلام: هذا موسى ابن عمران.

فقال عليه الصلاة والسلام:" فماله يبكي؟".

قال جبريل: إنه يقول: تزعم بنو إسرائيل أني أكرم بني آدم على الله عز وجل, وهذا رجل من بني آدم قد فاقني في رتبته, فلو أنه بنفسه لما اهتممت, ولكنه مع كل نبي أمته.

ثم صعد به جبريل عليه السلام إلى السماء السابعة فاستفتح ففتحت له, ودخل عليه الصلاة والسلام فإذا به يرى البيت المعمور, وهو بيت في السماء السابعة يقوم في سمت الكعبة الشريفة في أرضنا هذه يدخله كل يوم للصلاة فيه سبعون ألف ملك لا يعودون إليه إلى يوم القيامة, ورأى عليه السلام رجلا أحسن ما يكون الرجال قد أسند ظهره إلى البيت المعمور فقال عليه الصلاة والسلام:" من هذا الرجل يا جبريل؟".

قال جبريل عليه السلام: هذا أبوك إبراهيم عليه السلام, خليل الرحمن. فسلم رسول الله ﷺ فرد عليه الخليل السلام.

ورأى الرسول ﷺ حول إبراهيم الخليل قوما جلوسا بيض الوجوه أمثال القراطيس.. وقوما في ألوا م شيء, فدخلوا ـرا اغتسلوا فيه, فخرجوا وقد خلص من ألوا م شيء, ثم دخلوا ـرا آخر, فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلصت ألوا م, فصارت مثل ألوان أصحا م, فجاؤوا فجلسوا إلى أصحا م.

فقال عليه الصلاة والسلام:" يا جبريل من هؤلاء البيض الوجوه؟ ومن هؤلاء الذين في ألوا م شيء؟ وما هذه الأ ار التي دخلوا فيها فجاؤوا وقد صفت ألوا م؟".

قال جبريل عليه السلام: أما هؤلاء البيض الوجوه فقوم لم يلبسوا إيما م بظلم, أي أ م أخلصوا دينهم لله؛ فليس في قلو م شيء من شك أو ميل إلى الاثم والبغي, فكان إيما م نقيا صافيا.

وأما هؤلاء الذين في ألوا م شيء؛ فقوم خلطوا عملا صالحا, وآخر سيئًا, فتابوا فتاب الله عليهم.

وأما الأ ار فهي: ـر الرحمة, و ـر النعمة, والثالث: شراب طهور.

هذه هي معجزة الإسراء والمعراج, معجزة مشاهد الطريق العظيمة, ومشاهد

العروج إلى السماء معجزة الخروج من مكة ليلاً والوصول إلى بيت المقدس في لحظات سريعة, وكان البراق هو الأداة التي سخرها الله ضمن أدوات انصرفت مشيئته أن تكون, فكان لونه معجزة, يضع قدمه في محل رؤيا العين أو على امتداد البصر خافت من حس أقدامه الإبل وهربت في الصحراء ولم يكن البراق الشيء العجيب الوحيد, بل ما شاهده الرسول ﷺ يعد معجزات متعددة واحدة تلو الأخرى تقدم النصح والإرشاد للناس أجمعين.